

دراسات في  
علم الأخلاق  
في ضوء القرآن الكريم والسنة الشريفة

بقلم

د. عزة محمد حسن

مدرس العقيدة والفلسفة

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

جامعة الأزهر - القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

" الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب

ولم يجعل له عوجاً "

الكهف آيه ١

صدق الله العظيم

" ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك

رحمه انك أنت الوهاب "

آل عمران آيه ٨

صدق الله العظيم





## مقدمه

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين والخلق أجمعين  
سيدنا محمد النبي الأئى الكريم والهادى الى الصراط المستقيم وعلى آله وصحبه أجمعين .  
أما بعد :

هذه دراسة فى علم الأخلاق الذى يعتبر بحق من أهم العلوم بعد علوم العقيدة  
والدين لأنه من العلوم الوثيقة الصلة بالدين بل انه هو المنبع الأصيل للأسس الأخلاقية  
القوية والفضائل الراسخة التى حددها القرآن الكريم ووضع معالمها .

وعلم الأخلاق هو علم دراسة السلوك الانسانى وهو من هذا الوجه يشترك مع  
علوم أخرى كثيرة وأغنى بها تلك العلوم التى تتخذ من هذا السلوك الانسانى موضوعا  
لدراستها من أمثال علم النفس وعلم الاجتماع ، فموضوع علم النفس مثلا هو دراسة سلوك  
الأفراد .

كأن علم الاجتماع يهتم بدراسة سلوك الأفراد والجماعات متمثلا فيما يسود المجتمع  
أو الجماعة من عادات وظواهر اجتماعية متعددة الا ان ذلك لا يعنى — بالطبوع —  
هوية هذا العلم مع علم النفس والاجتماع بل أن ثمة فارقا بين علم الأخلاق وبين هذين  
العلمين الأخيرين من حيث أن الأخلاق لا تهتم بدراسة السلوك الانسانى من زاوية  
خاصة وهى زاوية أو ناحية الصواب والخطأ أو الفضيلة والرذيلة .

وتهدف الأخلاق من وراء ذلك الى وضع قوانين السلوك الانسانى السليم ومقاييس  
التمييز بين الخير والشر .

أما علم النفس فانه يقوم بدراسة هذا السلوك كما هو موجود ولا تعنيه هذه التفرقة  
فى شىء اذ أن السلوك الخاطىء — فى نظر عالم النفس لا يقل أهمية عن السلوك السليم من

حيث ان كليهما يدل على نبط معين من أنماط الشخصية •

كذلك يختلف علم الأخلاق عن علم النفس والاجتماع من حيث أن الأخلاق علم معيارى بمعنى أنه دراسة لما ينبغى أن يكون عليه سلوك الانسان وليس لما هو عليه بالفعل •

فهذا العلم لايهتم كثيرا بالتصرفات الانسانية من حيث هى كذلك وانما هو يهتم بها من حيث ما ينبغى أن تكون عليه • ومعنى ذلك أنه ينظر الى هذه التصرفات من حيث علاقتها بمثل عليا معينة •

أما علم النفس والاجتماع فهما من العلوم الوضعية أو الوصفية التقريرية التى تصف الشيء كما هو موجود فعلا •

ومن المعروف أن الظاهرة الخلقية لا يتصف بها الا الانسان وحده • وهى فى نفس الوقت دليل على انسانيته حتى لقد عرف بعض الفلاسفة الانسان بأنه حيوان أخلاقى أى أنه أراد أن يميز الانسان عن سائر الحيوانات التى تشترك معه فى الحيوانية فاختار الحد " أخلاقى " وذلك لأن الانسان هو الحيوان الوحيد الذى يستلزم وجوده وجود الأخلاق مثلما يستلزم وجوده وجود الدين • ومع أننا لانجد مجتمعا همجيا أو متحفرا خلا من قيم خلقية فاننا لانجد كذلك نوعا من الحيوان اعتنق مثلا أخلاقية حقا ان كثيرا من الحيوانات خاصة تلك التى تعيش فى قطعان أو جماعات مثل النحل والنمل والقردة تتصرف تصرفات تقترب من الصبغة الخلقية مثل تعاون القطيع فى دفع الأذى والعناية بالصغار الا أننا لا نستطيع أن نقول أن هذه التصرفات وتلك الأفعال تصرفات وأفعال أخلاقية ذلك أن الظاهرة الخلقية انما هى تتسم بالمعرفة التامة بظروفها والحرية والرغبة فى اتيانها وبدون هاتين السمتين ينتفى إمكان اطلاق لفظ الخلقية على الظاهرة • ومن الواضح أن جميع أنواع الحيوانات - ما عدا الانسان - تفتقر الى هذه المعرفة وتلك الحرية أو الإرادة فى اتيان الفعل •

اذن فالانسان أعظم وأرقى كائن في العالم الذي ندركه مباشرة وهو من حيث طبيعته ومعنى وجوده في الحياة فريد بين جميع المخلوقات وعظمته تتجلى اذا تأملنا حياته . فهو الكائن الوحيد المؤهل للتعليم والنشاط العقلى والفنى الرفيع حيث أنه بفضل عقله وإرادته يتصور الطبيعة ويسيطر عليها .

كل ذلك يدل على أن الانسان كائن من نوع خافى في عالمه رغم ما بينه وبين غيره من شبه في الظاهر ويدل ايضا على أنه انما ظهر على هذا الكوكب الذى يعيش فيه ليباشر رسالة في كوكب هو مملكة له .

لذلك كانت أول نعمة يمن بها الرحمن سبحانه وهي من رحمته تكريمه للانسان بتعليم القرآن والتمكين من البيان وهما لا يتأتيان لغير العاقل المميز .

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم :

" ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً " . ( ١ )

وان هذا التكريم واقع فعلا لبنى آدم دون سائر من خلق الله سبحانه على كثرة ما خلق ذلك أن الله تعالى ميز بنى آدم على كل خلقه بالعقل والتمييز والإرادة .

والذى يقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

( ٢ )

" الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان " يعلم بمدى تكريم الله تعالى للانسان بتمييزه له بالعقل دون سائر المخلوقات وبتعليمه له القرآن .

فالقرآن والأخلاق شيء واحد فقد قالت السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها لمن

( ٣ )

( ٢ ) الرحمن : آية ١

( ١ ) الاسراء ٢٠

( ٣ ) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده ، ج ٦ ، ص ٩١ ، ١٦٣ .

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

" انما بعثت لأتمم عكارم الأخلاق " . فمكارم الأخلاق اذا غاية الرسالة وقصدها ونمى  
دعوة جميع الأنبياء والرسل .

فالأفعال التي تستند الى الأخلاق الحميدة تستريح اليها النفوس وترضى منها الضائر  
وتدلى بالتقدير والاجلال .

والأخلاق الحسنة القائمة على عقيدة سليمة هي الوسيلة الوحيدة لاصلاح أى مجتمع  
من المجتمعات وجعله مجتمعاً قوياً متابكاً ينتشر فيه الأمن والسلام والاستقرار والسعادة .

فليكن لنا نحن المسلمين من أخلاق كتابنا وهدى نبينا ما يعصمنا من الذلل ويأخذ  
بيدنا على الصراط المستقيم " لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة " .

وقد أمره ربه ووجهه الى طريق النجاح والفلاح فقال عز من قائله " فاستقم كما أمرت  
وعن تاب معك " .

والأطار العام الذى يضع حدود هذه الاستقامة هو ما وضعه القرآن الكريم مبين  
سلوك وبينه الرسول العظيم .

ونقنا الله للعمل بكتابه والاهتمام بخطى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

والله ولى التوفيق . . . . .

عزه محمد حسن

## الفصل الأول

مدخل لعلم الأخلاق

- (١) التعريف بعلم الأخلاق
- (٢) موضوع علم الأخلاق
- (٣) الغاية من تعلم الأخلاق
- (٤) تقسيم علم الأخلاق
- (٥) الأخلاق ومكانتها في الإسلام
- (٦) مكانة علم الأخلاق في الفلسفة
- (٧) العلاقة بين علم الأخلاق وبين بعض علوم الفلسفة الإنسانية



## المبحث الأول

### التعريف بعلم الأخلاق

خلق الانسان وتاث على وجه الأرض من أزمان لا يعلمها الا الله وتتاسل وتكاثر باذن الله ويكون مع غيره جماعات انسانية صغيرة مثل الأسرة والعائلة وكبرت هذه الجماعات على مر الزمن فصارت عشائر وقبائل وتضاعفت العشائر والقبائل فصارت قرى ومدن ومن القرى والمدن تكونت الأمم والدول .

وقد حرص الانسان من بدء وجوده في الحياة وفي جميع مراحل نموه الاجتماعي التي ذكرناها على تدبير لباسه الذي يحفظ به جسده ويقيه من تقلبات الجو المختلفة وحرص الانسان كذلك على تدبير مسكنه الذي يأوى اليه هو وأسرته .

كل هذه الأشياء فكر فيها الانسان لأنها مقومات الحياة ورأى بثاقب فكره أن هناك عاملا رابعا يجب أن يوليه عنايته لأنه لا يقل في أهميته عن المأكل والملبس والسكن وهي الصفات التي يجب أن يتصف بها هو وأفراد جنسه والأنس والقواعد التي يجب أن تقوم عليها الحياة الانسانية الجماعية .

كانت القاعدة التي ارتكز عليها الانسان في تفكيره وبحثه وإدراك وتحديد هذه الصفات وهذه الأنس والقواعد هي معرفة ما ينفع وما يضر أي ان كل صفة من هذه الصفات وكل أسس او قاعدة يتخذها الانسان دافعا له في سلوكه يجب أن تجلب اليه والذويه الخير . فالخير اذا كان هدف الانسان من تفكيره في أمر نفسه وأمر الجماعة التي يعيش فيها . والشر - أو ما يضر - هو عكس الخير فليبتعد عنه . أي أن كل شيء يفعل الانسان ويجلب له فائدة مادية وكل شيء يتصف به ويجلب له فائدة نفسية ووجدانية فهو الخير الذي يجب ان يسعى اليه الانسان وكل شيء يفعل ويجر عليه ضررا ماديا وكل شيء يتصف به ويسبب له نكسا نفسيا ووجدانيا فهو الشر الذي يجب أن يتبعد عنه ما استطاع الى ذلك سبيلا .

من هنا كان أصل معرفة الإنسان بالخير والشر ومن هنا كان بدء ادراكه للفضائل والردائل • وقد تدخلت العناية الالهية - رحمة بالبشر - في هذا الطور من أطوار المعرفة - فأرسلت اليهم الأنبياء والرسل لهدايتهم الى الصراط المستقيم • والأخذ بيدهم الى المعرفة الصحيحة للخير والشر • وكانت الكتب السماوية موضحة ومحددة لجميع سبل الخير ونهاية ومحفزة عن كل ما هو شر فكان هذا عوناً كبيراً للإنسان ساعده مساعدة فعالة في ادراكاته لمفهوم الخير والشر •

ومن وقت ارسال الأنبياء والرسل ونزول الكتب السماوية تحدد الخير والشر وأصبح الايمان بالله وبالتعاليم السماوية هو الحكم والفيصل في اتجاهات الانسان وأفعاله • فاما ايمان قوى وتقيد بالأوامر الالهية تقود الانسان الى فعل الخير واما كفر والحاد يجره الى ارتكاب الشرور والآثام واما دذبذة بين الايمان والالحاد تحجب الخير للانسان مره وتغريه بالشر مرة أخرى •

وهنا تدخل الانسان في أمر نفسه واندفع الى المعرفة والثقافة بكل قواه المادية والروحية فكما ابتكر علم الطبيعة لبيحث في مظاهر الكون من حرارة وبرودة وتمدد وانكماش والكيمياء لبيحث في حقائق المواد وخواصها والتاريخ ليعرف سلفه وينير الطريق لخلفه كذلك ابتكر علم الأخلاق ليحدد مكانه من الله أو من الشيطان ولفطرته المؤمنة الصالحة كان اتجاهه الى الله أعظم وأشد •

ولقد ظهر علم الأخلاق واستوى بين العلوم الأخرى عزيز المكانة كريم الأهداف وحدد الفضائل والردائل جميعا وبين للناس أن التحلى بالفضائل هو أفضل وأعز ما يتحلى به الانسان في الحياة الدنيا وأعلى ما يمكن أن يتزود به لآخرته وأن الرذيلة وبال فسى الدنيا والآخرة • وهو في كل مرحلة يحثنا على فعل الخير ويبين لنا الوسائل التى يجب أن نتبعها لبلوغ أهدافنا الخيرة • فهو علم يوضح معنى الخير والشر وبين ماينبغى أن يكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضا ويشرح الغاية التى ينبغى أن يقصدها الناس فى أعمالهم •



يقول د. بيضار :

ولنا كان كل علم من العلوم لابد أن يوضع له تعريف يحدده عما عداه من علوم كان لابد أن يختص علم الأخلاق بتعريف وتحديد معين يصير به ذلك العلم كما يقول العلماء " جامعا مانعا " . يعنى جامعا لكل ما يندرج تحته من مسائل وموضوعات ومانعا من دخول مسائل العلوم الأخرى فيه .

الا أن التطور التاريخي لذلك العلم وانطبائه بطوابع عصور الفكر الانساني المختلفة وتأثره بمناخ كل طور من أطوار الحياة الانسانية التي تختلف بعضها عن بعض في تصورها لمركز الانسان في هذه الحياة وغايته منها وسعادته فيها . . فان هذا التطور جعل دائرة ذلك العلم تختلف كما وكيفا باختلاف العصور والأطوار تبعا لاختلاف التصورات واتساع المفاهيم أو ضيقها .

ولهذا صعب على المؤرخ لعلم الأخلاق أن يحصل على تعريف موحد أو تحديد قاطع يصور ذلك العلم في مختلف الأزمان ومتعدد العصور ولدى جميع الفلاسفة والباحثين .

من أجل ذلك اختلفت تعريفاته وتعددت تحديدهاته . واليك بعض هذه التعريفات وآراء الأخلاقيين في قبولها أو رفضها .  
( ١ ) الأخلاق — علم العادات . وأصحاب هذا التعريف قد تأثروا بالأصل الانغريقى للكلمة " ايتوس " ومعناها " العادة " .

فالأخلاق اذن تدرس طباع الناس وسجاياهم وعاداتهم أو في عبارة أخرى تدرس خصالهم والمبادئ التي يتصرفون على أساسها وتقدر ما يعد صوابا أو خطأ من هذه المبادئ أو ما في هذه السجايا من خير أو شر .

الا أن هذا التعريف قاصر عن دائرة علم الأخلاق التي لا تقتصر على أعمال الانسان الارادية التي تتكون عنها العادات والتقاليد وانما بجانب ذلك تتناول التوجيه

السديد المقنع لعمل الخير واجتناب الشر والحض على التمسك بمصالح التقاليد والعادات بمقدار اجتناب ماهو فاسد منها وفوق هذا وذلك يدخل فى نطاق دائرة علم الأخلاق تقييم أعمال الانسان والحكم عليها بأنها خير يجب أن يعارس أو شر ينبغى الابتعاد عنه .

(٢) الأخلاق علم الانسان وهو تعريف الكاتب الفرنسى " باسكــــــــــــــــــــــــــــــــال "

الا أنه أخذ على هذا التعريف أنه غير مانع فهو لم يحد المقصود بما يحصره ويحيط به احاطة تمنع أن يدخل فيه مالميس منه حيث أن هذا التعريف يدخل كل العلوم المتعلقة بالانسان سواء من الناحية الجسمانية أو من الناحية المعنوية فيدخل فيه " علم التشريح " ، " علم النفس " ، " علم المنطق " ، الى غير ذلك من العلوم التى تبحث فى الانسان فانما كان التعريف الأول قد أخذ عليه أنه أضيق من دائرة اختصاص العلم أى كان التعريف غير جامع فان هذا التعريف يعتبر أوسع من هذه الدائرة لأنه يتناول كل ما هو متعلق بالانسان من علوم كما رأينا أى أنه غير مانع .

(٣) الأخلاق علم الخير والشر . وهو تعريف لا يفى بموضوعات هذا العلم لأنه لايقف عند حد الكشف عن حقيقة كل من الخير والشر وانما يحدد كذلك الواجب ويحضى عليه .

(٤) الأخلاق دراسة للواجب وهو تعريف قاصر ايضا اى غير جامع لأنه أهمل جانبها هاما من جوانب السلم وهو تقييم الأعمال الانسانية على ضوء تحديد لقيمة كل من الخير والشر .

(٥) الأخلاق هى العلم بالفضائل وكيفية اقتنائها ليتحلى الانسان بها والردائل وكيفية توقيعها ليخلى عنها . وهذا هو تعريف البستانى فى دائرة المعــــــــــــــــــــــــــــــــارف .  
الا أنه قاصر عن بيان كيفية تحلى الانسان بالفضائل وتخليه عن الردائل وبيان أمثل الطرق لذلك .

وهكذا تختلف آراء العلماء فى تحديد مفهوم العلم ودائرة نفوذه تبعا لاختلاف تصوراتهم فى أطوار حياتهم وتحت تأثير ظروف معينة الا أنه من الممكن مع هذا وضع تعريف

عام يصور الإطار العام لذلك العلم ويحدد القتر المشترك بين مختلف التعريفات والمتفق عليه عند العلماء والباحثين لا في طور دون طور ولا لجماعة دون أخرى وإنما في مختلف الأزمان ولدى مختلف الجماعات والأُمم وذلك التعريف هو أن علم الأخلاق هو " العلم بالفضائل وكيفية اقتنائها ليتحلى بها الإنسان والعلم بالردائل وكيفية توقيها ليتحلى عنها والالمام بقواعد السلوك الانساني وبالمقياس الذى تقاس به أعمال الانسان الارادية فيحكم عليها بأنها خير أو شر مع تحديد الجزاء لكل منهما " (١)

### مفهوم الأخلاق فى الاسلام

بعد أن استعرضنا بعض التعريفات لمفكرى الاسلام والغرب لعلم الأخلاق نحاول أن نلجأ الى النصوص الاسلامية لنستخرج منها مفهوم هذا اللفظ .

فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : \_\_\_\_\_ :  
" الاسلام حسن الخلق \_\_\_\_\_ " (٢)

وجاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال : حسن الخلق . فأتاه من ق بل يمينه فقال يا رسول الله ما الدين ؟ قال : حسن الخلق . ثم أتاه من قبل شماله فقال : ما الدين ؟ فقال : حسن الخلق . ثم أتاه من ورائه فقال يا رسول الله ما الدين ؟ فالتفت اليه وقال : أما تفقه ؟ هو أن لا تغضب . (٣)

وفى صحيح مسلم : ان هشام بن حكيم " سأل عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن . فقال : لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئاً . (٤)

يقول النووي : معناه العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بأدابه والاعتبار

بأمثاله وقصمه وتدبره وحسن تلاوته .

- (١) العقيدة والأخلاق ، د. بيبسار ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .
- (٢) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده ج٢ ، ص ٢٩١ ، الطبرانى فى الكبير ج١ ، ص ١٤٦ .
- (٣) أخرجه الحاكم فى المستدرک ، كتاب ١ ، ص ٩٠ ، ص ٢١٩ .
- (٤) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده ، ج٦ ، ص ٩١ ، ١٦٣ ، والبيهقى فى سننه الكبرى ، ج٢ ، ص ٤٩٩ ، والبخارى فى الأدب المفرد ، حديث رقم ٣٠٨ .

وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: "وانك لعلى خلق عظيم". (١)

قال ابن عباس : لعلى دين عظيم ، لادين أحب الى ولا أرضى عندي منه وهو

دين الاسلام .

وقال الحسن رضى الله عنه : هو آداب القرآن .

وقال قتاده : هو ماكان يأمر به من أمر الله وينهى عنه من نهى الله . والمعنى :

أنك لعلى الخلق الذى أترك الله به فى القرآن .

وفى صحيح مسلم عن النّوّاس بن سميان رضى الله عنه قال : "سألت رسول الله

صلى الله عليه وسلم عن البر والائتم ؟ فقال : البر ما اطأنت اليه النفس والائتم ما حاكك فى

(٢)

الصدر .

وهذا يدل على أن حسن الخلق هو: الدين كله وهو حقائق الايمان شرائع الاسلام .

" فالاسلام يربط بين الايمان وبين السلوك الحسن . فقد روى البخارى من حديث ابن عباس

: " لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق السارق

(٣)

حين يسرق وهو مؤمن " .

وقال تعالى : " لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله

ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح

(٤)

منه " .

وقد جمع الله مكارم الأخلاق فى قوله تعالى : " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن

(٥)

الجاهلين " .

فقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق وليس فى القرآن آية أجمع

لمكارم الأخلاق من هذه الآية .

---

(١) القلم ، آية ٤

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده ، ج٤ ، ص ٢٢٨ ، م ١٨٢ وأخرجه مسلم ك

البر والملة رقم ١٤ ، الترمذى فى سننه رقم ٢٣٨٩ .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ، ج٣ ، ص ١٧٨ ، ج٧ ، ص ١٣٦ ، ج٨ ، ص ١٩٥ ، ١٩٧ ، مسلم .

(٤) المجادلة ، آية ٢٢ .

(٥) الأعراف ، آية ١٩٩ .

## المبحث الثاني

### موضوع علم الأخلاق

لكي نصل الى موضوع علم الأخلاق يجب أن نبحث أولا في وظيفته الأساسية ومعرفة المجالات التي يتناولها بالبحث والدراسة .  
يقول البحث :

ان وظيفة علم الأخلاق الأساسية والأولى أنه يبحث في الأعمال التي يقوم بها الناس ويصدر حكمه عليها بأنها أعمال خيرة أو أعمال شريرة ويقرر ان كان العدل قد قام على أسس سليمة وكان يهدف الى تحقيق الخير المطلق أو أنه قام على أسس الرذيلة ولم يكن الهدف الذي حققه سوى الشر المطلق .

وهنا يتساءل الباحث : هل كل الأعمال التي يقوم بها الانسان تخضع للحكم الخلقى أو بمعنى آخر هل من العدل والمنطق أن نخضع جميع الأعمال التي يؤديها الانسان للحكم الخلقى ؟

لكي نجيب على هذا التساؤل يجب أن نبين أنواع الأعمال التي تصدر عن الانسان حتى نعلم أيها يخضع للحكم الخلقى .

تنقسم الأعمال بصفة عامة الى ثلاثة أقسام : \_\_\_\_\_

أعمال ارادية وأعمال غير ارادية وأعمال آخذة بشبه بين الأعمال الارادية وغير الارادية .<sup>(١)</sup>

#### أولا : الأعمال الارادية

تصدر من الانسان أعمال بعد تفكير وتدبر وروية في نتائجها واردة لعلمها كمن يرى أن تعليمه لأبناء بلدته الأميين ينفع بلده فيفعل ، وكن يعزم على قتل عدوه فيفكر في وسائل ذلك ثم ينفذ ما عزم عليه بعد تدبر وتفكر فهذه الأعمال تسمى أعمالا ارادية وهي التي يحكم عليها بأنها خير أو شر ويحاسب الانسان على ما أتاه منها .

(١) مباحث ونظريات في علم الأخلاق ، أبو بكر ذكري ، عبد العزيز أحمد ، ط ٤ ، ص ٣٥ .

### ثانيا : الأعمال الغير ارادية

الأعمال الغير ارادية هي الأعمال التي لا يفكر فيها الانسان وليس له أية ارادة في حدوثها ولا يتدبر في نتائجها ولا يمكن أن يتحكم في هذه النتائج . فعملية الهضم مثلا أو التنفس أو نبض القلب هذه جميعا أعمال آلية تتم دون أن يكون لتفكير الانسان أو ارادته أي تدخل فيها . فقد تتم هذه الأعمال على أكل وجه وقد يكون فيها قصور ولكن لا يكون للانسان تدخل في حدوثها أو في نتائجها . فنبضات القلب ان انتظمت كان في هذا خير كثير للبدين وضمان لاستقامة صحة الانسان وحفظ كيانه وان ختلغت تلك النبضات كان في هذا الشر المستطير الذي يهدد حياة الانسان ووجوده وفي كلتا الحالتين لا يملك المرء في الأمر شيئا فلا هو كان سبب الخير الذي أصابه ولا هو كان المتسبب في الشر الذي انتباه انما هو عمل آلي محض يتم تلقائيا وفق ما رسمته له الطبيعة وليس له نتائج المقررة ان خيرا وان شرا .

### ثالثا : الأعمال الآخذة بشبه بين الأعمال الارادية والغير ارادية

وهي الأعمال التي اذا نظرنا اليها من زاوية حسنها أعمالا ارادية واذا نظرنا اليها من زاوية أخرى ألغيناها أعمالا غير ارادية . ويمثل لذلك الأستاذ منصور على رجب فيقول : فمثلا اذا حفرت حفرة في طريق عام ونسيت أن تميزها بما يدل على وجود خطر فيها فجاءت سيارة أو جاء انسان فارتطم في هذه الحفرة فجرح أو مات فأنت مسئول . لماذا ؟ لأنك كنت تستطيع الحيطه لها فترفع عليها شارة حمراء أو ما يدل على وجود خطر فيها . (١)

كذلك من الناس من يأتي أعمالا وهو نائم فلو أن أحدهم اشعل نارا بمنزله وهو في هذه الحالة أو أطفأ نارا كادت تحرق المنزل فهل يكون مسؤولا عن عطه خلقيا ويحكم عليه بأنه مجرم في الحالة الأولى خير في الثانية ؟

(١) تأملات في فلسفة الأخلاق ، منصور على رجب ، ص ٢٤ .

هذه الأعمال كلها بالتأمل فيها نرى أنها أعمال غير ارادية ولكن نحن مسؤولون  
عن عدم الاحتياط لهذه الأعمال في الأوقات الغير مسؤولون عنها .

فلو أنك نمت وتركت النار مشتعلة في موقد ثم طارت شرارة أحرقت المنزل لسم  
يسم لا تتذرك أو قولك " ان هذه ليست خطيئتي ولست قادرا أن أمنع النار أن ترمى  
بالشر وأنا نائم " . اذ يقال لك : انك عالم أنك ستنام وقد أردت النوم وعالم أنك  
ستكون في حالة عدم شعور فكان ينبغي أن تحطاط لذلك وتستعد وقت شعورك  
بما يطرأ وقت عدم شعورك وذلك بإطفاء النار .

والآن وقد بينا الأنواع المختلفة للأعمال فلنحجب عن تساؤلنا : أي هذه الأعمال  
تخضع للحكم الخلقى وأياها لا يخضع .

الأعمال الارادية تخضع للحكم الخلقى فيحكم عليها بأنها خير أو شر وان صاحبها  
خير أو شرير ويحاسب على ما أتاه منها لأنه فكر فيها عليها واتخذ قراره لاتيان هذا العمل  
وكانت له الإرادة لتنفيذ قراره فهو اذن مسئول عن كل النتائج التي تحدث نتيجة لهذا  
العمل فان كانت خيرة امتد حناه ونعمته بالخير وكافأناه برضانا وتقديرنا وان كانت  
شريرة لعناه وعاقبناه بكرهنا له وابتعادنا عنه .

أما الأعمال الغير ارادية فانها لا تخضع بأي حال من الأحوال للحكم الخلقى وهي  
ليست من موضوع علم الأخلاق فلا نحكم عليها بخير ولا بشر كما لا نحكم على فاعلها  
بأنه خير أو شرير ولا يحاسب الانسان عليها لأنه لا يفكر فيها وليست له أية ارادة في  
عملها ومن ثم فهو لا يحاسب عليها وهل يمكن أن يحاسب الانسان على نبضات قلبه  
منتظمة هي أم مختلفة أو يحاسب على رمش عينه سريع هو أم بطيء ان هذه الأعمال  
الغير ارادية تتحكم فيها الطبيعة وحدها ولا تقع تحت طائلة الحكم الخلقى .

أما الأعمال التي وصفناها بأنها آخذة بشبه بين الأعمال الإرادية والغير  
إرادية فإن هذه الأعمال كلها بالتأمل والتفكر فيها نرى أنها أعمال غير إرادية فليس  
النائم الذي يأتي بأعمال وهو نائم بمتعمد فعل هذه الأعمال أو كانت له إرادة فيها أحدثته  
من نتائج ولذا فهو ليس مسئولاً وقت أن أتى بهذا العمل لأنه لا إرادة له • وإنما يسأل  
ويحاسب إذا كان يعلم أنه مصاب بهذا المرض وأنه قد يأتي أعمالاً خطيرة وهو نائم ثم لم  
يحتط وقت صحوه وانتباهه لما قد يحمل منه عند نومه فيحول بين نفسه وبين اتيان  
هذه الأعمال بأن يغلق باب غرفة نومه فلا يتمكن من الخروج منها • أو أن ينام مع من  
يستطيع أن يحول بينه وبين مغادرة حجرة نومه أثناء الليل •

وهكذا فنحن مسئولون خلقياً عن عدم الاحتياط للآوقات التي نكون فيها غير  
مسؤولين • وكذلك الحال في الأمثلة الأخرى التي ذكرناها •

اذن كل ما كان يمكن الاحتياط له أولاً ثم جاء التقصير حتى وقع المحذور ففيه  
المواخذة •

وخلاصة هذا أن موضوع علم الأخلاق هو الأعمال التي صدرت من العامل عن عمد  
واختيار يعلم صاحبها وقت عملها ماذا يعمل وهذه هي التي يعبر عليها الحكم بالخير  
والشر • وكذلك الأعمال التي صدرت لا عن إرادة ولكن يمكن الاحتياط لها وقت الانتباه •

وأما ما يصدر لا عن إرادة وشعور ولا يمكن الاحتياط له فليس من موضوع علم  
الأخلاق • (١)

---

(١) أحمد أمين ، كتاب الأخلاق ، ص ٢٠٢ ، بتصرف •



### المبحث الثالث

#### الغاية من علم الأخلاق

الغاية والفائدة والمنفعة بمعنى واحد • فهل هناك من غاية أو فائدة أو منفعة  
ترجى من علم الأخلاق ؟

تتحقق الغاية من علم الأخلاق اذا كانت الأخلاق قابلة للتبديل والتغيير • فهل  
تتغير الأخلاق أولا تتغير ؟ وإذا كانت تتغير فما هو الطريق الى تغييرها ؟ أهـ  
العلم أم هو شيء آخر غير العلم ؟

هناك خلاف في هذه المسألة :

قوم يقولون : ان الخلق لا يتغير • وحجتهم في ذلك أن الأخلاق تابعة للمزاج  
والمزاج لا يتغير أى أنهم يستدلون على أن الخلق لا يتغير بقولهم ان الخلق صورة  
الباطن كما أن الخلق صورة الظاهر والخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها • فالتفسير  
لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ولا القبيح  
يقدر على تحسين صورته فكذلك القبيح في الباطن يجرى هذا المجرى •

وقوم آخرون يقولون : بأنها تتغير • وعلى ذلك تتحقق الفائدة من علم الأخلاق •  
وزعيم القائلين بهذا الرأي الأخير هو سقراط مؤسس علم الأخلاق فكان يعتقد أن الجبل  
مصدر الشر وأصل الفساد وأن العلم منبع الخير وأن العلم والفضيلة توأمان لا يفترقان  
فإذا عمل الانسان الشر فمماذا كان الا لأنه يجهل طريق الخير • فالعالم — فى سقراط  
سقراط — يستحيل أن يكون سىء الأخلاق ردىء الطباع • فالفضيلة فى نظره هى  
العلم والمعرفة • ومعرفة الخير كافية لاتباعه •  
(١)

اذن اذا كانت الفضيلة وليدة المعرفة فان الانسان اذا عرف الخير حرص على فعله واذا  
أدرك الشر حرص على تجنبه ولا يرتكب الشر تارفا وإنما يرتكبه من يجهله" • (٢)

(١) تأملات فى فلسفة الأخلاق • خضير على رجب ، ص ٢٤ •

(٢) الفلسفة الخلقية ، د • توفيق الطويل ، ص ٢٥ ، ٢٦ •

وعلى ذلك فإني قع الانسان فيه من الاثم انما يكون ناشئا عن خطأ في الموازنة  
بين اللذة الحاضرة وبين الآلام المستقبلية أو يكون ناشئا عن جهل بطبائع الأشياء.

هكذا يقرر سقراط . فالأخلاق عنده تتغير والطريق الى تغييرها هو العلم .  
والمبدأ الأول الذي يقره سقراط وقد أيده بالمثل الفعلي في عدم هروبه من السجن  
" هو أنه لا ينبغي البتة اتيان الشر بأية حجة كانت " .

ومما يؤثر عنه في وصف الرجل الذي يتمسك بالفضيلة أبدا قوله : لو أن لسانا  
صادقا أمر جبلا أن يزول لزال " .

ويرى أنه متى كسبت النفس السيئة بعامل الجهل أو الضعف فإن أول ما يجب  
الاهتمام به هو شفاؤها من المرض الذي أصابها والذي يمكن أن تشفى منه .

وعلاج الخطيئة انما هو العقاب . فلا ينبغي للمذنب أن يتذمر من العقاب الذي  
يصيبه اما بيد الله أو بيد الناس . بل عليه أن يغتبط بالبلاء الذي يكفر عنه سيئاته  
ويخلص نفسه مهما كان مؤلما .

انه يقول : ان العقاب غريب من الطب المعنوي وشأن المذنب الذي يحاول اتقاء  
العقاب شأن المريضي الذي يؤثر المرض المهلك على أن يذهب الى الطبيب الذي يعيد  
اليه الصحة بالكي أو الدواء المر .

اذن فان سقراط كما رأينا يرى أن الأخلاق تتغير وأن الطريق الى تغييرها هو  
العلم . فهو الذي ينير الذهن . . وهو الذي يهدي الى الحق .

أيضا يتابع سقراط على هذا الرأي " فريدريك هربرت " الألماني " ١٧٧٢ - ١٨٤١ " .  
فانه ينادي بأن التعليم وحده كفيل بتهديب الأمة وتربيتها وكان يقول :

" الناية القصوى من التعليم إنما هي اكتساب الفضائل والتخلي بمكارم الأخلاق " .

• وعلى هذا تكون القوة المسيطرة على هذا العالم المثيرة لحوادثه هي العقل .  
• فإذا أردنا أن نهذب النفوس ونحسن الأخلاق فطريق ذلك هو العلم والعلم وحده . (١)

ولكن من المعارضين والنقاد لرأى سقراط هو ارسطو فلقد رفض ارسطو الأخذ برأيه في المطابقة بين الفضيلة والمعرفة لأن سقراط أثقل اعتبار الجانب اللاعقل في طبائع البشر وظن أن سلوك الانسان يجرى طبقاً لحكم النقل وحده ومتى توافرت معرفة العقل تحققت خيرية الأفعال ولكن التجربة والملاحظة الواقعية تثبت أن الغالبية العظمى من البشر تتصرف في حياتها وسلوكها وأفعالها بدافع الأهواء والأنفعالات والنزوات وهي الجوانب اللاعقلانية في الانسان وليس بدافع العقل وكثير من الناس يدركون الخير ومع هذا ينصرفون عنه ويعرفون الشرور مع ذلك فهم يقدمون على اقترافه . (٢)

ولكن هناك الفيلسوف الانجليزي هربرت سبنسر الذي أنكر على العلم كل سلطة تهذيبية وكل تأثير في اصلاح النفوس ونادى أن لعلاقة بين العلم والأخلاق وقال : ان تحسن العلماء والأخلاق وتعميمهم للعلم ونشر التعليم بين طبقات الأمة ابتغاء اصلاح أخلاقها من وراء القراءة والكتب ليو بدعة من بدع هذا الجيل وسخافة من سخافات أهل هذا العصر .

وكان يقول : كيف يرجى من العلم تهذيب الأخلاق واصلاح النفوس بينما نرى من المتعلمين الذين استتارت عقولهم واتسعت مداركهم أغراباً لا أخلاق لهم . ووعاظاً يقولون بأنواعهم مالبس في قلوبهم وسياسيين عظماء قلوبهم كالجمادات أو أشد قسوة يعملون على خراب الدنيا والحق أكبر الشرور الانسانية فما أغنى العلم ولا نبي التعليم .

وبجانب هؤلاء نجد من الجيلاء والأثمين من هم على جانب عظيم من الاستقامة والشرف وعلو الهمة والعروة الانسانية .

وإذا كان هربرت الاماني الذي ينادى بالصلة بين العلم والأخلاق لا يقول مطلقاً بالاستعداد الفطري بل يقول : " ان عقل الانسان كله مكتسب بالتربية والتعليم فان هربرت الانجليزي الذي ينادى بقطع الصلة بين العلم والأخلاق يبنى رأيه هذا على نظريته غسي الوراثة ومضمونها :

( ١ ) تأملات في فلسفة الأخلاق ، ص ٣٥ . ( ٢ ) الفلسفة الذليقية ، د . توفيق الطويل .

" ان كل عادة متى تقوت تصبح طبيعة أعنى أنها تتغلغل فى تكوين الانسان وتصير آلية تتحرك من تلقاء ذاتها وهذه الاستعدادات العضوية تنتقل بالوراثة بمعنى أننا نولد ومعنا عادات الآباء نرثها عنهم وتظل ترافقنا حتى الموت .

فالانسان لا يظلم من أن يرث بنى نوعه لأن الميراث محتم على الفرد كشيء واقع .

ونحن نرى أن هذا المبدأ خطر على الأنيان خطر على الشرائع يهدمها كلها رأسا على عقب . حيث أنه ينفى حكمه ارسال الرسل ويترك الناس هملا تستعبدهم الوراثة .

وهذا يخالف ما قاله المولى عز وجل فى كتابه الكريم حيث أخبرنا تعالى أنه أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم معلما ومزكيا لنفوس البشر ، قال تعالى : " ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم " . ( ١ )

وقال تعالى : " هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين " . ( ٢ )

وقال تعالى : " كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون " . ( ٣ )

وقال تعالى : " لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين " . ( ٤ )

ففى هذه الآيات توضيح لعمل الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقوم بتلاوة الآيات الكريمة وتعليمهم معانيها وتفسيرها وتوضيحها لحقائقها وكذلك يعلمهم الحكمة وتزكية نفوسهم

- 
- ( ١ ) سورة البقرة ، آية ١٢٩ . ( ٢ ) سورة الجمعة ، آية ٢ .  
( ٣ ) سورة البقرة ، آية ١٥١ . ( ٤ ) سورة آل عمران ، آية ١٦٤ .

أى قهارتها بحيث يؤهل الإنسان الى التحلى بالأوصاف الحميدة والفضائل .

كذلك انا نظرننا الى قوله تعالى : " فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هـو  
التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى ممن تبع هداى فلا خوف  
عليهم ولا هم يحزنون . " ( ١ )

فنستنتج منها أن توبة آدم عليه السلام دليل على قبول الانسان للتوجيه والتربية  
والاستجابة للملاح .

كما نستنتج أن الانسان مستعد لاتباع الهدى .

ويساعد فى هذا الاستنتاج قوله تعالى : " لى عليك هداهم ولكن الله يهدى من  
يشاء . " ( ٢ )

اذن فالأخلاق تتغير والفضيلة ميسورة لمن يجمع بين عقل مستبىر وشهوات  
هادئة . والا لبطلت الوسايا والمواظ وكيف وكتابنا العزيز يقول : " ونكر فان الذكرى  
تنفع المؤمنين . " ( ٣ )

كذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " حسنوا أخلاقكم " على أننا كيف  
ننكر ذلك فى حق الآتى وتغيير خلق البهية ممكن اذ ينقل الحيوان المفترس مسن  
الاستيحاش الى الاستئناس وهذا تغيير للطبيعة والعادة وتهذيب للنفس .

ويتساءل أحمد أمين : هل فى استطاعة علم الأخلاق أن يجعلنا صالحين  
أخيارا ؟ والجواب : ان علم الأخلاق يفتح أعيننا ليرينا الخير والشر ويوفى

---

( ١ ) سورة البقرة ، آية ٢٧ ، ٢٨ ( ٢ ) سورة البقرة ، آية ٢٧٢ .

( ٣ ) سورة الزاريات ، آية ٥٥ .

لنا الفضيلة والرذيلة وآثارهما • ولكنه لا يستطيع أن يجعلنا جميعا أختيارا • بل هو شأنه شأن علم الطب فهو يبين لنا الأمراض المختلفة ووسائل علاجها ويصبرنا بطرق الوقاية من هذه الأمراض وكيفية توقي العدوى ويشرح لنا القواعد الصحية التي تجعلنا أصحاء موفوري القوة والعافية •

ولكن هل معنى هذا أن علم الطب يضمن لنا الصحة ويجعلنا دائما في أمان من الأمراض وشروها ؟ كلا ان هذا لا يتحقق الا بأمرين :

اذن فالأخلاق تتغير والفضيلة ميسورة لمن يجمع بين عقل مستدير وشهوات هادئة • والا لبطلت الوصايا والمواظ وكيف وكتابنا العزيز يقول : " وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين " (١) كذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم " حسنوا أفعالكم " •

على أننا كيف ننكر ذلك في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن اذ ينقل الحيوان المفترس من الاستيحاش الى الاستئناس وهذا تغيير للطبيعة والعادة وتهذيب للنفس • ويتساءل أحمد أمين :

اذن نسأل : هل في استطاعة علم الأخلاق أن يجعلنا صالحين اختيارا ؟  
والجواب : ان علم الأخلاق يفتح أعيننا لبرينا الخير والشر ويوضح لنا الفضيلة والرذيلة وآثارهما • ولكنه لا يستطيع أن يجعلنا جميعا أختيارا • بل هو شأنه شأن علم الطب فهو يبين لنا الأمراض المختلفة ووسائل علاجها ويصبرنا بطرق الوقاية من هذه الأمراض وكيفية توقي العدوى ويشرح لنا القواعد الصحية التي تجعلنا أصحاء موفوري القوة والعافية • ولكن هل معنى هذا أن علم الطب يضمن لنا الصحة ويجعلنا دائما في أمان من الأمراض وشروها ؟ كلا ان هذا لا يتحقق الا بأمرين :

---

(١) سيرة الزايات ، آية ٥٥ •

أولاً : أن تكون بنية الإنسان قوية قادرة على مقاومة ميكروبات الأمراض والتغلب عليها .

ثانياً : أن يتبع الإنسان برضى كل القواعد الصحية ولا يعمل فيها .

وإذا أردنا أن نطبق ما قلناه عن علم الطب على علم الأخلاق فأننا نقرر أن علم الأخلاق يبين لنا الفضائل المختلفة ويشرح لنا فوائدها الجمة وكيف أن المتحلى بها يكون الإنسان المثالى ويكون أقرب إلى الله وأعلى منزلة وأنه بفضلها يحيا حياة صالحة قيومية سعيدة .

وإذا كان ليس فى إمكان علم الطب أن يجعل جميع الناس أصحاء كذلك فإنه ليس فى مقدور علم الأخلاق أن يجعل كل الناس أخياراً وأنه لكى يكونوا أخياراً يجب أن يتوفر عاملان :-

أولاً : أن يكون استعداد المرء طيباً وأن يكون ميالاً بطبعه إلى الخير والتقوى والصلاح ويكره الرذيلة يوازع داخله من ضميره ووجدانه .

ثانياً : أن يتقبل ويتبع برضى أوامر علم الأخلاق وما يحض عليه من الفضائل وأن يؤمن برسالة علم الأخلاق ويحفظها ويبشر بها .

فعلم الأخلاق إذا يمكن أن نشير به بالطبيب فالطبيب يبصر مريضه بالأضرار التى تنجم عن شرب المسكرات وتناول المخدرات ويصف له أضرارها ويشرح له تأثيرها الفاسد فى الجسم والعقل معا والمريض بعد ذلك له أن يختار طريقته .

أما ان يمتنع عن الخمر فتحسن صحته وأما ان يتعاطاها فتفسد صحته والطبيب لا يستطيع منعه .

كذلك علم الأخلاق ليس فى استطاعته أن يجعل كل فرد صالحاً نقياً زكياً ولكن يريه الخير والشر ويبين له آثارهما والإنسان بعد ذلك حر فى اختيار طريقته أما طريق الخير وأما طريق الشر . فعلم الأخلاق إذن لا يفيدنا ما لم نكن لنا إرادة تتخذ أوامره وتجنبنا نواهيه .

أجل يمكن لمن لم يدرس علم الأخلاق أن يعثر حكمة على الأشياء بأنها خير أو شر وقد يتعلل بالفنائل ويكون صالحا حسن الخلق ولكن مثل دارس الأخلاق ومن لم يدرس هذا العلم كمثّل رجل درس الهندسة وآخر لم يدرسها إذا أراد كلاهما أن يشتري منزلا كل يرى المنزل وكل يختبر ولكن دراسة الأول وممارسته وكثرة تجاربه وخبرته تجعله أصدق حكما على البناء وسلامته .

كذلك تاجر الصوف الخبير به ومن ليس كذلك إذا أراد كلاهما أن يشتري نوعا من الصوف فكل يقع نظره على ما يقع عليه نظر الآخر وكل يلمس ويختبر ولكن خبرة الأول وكثرة تجاربه تجعله أصدق حكما وأحسن تقويما .

فكل علم يمنح دارسة عينا ناقدة في دائرة الأشياء التي يبحث عنها العلم . وكذلك الشأن في علم الأخلاق فدارسه أقدر على نقد الأعمال التي تعرض عليه وتقويمها تقويما مستقلا غير خاضع في أحكامه إلى طبائع الناس وتقاليدهم بل هو يستند آراءه من نظريات العلم وقواعده ومقاييسه وشيء آخر وهو أنطيس غرض علم الأخلاق مقصورا على معرفة النظريات والقواعد بل من أغراضه أيضا التأثير في إرادتنا وهدايتنا وحملنا على أن نشكل حياتنا ونصنع أعمالنا حتى نحقق المثل الأعلى للحياة وتحمل خيرنا وكاملنا ومنفعة الناس وخيرهم فهو يشجع الإرادة على عمل الخير ولكن لا ينجح في ذلك دائما فهو إنما يؤثر أثره وينتج الثمرة إذا طاوعته طبيعة الإنسان وفطرته السليمة . (١)

وهنا نريد أن نستوثق من اجابة السؤال الذي يقول هل الأخلاق فطرية أم مكتسبة؟ الواقع أن هذا السؤال اختلف في الاجابة عليه العلماء قد يذهبون فلاسفة وغير فلاسفة . ولذلك أجد أن استعرض بعض آراء هؤلاء الفلاسفة ثم أوضح رأي الاسلام في ذلك الموضوع الهام يقول الفيلسوف الألماني " شوبنهاور " :

" يولد الناس أخيارا وأشرارا . . كما يولد الحمل وديعا والنمر مفترسا وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة الناس وعوايدهم كما يصف التاريخ الطبيعي حياة الحيوان :

(١) الأخلاق : أحمد أمين ، ص ٤ ، ٥ ، نقل عن :

" علم الأخلاق لأرسطو ، ترجمة أحمد لطفي السيد ، ص ٢٦٦ ، ج ٢ .



فيؤي تصور البشرية كلها على أنها مطبوعة على ذلك ولا تستطيع التحول أو التطوير وهذا أمر غير مقبول لأنه يناقض الحكمة من انزال الكتب وارسال الرسل ووضع القوانين وسن الشرائع وقيمة عمل المعلمين والعلماء فحاشا أن يكون ذلك كله عناء بغير جدوى أو تكون دراسة الأخلاق نفسها ملهة أو شبه ملهة .

وهناك خلاف بين المفكرين فيما طبع عليه الإنسان أو الفطرة الإنسانية .  
فمنهم من يقول أن الإنسان خير بطبعه والشر عارض له وهو مذهب المتفائلين أمثال " جان جاك روسو " وهو الرأي ينسب في الأصل إلى سقراط .  
وهناك من يقول أن الإنسان شرير بطبعه والخير طارئ عليه وهو مذهب المتشائمين كالبودية وغيرهم وهو عكس الرأي الأول .

وهناك من يقول أن الإنسان خلق مستعدا للخير والشر جميعا وهو قول جمهور الفلاسفة وعلماء النفس والتربية في هذا العصر وهو مذهب وسط سيقوم إلى اقتراره والقول به كلا من الغزالي وابن مسكويه وهو رأي أقرب إلى ما نرى عليه الإسلام فقد قال تعالى : " وهديناهم النجدين " (١) وهو يشهد أن هذه الفطرة الوسط أقرب إلى السلامة والاستقامة .

(٢) فقد قال تعالى : " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم " .  
وقال تعالى : " فطرة الله التي فطر الناس عليها " (٣)  
وقال الرسول الكريم : " كل مولود يولد على الفطرة فأبوه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " (٤)

---

(١) البلد ، آية ١٠

(٢) التين ، آية ٤

(٣) سورة الروم : آية ٣٠

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، ج٢ ، ص ١٢٥ . وأبو داود في سننه ، حديث رقم ٤٧١٦ ، أحمد بن حنبل ، ج٢ ، ص ٢٣٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٢٩٣ ، ٤١٠ ، ٤٨١ ، ج٣ ، ص ٣٥٣ .

وفي الوقت نفسه فإن الإنسان لا يخلو من الجانب الكسبي الذي يربى عليه الإنسان ويخرب بأساليب التربية المختلفة والتي منها التقليد والتلقين والوعظ والارشاد .

فالإنسان يحمل مجموعة سلوك مستمدة من جانبين . جانب فطري وجانب مكتسب والاكتساب يأتي بالتعلم والتوجيه .

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب فيهم طائفة أخرى إنما يريهم الله فلا تلهيهم " .

فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فيعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به . (١)

أما الذين يتكلمون عن الطبع الذي لا يتغير إنما يتحدثون عما تؤثره العادة في الإنسان حيث أن التعود المستمر للإنسان على سلوك معين يصبح جبلا فيه وتتطبع عليه الشخصية حتى يصير جزءا منها . أما الفطرة فهي سليمة نقية كما شكلها المولى عز وجل كما قال تعالى : " فطرة الله التي فطر الناس عليها " . (٢)

---

(١) تفسير البغوي ، ج٢ ، ص ٢٤٥ ، شرح السنة للبخاري، ج١ ، ص ٢٨٧ ،  
تفسير ابن كثير، ج٣ ، ص ٢٦ ، الدر المنثور ، ج٣ ، ص ٥٤ .  
(٢) سورة الروم ، آية ٣٠ .

## المبحث الرابع

### تقسيم علم الأخلاق

ينقسم علم الأخلاق الى قسمين نظري وعملي<sup>(١)</sup> فالجانب النظري يختص بالبحث عن القواعد والقوانين التي يجب أن يتبعها الانسان في سلوكه وغايته هو حصول الاعتقاد اليقيني بهذه القواعد .

أما الجانب العملي فهو يختص بالتطبيق العملي أي الرقابة على تطبيق القواعد النظرية على السلوك العملي وممارسته في الحياة الواقعية للانسان .

والعلوم النظرية تنقسم الى ثلاثة أقسام :

- (١) قسم لا يفترق في الوجود الخارجي والتعقل الى المادة وهو الاليات .
  - (٢) وقسم يفترق الى المادة في الوجود الخارجي دون التعقل وهو الرياضيات .
  - (٣) وقسم يفترق اليها في الوجود الخارجي والتعقل وهو الطبيعيات كالعلم بأحوال الأمور العامة للأجسام أو كالعلم بأحوال المعادن .
- كذلك القسم العملي ينقسم الى ثلاثة أقسام :-

- ١- علم بمصالح شخص ليتحلى بالفضائل ويتخلى عن الرذائل وهو علم الأخلاق .
- ٢- وعلم بمصالح جماعة متشاركة في المنزل ويسمى علم تدبير المنزل .
- ٣- وعلم بمصالح جماعة متشاركة في المدينة وهو علم السياسة وأنا عرفنا أن غاية القسم النظري الحق وغاية العملي الخير إذن فعلم الأخلاق علم نظري من ناحية وعملي من ناحية أخرى<sup>(٢)</sup> فهو نظري حين يحدثك مثلا عن الضمير فيقول لك :  
انك تحل في نفسك قانونا ومحكمة تحكم ببراءتك أو بادانتك بحسب الأحوال ولها من القوة التنفيذية ، أما الرضا الجميل بأنك عملت خيرا وأما الندم ووخز الضمير على كونك عملت شرا .

وأنه علم عملي حين يطلب منك أن تضبط سيرك على مقتضى قواعده ومقاييسه وأن

تنفخ طبائعك وتخلصها مما يفسدها ويحطها عن مرتبة الانسانية .

وأنا كان علم الأخلاق علما نظريا حين يطلب منك أن تدرس فانه علم عملي حين يطلب منك أن تعمل لخير نفسك والناس جميعا اذن فعلم الأخلاق علم وفن . علم من جهة معرفة القواعد وفن من جهة تطبيقها .

(١) العقيدة والأخلاق ، د. بيسار، ص ١٩٩ (٢) تأملات في فلسفة الأخلاق ، منصور رجب، ص ٢٨

ويؤكد هذا الكلام الدكتور الأهواني حيث يقول " الأخلاق نظرية وعملية ولم ينص الاسلام على أخلاق نظرية منفصلة يتبعها السلوك العملي ويستمد قوته من تلك النظريات المقررة وانما رسم للناس قواعد العمل الصالح الذى ينبغى أن يسيروا عليه ومرجع المسلمين فى ذلك هو القرآن الكريم أولا ثم السنة الشريفة المكملّة للكتاب .

والقرآن زاخر بهذه القواعد العملية التى تتناول أغلب أحوال الناس فى معاشهم وفى صلاتهم بغيرهم من الناس ومعاملتهم بعضهم بعضا . (١)

---

(١) التربية فى الاسلام أو التعليم فى رأى القابسى ، ص ١٠٣ ، د. أحمد فؤاد الأهواني ، ط ١ عيسى البابى الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٥٥ م.

### المبحث الخامس

#### الأخلاق ومكانتها في الاسلام

يعتقد بعض الباحثين أن علم الأخلاق لم يكن من العلوم المحتفى بها في الاسلام وأنه لم يصل الى ما وصل اليه من مكانة الا على مشارف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي .

وقد كان هذا العلم مزيجاً من عدة روافد اهمها التعاليم القرآنية وما كان لدى العرب في الجاهلية وقبل الاسلام من عادات وتقاليد بالاضافة الى ما كان عليه من عناصر مستمدة من الفكر اليوناني والفارسي والهندي .

والواقع أن هذا الكلام فيه تجنى وظلم للاسلام بل فيه شطط عن الواقع الى درجة كبيرة فاني أرى أن الاسلام قد اهتم بالأخلاق منذ البداية الأولى كاهتمامه بالعقيدة سواء بسواء .

وان الناظر الى قول الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم : " انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " (١) يتضح له بجلاء موقف الاسلام من الأخلاق .

كما أن المتتبع لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في الحنف على مكارم الأخلاق ينبهر لمدى حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على الحث على حسن الخلق .

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ، ج٢ ، ص ٣٨١ .

فعن أبي الخرداء رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وأن الله يبيغى الناحش البنىء" . ( ١ )

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم " أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لأئله " . ( ٢ )

وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن " . ( ٣ )

وهناك العديد من الأحاديث النبوية الشريفة التى تدعو لمكارم الأخلاق وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ذاته هو القدوة الحسنة والمثل الأعلى لذلك فقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : " كان خلقه القرآن " . ( ٤ )

لذلك دفعنا المولى عز وجل الى الاقتداء برسوله الكريم بقوله تعالى : " لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً " . ( ٥ )

هذا بالإضافة الى وصفه تعالى له بقوله : " وانك لعلى خلق عظيم " . ( ٦ )

---

( ١ ) رواه الترمذى . ( ٢ ) رواه الترمذى وأبو داود .

( ٣ ) رواه الترمذى . ( ٤ ) رواه مسلم . . . . .

( ٥ ) سورة الأحزاب ، آية ٢١ .

( ٦ ) سورة ن ، آية ٤ .

ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم وحده هو الذى حفى على مكارم الأخلاق وإنما نجد التعاليم القرآنية قد اهتمت بوضع الأسس القويمة للقيم الأخلاقية فكانت وصايا المولى عز وجل ماهى الا أوامر يأمر فيها بالتحلى بالأخلاق الفاضلة أو نواهى يطلب فيها الابتعاد عن السلوك القبيح .

فهناك الآيات التى تأمر بالتحلى بالقيم الأخلاقية الفاضلة وعلى سبيل المثال قوله تعالى : " وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ..... " . ( ١ )

وقوله تعالى : " وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذروا " . ( ٢ )

وقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " . ( ٣ )

وقوله تعالى : " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان " . ( ٤ )

وقوله تعالى : " ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها " . ( ٥ )

وأما عن الآيات التى تنهى عن الرذيلة والفحشاء فمثل قوله تعالى :  
" ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا .....  
ولا تقتلوا أولادكم خشية اطلاق نحن نرزقهم وأياكم .. ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة  
وساء سبيلا .. ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق " . ( ٦ )

- 
- |       |                    |       |                            |
|-------|--------------------|-------|----------------------------|
| ( ١ ) | الاسراء ، آية ٢٣ . | ( ٢ ) | الاسراء ، آية ٢٦ .         |
| ( ٣ ) | التوبة ، آية ١١٩ . | ( ٤ ) | المائدة ، آية ٢٠ .         |
| ( ٥ ) | النساء ، آية ٥٨ .  | ( ٦ ) | الاسراء ، الآيات ٢٩ : ٣٣ . |

وقوله تعالى : " ولا تمشى فى الأرض مراحا أنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ  
الجبال طولا . " (١)

وبعد هذا الاستعراض لدا حطته التعاليم القرآنية وسنة رسول الله صلى الله  
عليه وسلم من قيم أخلاقية نقول ان الأخلاق بدأت فى الاسلام منذ اللحظة الأولى  
واكتملت مع تمام التعاليم القرآنية .

هذا عن الشطر الأول من آراء الباحثين أما عن الشطر الثانى من آرائهم وهو  
المتعلق بقولهم أن الأخلاق الاسلامية حين اكتملت مع بداية القرن الخامس كانت عبارة عن  
تعاليم قرآنية بالاضافة الى عادات وتقاليد عربية وقيم من الجاهلية الى جانب عناصر يونانية  
وفارسية فهذا الكلام غير مردود بل هو على جانب كبير من الصحة لأن الأخلاق الاسلامية  
تتكون من كل هذه الجوانب .



## المبحث السادس

### "مكانة علم الأخلاق من الفلسفة"

هذا البحث يتطلب منا أولاً أن نعرف ماهى الفلسفة قبل أن نعرف مكانة علم الأخلاق منها . فما يكون لنا أن نتصور هذه المكانة قبل أن نتصور الفلسفة على وجه عام .

كلية فلسفة ليست عربية ولا شرقية بل كلمة يونانية مشتقة من كلمتين اثنتين : الأولى " فيلو " ومعناها محبة والثانية " سوفيا " ومعناها الحكمة فيكون إذن معنى كلمة فلسفة " محبة الحكمة " ومعنى فيلسوف " محب الحكمة " أو صاحب العقل الذى يدرس الأشياء ويدرس نفسه والناس .

وكان اليونان الأولون الذين عنوا بالبحث عن حقيقة الحادة التى وجد منها هذا الكون كطاليس وانكسندر وانكسنس وغيرهم يسمون أنفسهم حكاء ، فلما جاء فيثاغورس أنكر عليهم ذلك ودفعه تواضع العلماء الى أن يستخدم لفظ " فيلسوف " بدل كلمة حكيم فالحكمة لله وحده .

والفلسفة على معنى محاولة تفسير هذا الكون قد ولدت على أيدي اليونانيين فقد جاء طاليس المظلى محاولاً تعرف المادة الأولى التى وجد منها هذا الكون فيقول ( ٢ ) أنها الماء وقد قال الله تبارك وتعالى فى سورة الأنبياء " وجعلنا من الماء كل شئى حتى " . ( ٢ )

( ٤ ) وجاء بعده فيثاغورس فقال انها العدد وأصل العدد الواحد وأصل الكون الواحد ثم يأتى بعده من يقول نعم لكن ليس هو الواحد الحسابى ولكن الواحد القهار . ( ١ ) مبادئ الفلسفة ، تأليف أ. س. ر. أبويرت ، ترجمة أحمد أمين ، ص ٥٠ . ( ٢ ) قصة الفلسفة اليونانية ، أحمد أمين ، زكى نجيب محمود . ( ٣ ) سورة الأنبياء ، آية ٣٠ . ( ٤ ) المرجع السابق .

ثم جاء بعد ذلك سقراط ليحول الفلسفة من السماء الى الأرض أى أنه وجب على  
الفلاسفة الى البحث فى الانسان بعد أن كان كل منهم محصوراً فى تعرف المادة التى  
نشأ منها هذا الكون وفى المحرك الخفى لهذا العالم •

ولم يكن سقراط يرى أنه مخير فيما يعمل بل كان يعتقد أنه سير يرحى  
يطلى عليه ما يقول ويرسم له طريق المسير فقد أوصى اليه فى معبد دلفى بأثينا بهندسه  
العبارة ( اعرف نفسك بنفسك ) فكانت مفتاح معرفة الانسان أو مفتاح الفلسفة الانسانية  
والى هنا تكون الفلسفة قد اتخذت لنفسها الميادين الآتية :-

- ١ - اتخذت لنفسها ميدان ما بعد الطبيعة أو ما وراء المادة : ويبحث عن علوية  
الموجودات وهو الذى تسميه لغة الدين " الله " •
- ٢ - واتخذت لنفسها ميدان الفلسفة الطبيعية وسمى هذا القسم حديثاً بـ " علم الكون "   
وجعل علم الطبيعة منه •  
وأوضح أفلاطون الفرق بين الطبيعيات وما وراء الطبيعة بأن الطبيعة " معرضة  
التغير " وأما ما وراءها فمعرض الثبات •
- ٣ - واتخذت الفلسفة لنفسها ميدان الفلسفة الانسانية وهذه تشمل الكثير من العلوم  
مثل : علم النفس والمنطق والاخلاق والجمال وفلسفة القانون والتاريخ والاجتماع •  
ذلك أن البحث فى الانسان من ناحية ماهو عليه فذلك علم النفس ومن ناحية  
تصمة ذهنه عن الخطأ فى التفكير يأتى علم المنطق • ومن ناحية ما يجب أن يكون عليه  
الانسان علم الاخلاق ومن ناحية الشعور الذى ينبعث عن الشيء الجميل علم الجمال •  
ومن ناحية تنظيم السلوك ببيان ما يجب وما لا يجب والفرق بين أنواع القوانين  
المتخلفة تأتى فلسفة القانون •

ومن ناحية المسائل التى تدور حول البحث فى علاقة الأشياء ببعضهم مع بعض  
يأتى علم الاجتماع وكذلك فلسفة التاريخ •

( ١ ) مبادئ الفلسفة ، ترجمة أحمد أمين ، ص ١١١ •  
( ٢ ) قصة الفلسفة اليونانية ، أحمد أمين ، وزكى نجيب محمود ، ص ١٠٧ •

وعلى ذلك تكون منزلة علم الأخلاق من الفلسفة منزلة الجزء من الكل فعلم الأخلاق جزء من الفلسفة الانسانية والفلسفة الانسانية جزء من الفلسفة على وجه عام (١) .  
اذن فالأخلاق فرع من فروع الفلسفة وقد كانت الفلسفة قد بما تشمل جميع المعارف الانسانية فكانت كل العلوم من ألفتها الى يائها تدخل في دائرة الفلسفة واستمر الأمر على هذا النحو حتى استقل العلم عن الفلسفة في القرن الثامن عشر وان كان العلماء قد نزعوا الى فصله ابتداء من لاقرن السابع عشر .

وأول من استخدم كلمة علم بمعناها التجريبي الراهن أكاديمية العلوم الفرنسية في فرنسا . أنشئت عام (١٦٦٦) وفي انجلترا المجمع البريطاني لتقدم العلوم أنشئ عام (١٨٣١) . (٢) .  
ولما أخذ العلم يستقل عن الفلسفة نشأت خصومه بين العلماء والفلاسفة قد اعتر العلماء بمنهجهم واستخفوا بكل ما لا يتخذ التجربة منهاجاً له واستخفت الفلسفة بالعلم أو استخف الفلاسفة بالعلماء لماديتهم ولعجزهم أو استخفاهم ببستان الفلسفة ذلك البستان الذي يرتاضى فيه العقل ونعوا عليهم تقديسهم الصرف للماديات .

حتى قال فولتير " ان علم ما بعد الطبيعة بستان يرتاضى فيه العقل وانه لألذ من علم الهندسة فلا نعانى فيه ما نعانى فيها من الحساب والقياس بل فيه نحلم حلمنا لذينا " .

واذا كنا نفهم من هذا أن العلماء والفلاسفة قد نزلوا ميدانا كل فيه ينتصر لما يهوى وإذا كان العلم قد استقل عن الفلسفة فما الفرق بين العلم والفلسفة؟  
وماذا تبقى للفلسفة بعد أن استقل عنها العلم؟  
التفرقة بين مدلول كلمة علم ومدلول كلمة فلسفة حديثة العهد ولم تستقل كل كلمة بمدلول خاص بها الا حين أخذ العلم يستقل عن الفلسفة أو حين أخذ رواد البحث التجريبي يطالبون بالكشف عن اسرار الطبيعة عن طريق المشاهدة ولما تعذرت المشاهدة اخترعت الآلات والأجهزة التي تكره الطبيعة على أن تكشف أسرارها .

(١) تأملات في فلسفة الأخلاق \* منصور على رجب ، ص ٤٨ .

(٢) أسس الفلسفة \* د. هاشم الطويل .

وكان ذلك على أيدي نخبة ممتازة من العلماء منهم الفيلسوف الانجليزى " فرنسيس بيكون " " ١٥٦١ - ١٦٢٦ " فهو الذى وضع أساس المنهج التجريبي الحديث فمهد بذلك لاستقلال العلم عن الفلسفة •

وخلاصة القول أن أخى خمائى الفلسفة " التجريد " أى أنها تحاول ما استطاعت ألا تربط الفكرة المعينة بجسم من الأجسام • أما العلم فإنه يلجأ الى المادة يستعين بها على تصوير ما يريد •

والفلسفة تنظر الى العالم كله كوحدة مترابطة متماسكة والعلم يأخذ جانباً من الكون دون جانب •

والفلسفة لا تسلم بصحة مبدأ أو فكرة الا اذا ثبت لديها ثبوتاً لا يدع مجالاً لا للريب والشك •

واذا كان العلم قد ثار في وجه الفلسفة يريد أن يرفض حمايتها وأن يستقل عنها استقلالاً كاملاً فان الفلسفة لم تتأخر عن موازرتة على خدمة القضية المشتركة وهى : قضية العلم بحقيقة الأشياء " •

ولقد تبقى للفلسفة بعد أن استقل عنها العلم ثلاثة ميادين رئيسية هى :  
١ - الوجود أو مسائل ما بعد الطبيعة - المعرفة - القيم أو المسائل الأخلاقية • (١)

أما الميدان الأول فيعرض للنظر في طبيعة الوجود على الاطلاق مجرداً من كل تعيين او تحديد • فمثلاً العلوم الطبيعية تبحث فى الوجود ولكن من حيث هو جسم متغير •

والعلوم الرياضية تبحث فى الوجود ولكن من حيث هو كم أو دقة ————  
أما البحث فى الوجود من حيث هو وجود مطلق فمن شأن الفلسفة ————  
( ١ ) مبادئ الفلسفة أ.س. رابويرت ، ترجمة أحمد أمين ، ص ١٣٣ •

ففى من هذه الناحية تبحث عن السلة الأولى الموجودة لهذا الكون أو بلغة الدين عن " الله " وصفاته وعلاقته بمخلوقاته وفيما اذا كان هذا الوجود ماديا صرفا أو روحيا خالصا : أو مزاجا منهما الى غير ذلك من مباحث هذا الميدان .

وأما نظرية المعرفة فيقصد به النظر فى مطلق العلم والبحث فى أصل المعرفة وماهيتها وحدودها ودرجة اليقين فيها . وتتساءل فى وسع العقل البشرى أن يدرك الحقائق ؟

واذا كان فى وسعه فما حدود هذه المعرفة ؟ أهى احتمالية ترجيحية أم أنها تتجاوز مرتبة الاحتمال الى درجة اليقين .

ثم ماهى منابع هذه المعرفة ؟ وما أدواتها ؟ أى العقل أم الحس .

أما الميدان الثالث أو مبحث القيم : فيعرض للبحث فى المثل العليا أو القيم المطلقة وهى الحق والخير والجمال من حيث ذاتها فيسأل هل هى مجرد معان فى العقل ؟ أو أن لها وجودا مستقلا عن العقل الذى يدركها . ( ١ )

واذا كنا قد عرفنا مكانة علم الأخلاق من الفلسفة وأنها مكانة الجزء من الكل ذلك لأن علم الأخلاق جزء من الفلسفة الانسانية هذه الفلسفة التى هى جزء من محيط الفلسفة بأكملها العام . اذا كنا قد عرفنا هذا فمن الحس ان نعرف شيئا عن صلة علم الأخلاق بغيره من علوم هذه الفلسفة الانسانية .

---

( ١ ) أسس الفلسفة ، د . توفيق الطويل ، ومبادئ الفلسفة تأليف " أرفلد كوليه ، ترجمة أبو العلا عفيفى .

### المبحث السابع

#### العلاقة بين علم الأخلاق وبين بعض علوم الفلسفة الانسانية

من المعتاد لدى المؤلفين ابتداء الكلام على العلم بشرح العلاقة بينه وبين العلوم الأخرى ونحن نجاريهم في ذلك ونقتصر على شرح العلاقة بين علم الأخلاق وبعض العلوم الفلسفية التي تتمثل به كبير اتصال .

#### أولا : علم الأخلاق وعلم الاجتماع

العلاقة بين هذين العلمين وثيقة فان دراسة السلوك أي أعمال الانسان الارادية التي هي موضوع الأخلاق تجر حتما الى دراسة الحياة الاجتماعية التي هي موضوع علم الاجتماع لأن الانسان لا يمكن أن يعيش الا مجتمعا فهو دائما عضو في جمعية ما وليس في قدرتنا أن نبحث فضائل الفرد الا اذا بحثنا المجتمع الذي ينتسب اليه وعرفنا ما فيه مما يعين على نمو الفضيلة أو يعوقها .

علم الاجتماع يبحث في الجمعية الأولى من الناس وكيف ارتقت ويبحث في اللغة والدين والأسرة وكيف تكون القانون والحكومة ونحو ذلك ودراسة هذه الأشياء تعين على فهم أعمال الانسان والحكم عليها بالخيرية أو الشرية والمواب والخطأ .<sup>(١)</sup>

#### ثانيا : صلة علم الاخلاق بالمنطق

يبين الدكتور منصور على العلاقة بينهما معتمدا على عدة أسئلة ألا وهي :  
هل علم المنطق من العلوم المعيارية ؟ يعني أن مهمته أن يضح القواعد التي يجب أن يفكر الانسان على مقتضاها ليعصم ذهنه من الخطأ في التفكير .  
أو هل هو من العلوم الوصفية ؟  
أي أن مهمته أن يصف التفكير العلمي على ما هو عليه .

(١) الأخلاق لأحمد أمين ، نقلا عن : العلاقة بين السياسة والأخلاق في مقدمة كتاب ارسطو لسانتهلير ، ترجمة ، لطفي السيد ، ص ٢٦ .

ثم يجب بقوله : انه من العلوم المعيارية فهو قوى الصلة بعلم الأخلاق يتصل به من ناحيتين اثنتين :

الأولى : أنه وعلم الأخلاق من العلوم المعيارية : علم الأخلاق يضع القوانين التسيى ينغى أن يكف الانسان سلوكه على مقتضاها . وعلم المنطق يضع القوانين التى ينبغى أن يفكر الانسان على منوالها .

الثانية : ان كلا منها يبحث فى الانسان من الناحية النفسية : كل من جهة : هذان ناحية سلوكه . وهذا من ناحية تفكيره -

لكن . هل يتصل المنطق بالأخلاق من تلك الناحية الحية . وهى أن التفكير المنطقى يخلق رجالا على سلوك طيب بالفعل ؟

واقع الأمر على مسرح هذه الحياة يرينا أن بعض الناس قد يكون أقربهم الى التفكير المنطقى أو أنهم به وأبعدهم عن سلوك الاخيار .

وإذا كان المنطق أكثر العلوم الفلسفية نجاة وتقدما وأنه العلم الذى يبحث فى التفكير الصحيح الذى يأتى مطابقا لمبادئ العقل البديهة اذا كان ذلك كذلك فهل لى أن أطمع فى أن أرى طلاب المنطق أقرب الناس الى قواعد السلوك . . . ان ذلك هو الذى يدل حقا على أنهم يفكرون تفكيرا منطقيا ؟ ! وان ذلك هو الذى يدل حقا على شمسرة المنطق فى نفوس طلابه . .

وإذا كان المنطق مشاج الفلسفة على معنى أن الذى لا يعرف المنطق لا يعرف الفلسفة فأنى أهم الى ذلك أن الذى يفكر التفكير المنطقى ولا يظهر ذلك على سلوكه بالفعل فليس من المنطق فى شيء . فالمنطق مهمته أن يعصم الذهن عن الخطأ فى التفكير . . نالذى يخطئ فى عملية حسابية أو نظرية هندسية أو قاعدة علمية . .

هؤلاء لم يفكرو تفكيراً سليماً ولم يثبتوا ثباتاً حكيماً .. كذلك الذي ينحرف عن السلوك الطيب ليس منطقياً مع نفسه .. وإن حفظ مسائل المنطق عن ظهر قلب .. وقديماً قال "سقراط" الفضيلة المعرفة .. فمن لم توصله المعرفة إلى الفضيلة بالفعل (١) فليس من المعرفة في شيء أو معرفته ناقصة فالمعرفة الصحيحة تعطى الثمار ..

### ثالثاً : صلة علم الأخلاق بعلم القانون

موضوع العلمين أعمال الإنسان وغايتها واحدة وهي : تنظيم أعمال الناس لاسعادهم ولكن دائرة علم الأخلاق أوسع فالأخلاق تأمر بعمل كل ما ينفع وتنهى عن عمل كل ما يضر وليس كذلك القانون فهناك أعمال نافعة لا يأمر بها القانون كإحسان السبي الفقير وهناك أعمال ضارة لا ينهى عنها القانون كالكذب والحسد والسب في عدم تدخل القانون في هذه الأشياء وأمثالها أن القانون لا يأمر ولا ينهى إلا إذا استطاع أن يماقنب من يخالف أمره أو نهيه وإلا لم يكن قانوناً . وفي كثير من الأحيان يستلزم تنفيذ القانون استعمال وسائل أكثر ضرراً على الأمة مما يأمر به القانون أو ينهى عنه .

وأيضاً هناك رذائل خفية ككفران النعمة والحسد وهذه لا يستطيع القانون أن يصل إليها لابقاع العقوبة على فاعليها فهي لا يمكن أن تقع تحت سلطة القانون وليس شأنها في ذلك شأن السرقة والقتل .

وفرق آخر وهو أن القانون ينظر إلى الأعمال من حيث نتائجها الخارجية وإن عني بشيء وراء ذلك فهو أن يبحث عن قصد العامل من هذا العمل الخارجي .

أما علم الأخلاق فيبحث في حركات النفس الباطنية ولو لم يصدر عنها عمل خارجي ... كما يبحث في الأعمال الخارجية ولتوضيح ذلك نقول : أن القانون يستطيع أن يقول : " لا تسرق " و " لا تقتل " ولا يستطيع أن يقول شيئاً وراء ذلك ، أما الأخلاق فتشارك القانون في النهي عن السرقة والقتل فتزيد عليه فتقول " لا تفكر في الشر " .

(١) تأملات في فلسفة الأخلاق ، منصور على رجب ، ص ٦٠ ، ط ٣ .



يستطيع القانون أن يحمي ملك الناس وأن ينهى عن التمدى عليه ولكن لا يستطيع أن يأمر المالك أن يتصد إلى المصلحة والخير في استعمال ماله إنما الذي يستطيع هذا الأمر هو علم الأخلاق . (١)

#### رابعاً : صلة علم الأخلاق بعلم النفس

إن علم النفس مقدمة ضرورية لابد منها لدارس علم الأخلاق حيث أن علم النفس يبحث في القوى الأساسية والرئيسية في السلوك الانساني كالغميز والارادة والذاكرة وغيرها من قوى النفس الانسانية .

وبما أن علم الأخلاق يتخذ لنفسه موضوعاً هو أفعال الانسان العاقل الحر المريد اذن ما كان لنا أن نحكم على أى انسان حكماً اخلاقياً من غير أن نضع هذه الأشياء فى اعتبارنا .

وإذا كانت قوانين الأخلاق قد وضعت ليكيف الانسان سلوكه على مقتضاهما فيجب أن يعرف الانسان نفسه أولاً ثم يكيفها ويحكمها على أساس هذه القوانين الأخلاقية فما لا يتم الواجب الا به فهو واجب .

وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال : " انا أراد الله بعبده خيراً ما بصره بعيب نفسه " اذن علم النفس يلتقى بعلم الأخلاق من ناحية أن كلا منهما يبحث الانسان من ناحيته الفلسفية : علم الأخلاق من ناحية ما يجب أن يكون عليه الانسان وعلم النفس من ناحية ما هو عليه بالفعل . (٢)

---

(١) الأخلاق ، أحمد أمين ، ص ٧٠ .

(٢) يتصرف من كتاب تأملات فى فلسفة الأخلاق ، ص ٥٧ .



## الفصل الثاني

### الخلق والسلوك وأهمية التربية الخلقية للفرد والجماعة

المبحث الأول : الخلق

المبحث الثاني : السلوك

المبحث الثالث : التربية الخلقية



المبحث الأول

الخلق

عرف بعض العلماء الخلق بأنه " عادة الارادة " يعنى أن الارادة اذا اعتادت شيئاً فعادت بها هي المسماء بالخلق فاذا اعتادت الارادة العزم على الاعطاء سميت عادة الارادة هذه خلق الكرم . (١)

(٢)

وهناك من عرفه بأنه : تغلب ميل من الميول على الانسان باستمرار فالكريم هو الذى يتغلب عليه الميل الى الاعطاء ويوجد عنده هذا الميل كلما وجدت الظروف الداعية اليه الا فى أحوال نادرة وهي فقده المال مثلا .

اذن ليس الخلق هو الفعل فرب شخص خلقه السخاء أى يملك الارادة والميل الى البذل ولكنه لا يبذل لفقده المال . والعكس صحيح حيث يكون خلقه البخل ويفعل البذل رياء الناس .

وعلى هذا يكون الرجل الكريم هو الذى يتغلب عليه الميول الكريمة باستمرار أما من لا يتغلب عليه ميل خاسى باستمرار فلا خلق له فالذى يتوفر له ظروف الاعطاء فيعطى مرة ويبخل مرة فى نفس الظرف فليس كريماً ولا بخيلاً وليس له خلق ثابت .

من هذا نفهم أن الخلق مفة نفسية لا شىء خارجى أما المظهر الخارجى للخلق فيسمى سلوكاً والسلوك دليل على الخلق .

---

(١) الأخلاق ، أحمد أمين ، ص ٥٠ .

(٢) تأملات فى فلسفة الأخلاق ، منصور على رجب ، ص ٩٠ : ٩١ .

وإذا أردنا أن نلجأ في فهمنا لمعنى الخلق الى بعض الفلاسفة الاسلاميين نجد ابن سينا يعرفه بقوله : " انه هيئة تحدث للنفس الناطقة عن جهد انقيادها للبدن أو عدم انقيادها " ويعرفه أيضا " بأن الخلق ملكه تصدر بها عن النفس أفعال مما بسهولة من غير تقدم روية " . ( ١ )

أما أبو الفرج ابن الجوزي فيعرفه بأنه " الطبع الكريم وحقيقة الخلق هو ما يأخذ الانسان نفسه به من الآداب فسمى خلق لأنه يصير كالخلقة في صاحبه فأما ما طبع عليه فيسمى الختم الطبع الفريزى والخلق الطبع المتكلف " . ( ٢ )

كما يقول ابن مكسوية : الخلق . حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية وهذه الحال تنقسم الى قسمين : منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالانسان الذى يحركه أدنى شىء نحو الغضب وبهيج من أقل سبب ، ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولا فأول حتى يصير ملكه وخلقاً " . ( ٣ ) ويقول : " انا مطبوعون على قبول الخلق بل تنتقل بالتأديب والمواعظة اما سريعا أو بطيئا " . ( ٤ )

كذلك يقول الامام الغزالي : " الخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية .

فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا . وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا .

---

( ١ ) التربية الأخلاقية الاسلامية للدكتور /مقداد بالجن ، ص ٦٨ ، ط ١ .

( ٢ ) الطب الروحاني ، ص ٤٣ .

( ٣ ) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، ابن مسكويه ، ص ٤٢ .

( ٤ ) المرجع السابق ، ص ٣٧ .

وانما قلنا انها هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور . لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء مالم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ وانما اشتراطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم " . (١) ومن هذا الاستعراض لموقف الفلاسفة من الخلق نلاحظ أنهم جميعا اتفقوا على أن الخلق هو الطبع والسجية وأن الانسان خلق وعنده الاستعداد للخير والشر .

وبعد أن استعرضنا آراء بعض الفلاسفة في معنى الخلق نريد أن نستزيد ايضا لهذا المفهوم من خلال بعض آراء المفسرون خصوصا ونحن نعتمد على القرآن الكريم وعلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في فهم هذا المعنى .

فيقول الامام العلامة الفخر الرازي : الخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الاتيان بالأفعال الجميلة .

وقد ذكر الأحاديث المروية عن عائشة رضى الله تعالى عنها في بيان أن خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن ويعلق عليها بقوله : " وهذا اشارة الى أن نفسه المقدسة كانت بالطبع منجذبة الى عالم الغيب والى كل ما يتعلق بها وكانت شديدة النفرة عن اللذات البدنية والسعادة الدنيوية بالطبع ومقتضى الفطرة " .

ثم أتبع ذلك بذكر ما مدحت عائشة رضى الله تعالى عنها به خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقول أنس رضى الله تعالى عنه : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى فى شيء فعلته لم فعلت ولا فى شيء لم أفعله هلا فعلت " . (٢)

---

(١) احياء علوم الدين للغزالي ، ج٢ ، ص ٥٢ ، ط ١ ، عيسى الحلبى .

(٢) تفسير الفخر الرازي ، ج٢ ، ص ٨١ ، ط ، دار الفكر ، بيروت .

أما الامام ابن كثير رضى الله تعالى عنه فقد ذكر عددا من الأحاديث فى بيان أن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القرآن ومعلوم أن القرآن هو الدستور الحقيقى للقيم الأخلاقية والقوانين المنظمة للسلوك الانسانى •

ومن هذه الأحاديث " قال الامام أحمد حدثنا اسماعيل حدثنا يونس عن الحسن قال سألت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن •

ثم عقب عليها بقوله : ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمرا ونهيا سجيته له وخلقاً تطبعه وترك طبعه الجبلى فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والمفح والحلم وكل خلق جميل •

لذلك قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروه عن عائشة قالت : ماضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادما له قط ولا ضرب امرأة ولا ضرب بيده شئ قط الا أن يجاهد فى سبيل الله ولا خير بين شيئين قط الا كان أحبهما اليه أيسرهما حتى يكون اثما فاذا كان اثما كان أبعد الناس من الاثم ولا انتقم لنفسه من شئ يؤتى اليه الا أن تنتهك حرمة الله فيكون هو ينتقم لله عز وجل • وقال الامام أحمد حدثنا سعيد بن منصور حدثنا عبد العزيز ابن محمد عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " انما بعثت لأتمم صالح الأخلاق " . ( ١ )

ويقول الطبرى فى تفسيره لقوله تعالى " وانك لعلى خلق عظيم " يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وانك يا محمد لعلى أدب عظيم

---

( ١ ) تفسير ابن كثير • ج ٤ ، ص ٤٠٢ ، ط . مكتبة الدعوة الاسلامية •



وذلك أدب القرآن الذي أدبه وهو الاسلام وشرائعه .

ثم روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه الدين العظيم . وعنه أيضا :  
أنه الاسلام وعن مجاهد : أنه الدين . وعن قتاده قال : سألت عائشة عن خلق  
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن تقول كما هو في القرآن  
وعن عطية : أنه أدب القرآن . (١)

وباستمرارنا لرأى المفسرون فى معنى الخلق نجد أنهم عمدوا الى وصف  
خلق الرسول صلى الله عليه وسلم وتحليه حسنها وكمالها وجلالها وابرار القدوة التى  
تتمثل فى خلق الرسول صلى الله عليه وسلم وتطابقها مع القرآن الكريم .

#### العوامل المؤثرة فى الخلق :

ان العوامل المؤثرة فى الخلق وتكوينه ثلاثة هى :

العادة والبيئة والوراثة

---

(١) جامع البيان عن تأوى لآئى القرآن للطبرى ، ج٢٩ ، ص ١٨ ، ١٩ ، ط  
الحنلى .

#### أولا : العادة :

يتكون الخلق بالممارسة والاعتقاد وبكثرة تكرار الفعل والمواظبة عليه ولعل ذلك هو الملاحظ حد هؤلاء الذين عرفوا الخلق بأنه " عادة الارادة " فمن طريق المواظبة على التكرار والمداومة على الفعل يصبح اتيانه وممارسته عادة لازمة وطبعاً دائماً يعنى يصير خلقاً لمصدر عنه تلقائياً من غير أن يسبقه تفكير أو تقدير بحيث يكون انطباعاً من انطباعات النفس وحالاً لها تحملها على الفعل من غير حاجة الى تأمل وروية . ولكن أى عمل لا يصير عادة بالتكرار فقط ولكن أيضاً بميل النفس اليه واجابة هذا الميل باصدار العمل .

اذن العمل سواء كان خيراً أو شراً لا يصير عادة الا بشيئين كما ذكرنا هما :  
ميل النفس اليه واجابة هذا الميل باصدار العمل مع تكرار ذلك كله تكراراً كافياً . أما تكرار العمل الخارجى وحده أعنى مجرد تحريك الأعضاء بالعمل فلا يفيد فى تكوين العادة . فالمريض الذى يتجرع الدواء المر مراراً وهو فى كل مرة كاره له - على أمل الشفاء وترك هذا الدواء - فلا يصير شرب الدواء عادة له والسبب فى هذا أن المريض لم تمل نفسه الى شرب الدواء وانما مالت الى كسب الصحة فالميل النفسى الى العمل وتكرير هذا الميل لم يتحققاً فلم تتكون العادة .

ولكنا نرى المدخن بتكريره التدخين يعتاده ويصعب عليه العدول عنه لأنه رغب التدخين وتكرر ميله وتكرر العمل الخارجى وهو اشعال السيجارة وتدخينها فتكونت العادة .

كذلك تكرير الميل النفسى وحده لىبى بكاف . فمن مال الى التدخين مراراً ولكنه لم يجب هذا الميل لا يصح التدخين له عادة . فلا بد اذن من الميل النفسى و العمل الخارجى وتكرارهما .

كذلك فان من يسخو مرة أو مرتين أو ثلاثاً عفواً وتحت تأثير معين لا يمكن أن نصفه بخلق السخاء مثلاً . وانما يتصف بهذا الخلق عندما يصير السخاء عادة لازمة وملكه راسخة

تكفل صدور فعل السخاء عن نفسه الراضية وقلبه مطمئن وعن استلذاذه له واطمئنانه اليه  
وانشراح صدره به .

وهكذا فان العادة قوة مؤثرة في تكوين الخلق ومن هنا تظهر المسؤولية الكبرى الملقاه  
على عاتق المربين والوعاظ والمرشدين في تكوين الأخلاق الحميدة في نفوس الأفراد والجماعات  
ومحو كل أثر للأخلاق الذميمة كما يظهر أثر القدوة في تكوين الفضائل ومحاربة الرذائل (١)  
اذن فتكرار الفعل وحده لا يكون العادة وانما يجب تأصيل هذه العادة في النفس حتى يميل  
اليها وتكون في حالة شغف بالقيام بهذا الفعل دائما .

ثانيا : البيئة والوراثة

وليست العادة وحدها هي العامل الأول في تكوين الخلق وتربية الأطفال على حب  
الفضائل واقتنائها وكراهية الرذائل واجتنابها .

وانما بجانب العادة يوجد عاملان آخران لا يقلان عنها أثرا بل ربما يفوقانها وبزبدان  
عليها هما " البيئة " و " الوراثة " .

فبيئة الانسان هي كل ما يحيط به أو يؤثر فيه بطريق مباشر أو غير مباشر منذ كان  
جنينا في بطن أمه حتى يوافيه أجله المحتوم .

فكل ما يؤثر في الانسان أو يعمل على تكييفه وتكوين صفاته يعد بيئة له وعاملا من  
عوامل تكوينه الخلقى سواء كان ذلك بيئة طبيعية كالقلم وما يتميز به من مناخ وسهول  
وجبال أو بيئة اجتماعية كأحشاء الأم والمنزل والمدرسة والأصدقاء والأندية والتقاليد  
والعادات التي تسود المجتمع والصحف والمجلات التي يشب المرء على قراءتها الى غير ذلك  
من جوانب البيئة الاجتماعية .

أما الوراثة : فهي . انتقال بعض خصائص الأمل الى الفرع قل ذلك أم كثر .  
وليس من المحتم مادام الابن جاء نتيجة لالتقاء الأبوين أن تنتقل كل صفاتها أو بعضها  
اليه بصفة فعلية . وانما قد يكون ذلك وقد تكمن وتختفى في عدة فروع أو طبقات فتظهر

(١) العقيدة والأخلاق ، د . بيسار ، ص ٢٠٩ ، بتصرف : ط ٢ ، الأخلاق ، أحمد  
أمين ، ص ١٧ ، ط ١٠ .

كلها أو بعضها عندما تحين لها الفرصة في بعض أفراد نسله القريب أو البعيد .

ولا تكون الوراثة عاملا في نقل الصفات الحسية فحسب وإنما كذلك عن طريقها تنتقل الصفات الأدبية كالأمزجة والميول والغرائز والصفات العقلية كالذكاء أو البلادة وحسن تقدير الأمور أو سوءه إلى غير ذلك من صفات يكون لها الأثر الأقوى في تكوين أخلاق الحر، وتكييفها وطبعها بطابع معين خيرا كان ذلك الطابع أو شرا حسنا أو قبيحا .

فالبيئة اذن والوراثة موردان هامان لأخلاق الانسان . فكما أن الوراثة تمدّه بمادة خام من الغرائز والميول والاستعدادات المختلفة فكذلك البيئة تهيه لهذه الغرائز والاستعدادات الجو المناسب والفرص المواتية والامكانيات المتاحة لتميل به إلى الخير أو الشر . (١)

#### العلاقة بين الوراثة والبيئة :

لم يبق مجال للشك في أن الوراثة والبيئة معا يحددان قيمة كل جسم حي ونجاحه أو خيبته وإنما موضع الخلاف الآن القيمة النسبية لكل من الوراثة والبيئة أعنى أيهما أكبر تأثيرا في الكائن الحي وأعمل في رقيه .

اهتم الباحثون المصريون بهذا الموضوع لما يترتب عليه من الاصلاحات الاجتماعية وذهبوا فيه مذهبين :  
فذهب بعض العلماء إلى أن الوراثة أكبر مؤثر في الانسان وليست البيئة الا عاملا ضعيفا اذا قيس بالوراثة فعن طريق الوراثة يكون نوعه كما تصاغ أخلاقه وبها تحدد بنيته ويعين مقدار عقله .

كما أن أهم ما يساعد على رقي النوع الانساني هو اصلاح الوراثة باصلاح الانتخاب بين الزوجين ومنع التوالد بين من لا يصلحون للانتاج طبيعيا أو خلقيا وقد قال الرسول الكريم " تخبروا لنطفكم فان العرق دساس " .

---

(١) بتصرف من العقيدة والأخلاق ، د. بيمار ، ص ٢١١ ، ٢١٢ ، ط ٢ .

وذهب فريق آخر من علماء الاجتماع الى أن ما نسب الى الوراثة من القية الكبرى أكبر من الحقيقة فأكثر العيوب الجسمية سببه البيئة لا الوراثة وان أكثر الأطفال يولدون صحيين البنية والبيئة هي التي تعرضهم .

وليس أدل على قوة أثر البيئة على الأخلاق ما يشاهد من أن أبناء الحارات والشوارع اذا انتزعوا وهم صغار من بيئتهم الفاسدة تغيرت أخلاقهم تغيرا كبيرا وشبوا شبابا حسنا وهم لو تركوا في بيئتهم لشبوا متشردين أو مجرمين . حتى قال بعضهم :  
" لا أثر للأباء مهما ساء وا اذا أخذت الأولاد منهم قبل أن يدنسوا بهم وأحيطوا ببيئة طيبة . "

ومهما يكن من الخلاف فان البيئة والوراثة هما العاملان المكونان للجسم والعقل والخلق لذلك يجب أن يحاط كل ناشئ بالبيئة الصالحة لتملحه على قدر استعدادة فمن المستحيل أن يوزن كل من عامل الوراثة وعامل البيئة بالميزان المضبوط وتحدد بينهما نسبة دقيقة . (١)

#### استقامة الخلق في قانون الاسلام :

قضت حكمة الله تعالى ألا يخلق الانسان من مادة فحسب ولا من روح فحسب وانما جعله مزيجا من مادة وروح وكان من الطبيعي أن يكون لكل من هذين الجانبين في الانسان مطالبه ومقتضياته .

فالجانب الروحي من الانسان يستحثه دائما على تحصيل الفضائل وتبني القيم الروحية والمبادئ الانسانية السامية وتوحى تعاليم الأديان السماوية في كل ما يأتي ويذر من أقوال وأفعال .

أما الجانب المادي فانه يستحثه على اقتناء كل ما هو ضروري مادي من مقومات أساسية تساعد على الحركة والنشاط والعمل .

---

(١) بتصرف من الأخلاق ، أحمد أمين ، ص ٣٤ ، ط ١٠ .

وقد عنى الاسلام عناية فائقة بتحقيق التعادل فى الانسان بين هذين الجانبين وحماية كل منهما من طغيان الآخر عليه .

ضرورة أن طغيان أحدهما على الآخر يعد فى نظر الاسلام نوعا من الانحراف بالفكرة الاسلامية وشططا فى تفهم حقيقة الاسلام .

قال تعالى " وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك " (١)

وفيما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ما يؤكد ذلك ويؤيده من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام " اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا " .

وبمقدار ما ينجح المؤمن فى تحقيق هذا التعادل والتوازن بين عنصريه المادى والروحى يكون نصيبه من السعادة ويكون حظه منطمأنينة والرضا والشعورا بالأمن والاستقرار ثم الثقة بالله وبنفسه وبمجتمعه الذى يعيش فيه .

ذلك أنه حينما يتحقق له ذلك لن ينصرف عن الله عزوجل . ولن يهمل تعاليم الأديان لينصرف الى تغذية شهواته وتحصيل ملذاته وكذلك عندما يتحقق له ذلك لن ينصرف كلية عن مقومات حياته المادية وضرورة وجوده الحسى فيقعد عن الكسب والعمل باسم الاقبال على الله اذ يعطل ملكاته ومواهبه باسم الزهد فى الدنيا واحتقار مطالب النفس المادية وانما سيعمل جاهدا على أن يحصل من ذلك ما أباح الله له بل وأوجبه عليه من كسب مشروع وعمل واجب واسهام دائم فعال فى بناء مجتمعه ودفع عجلة الانتاج بنية خالصة وارادة خيرة .

هذا التعادل بين حالتى النفس هو ما عبر عنه القرآن الكريم باسم الصراط المستقيم وهو ما أمر الله به رسوله حين قال " فاستقم كما أمرت ومن تاب معك " .

ووجه المؤمن بالسعى اليه والدأب على طلبه وتجديد هذا الطلب أكثر من خمس مرات  
فى اليوم والليلة • ثم فوق ذلك نهى عن اتباع غيره من السبل التى تفرق كلمة المؤمنين  
وتجعل منهم شيعا وأحزابا " وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق  
بكم عن سبيله " (١)

هؤلاء الذين ينجحون فى تحقيق الاستقامة يبدل الله عسرهم يسرا وخوفهم أمنا  
وشدتهم رخاء ويذهب الأسى والحزن من نفوسهم فى الدنيا ثم يبشرهم فى الآخرة •

وفوق هذا وذلك يشملهم بولايتهم وحسن رعايتهم " ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا  
تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون • نحن أولياؤكم  
فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما توعدون نزلا من غفور  
رحيم " (٢) (٣)

---

(١) سورة الأنعام ، آية ١٥٣ •

(٢) فصلت ٣٠ : ٣٢ •

(٣) يتصرف من العقيدة والأخلاق • د • بيمار ، ص ٢١٢ ، ط الثانية •

## المبحث الثاني

### السلوك

بعد أن اتضح لنا من تعريف الخلق عند علماء الأخلاق أنه حالة باطنية أو أنه أمر داخلي تشتمل عليه النفس وصفة تقوم بها فتطبعها بطابع معين يعيل بها اما الى فعل الخير واما الى فعل الشر .

الا أن أفعال الانسان الظاهرة تختلف كل الاختلاف عن هذا الأمر الباطني فالخلق في مفهومه وماهيته شيء والفعل الذي من شأنه يصدر عنه ويكون مظهرًا له شيء آخر .

هذه الأعمال الظاهرة هي التي يطلق عليها علماء الأخلاق اسم "السلوك" وهي لا تسمى سلوكا الا اذا كانت صادرة عن ارادة . أما اذا صدرت عن المرء من غير ارادة لها أو تفكير فيها فانها حينئذ لا تسمى سلوكا . وانما تكون تصرفا تدفع اليه الغرائز التي يشترك فيها الانسان والحيوان على السواء .

اذن فالسلوك هو أعمال الانسان الارادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة " .

وهذا التعريف يمنع أن يدخل فيه أعمال الحيوان لأن أعمال الحيوان مدفوعة بغرائزه وشهواته لا بوجهها تفكير . ويمنع أيضا أن يدخل فيه أعمال الانسان التي لا يتوفر فيها شرط الفعل الخلقى . وبهذا يتميز العاقل على غير العاقل . فاذا لم يكن الفعل مرادًا أي تأمر به الارادة فلا وجه للحكم على الفعل .

### علاقة السلوك بالأخلاق :

اذا كان السلوك هو صورة فعل الانسان الظاهرة وكانت الأخلاق هي الصورة الباطنة فما هي علاقة الصورة الظاهرة بالصورة الباطنة أو ما هي علاقة السلوك بالأخلاق هل هي



علاقة الدال بالمدلول؟ على معنى أنا نحكم عليك بفعلك فإن كان حسنا قلنا : ان أخلاقك حسنة ( ١ )  
وان كان سيئا قلنا : ان أخلاقك سيئة . يجيب عن ذلك الأستاذ / منصور على رجب بقوله :

ان قلنا بهذا . يرد علينا أن من الناس من هم على أخلاق طيبة غير أن ظروفهم التي تحيط بهم لا تمكنهم من أن يكونوا على سلوك حسن بالفعل . لضيق ذات اليد عندما بدعو دأى الى الاحسان مثلا . أو لغير ضيق ذات اليد عندما تدعو فضيلة أخرى مما تراه فى كثير من الأحيان .

وعلى العكس من ذلك قد ترى شخصا لا تعرفه الأخلاق أبدا لا فى قليل ولا فى كثير ولكنه فى بعض الأوقات يجود بمقدار ما يجود به عشرات من الناس : يجود بذلك نفاقا ورياء حاجة فى نفسه فهل يعد هذا على أخلاق طيبة وذلك على أخلاق سيئة ؟ لا .

اذن فالعلاقة بين السلوك والأخلاق هى علاقة الدال بالمدلول ولكن ليس ذلك دائما . لأن الأمر يتوقف مع ذلك على الظروف التي تحيط بالانسان وتؤثر فيه .

فالخلق لا ينفرد بالتأثير فى سلوك الانسان وانما هناك عوامل وظروف يتوقف عليها تكييف الحلة بينها وفاعلية الأول فى الثانى . فليس من الضروري اذن أنه كلما وجد لدى انسان خلق السخاء أن يسخو فعلا وذلك لفقره أو كلما اشتملت نفسه على خلق الشجاعة أن يكون شجاعا فعلا وذلك لمرض ألم به أقعده عن ممارسة فعل النجدة والشجاعة . . . وهكذا يتوقف السلوك الأدبى على الظروف التي تحيط بك أيا كان نوعها .

---

( ١ ) تأملات فى فلسفة الأخلاق ، منصور على رجب ، ص ١٨٣ ، ط ٣ .

### المبحث الثالث

#### التربية الخلقية

من المعلوم أن الانسان كائن حى مكون من جسم ونفس وعقل يعيش فى مجتمع معين ويتفاعل معه فى كل شئونه وعلى هذا يجب أن ننظر الى الانسان نظرة تكاملية أى نظره تتابع التطور الحى فى نمو الشخصية فيكون غرض الآخلاق اذن العمل على ايجاد التوازن بين جوانب الشخصية الانسانية وتوجيهها نحو تحسين نفسها الى أقصى ما تسمح به القدرات الانسانية وبذلك يصبح المثل الأعلى الخلقى هو الحياة السليمة المنتجة المؤدية الى ترقى الفردية الانسانية وبالتالي الى ترقى البيئة الاجتماعية •

ولاشك أن هذا يتطلب من الفرد أن يكون أولا على جانب من العقل أو الذكاء يسمح له أن يتعرف على امكانياته وعلى دوره فى المجتمع الذى ينتمى اليه كما يتطلب أن يكون على شئ من صحة النفس يسمح له باختيار الاتجاهات السليمة فى الحياة • وقبل ذلك أن يكون على قدر مناسب من الصحة الجسمية يساعده على تنفيذ التزاماته •

فإذا حاز الانسان هذه الأسس الضرورية كان عليه أن يقوم نحوها بالصيانة والرعاية أولا ثم تنميتها وترقيتها الى أقصى حدودها المستطاعة فى حدود الاتجاهات الغالبة على شخصية الفرد •

ويرسم بعض الأخلاقيين الاسلاميين الطريق الى الصورة المثلى للتربية الخلقية من خلال بعض الوصايا العملية . حيث يقسمون النفس الى قواها الرئيسية من شهوانية وغضبية وناطقة حتى يمكن اصلاح وتوجيه كل منها للوصول الى هذه التربية فبالنسبة للنفس الشهوانية للانسان فيجب عليه قمعها وكسرها وذلك بالابتعاد عما تهفوا اليه من شهوات ورغبات رديئة واستبداله بكل ما هو مستحسن من جنس هذه الشهوة .

أيضا الاكثار من مجالسة الزهاد وأهل الورع وأهل العلم . فملازمته لهذه المجالس تضطره الى التصون والتعفف وأن يتجنب مجالس الخلقاء والسفهاء ويفر من مجالس السكر . فالخمر يثير النفس الشهوانية ويحملها على ارتكاب الفواحش .

أيضا ينبغي أن يديم النظر في كتب الأخلاق والسياسة وأخبار أهل الورع كذلك ينبغي لمن أراد قمع نفسه الشهوانية أن يقلل من استجاع السماع وخاصة النساء المتصنعات منهن حيث أن للسماع قوة عظيمة في اثاره الشهوة خاصة اذا تعمدت ذلك المسمعة .

فأما الطعام فينبغي العلم بأن غايته منه هو الشبع لدفع ألم الجوع فقط لذلك يجب ألا يلجأ الى فاخر الطعام بل يقتنع بالمتوسط منه .

أما النفس الغضبية فان طريق قمعها هو أن يلجأ الانسان الى تفقد أحوال السفهاء من الناس حين غضبهم في أوقات طيشهم وحدتهم حيث يشاهد منهم منظرا يأسف منه الناس جميعا وهذا يجعله حتما يتذكر هذا المنظر القبيح حين يقدم على الغضب فلا يقرب بل يفر ويبتعد عنه .

وملاك الأمر فى تهذيب الأخلاق وضبط النفس الشهوانية والنفس الغضبية هـى النفس الناطقة فان بهذه النفس تكون جميع السياسات وبقوة هذه النفس وتمكنها فى صاحبها يمكنه أن يسوس قوته الأخرين ويكف نفسه عن القبائح ويتبع أبدا محاسن الأخلاق .

ولكن اذا كانت هذه النفس ضعيفة فأول ما ينبغى أن يعتمد عليه فى سياسة أخلاقه أن يروى هذه النفس ويقويها وذلك عن طريق العلوم العقلية .

فمداومته على النظر فى العلوم العقلية ودراسته لكتب الأخلاق والسياسة تنتعش نفسه الناطقة وتتهنى من خمولها فتشعر بفضائلها وتأنف من رذائلها فتشرف نفسه ويقوى فكره وملاك أخلاقه وقدر على اصلاحها وانقاد له طبعه وسهل عليه تهذيبه وأنعست له القوى الغضبية والشهوية وهان عليه قمعها وتذليلها .

ومما يصلح النفس الناطقة ويقويها أيضا مجالس أهل العلم ومخالطتهم والاقتداء بأخلاقهم وعاداتهم وخاصة أصحاب علوم الحقائق والتميقظون منهم " . (١)

ولاشك أن المجتمع يحاول دائما أن يرقى بشخصيات أفرادهم ويكفل لهم الحياة المنتجة الساعية الى رفاهيته ولذلك فقد نظم طرق استعمال القوى النفسية للفرد وعمل على توجيهها نحو سلامته .

وعلى نطاق أوسع من القوى النفسية اذا نظرنا الى الشخصية الانسانية نستطيع أن نتناولها بالتربية الخلقية من جهات متعددة وجوانب مختلفة فهناك جانب الجسم والنفس والعقل .

---

(١) تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية ، أبو بكر زكري ، ط الثالثة ، ص ١١١ ، ومابعدا نقلا عن كتاب الأخلاق ليحيى بن عدى ، بتصرف .

وعلى هذا فالواجب الخلقى الذى يجب على الفرد أن يراعيه هو مجموعة من الواجبات نحو جسمه ونحو نفسه ونحو عقله ونحو ملته بالمجتمع وهى واجبات تهدينا البيا التجربة والعلم والعقل .

فمن واجبات الانسان نحو جسمه أن يعنى بنظافته وتغذيته ونشاطه وراحته ويسارع الى علاجه اذا ألم به مريض ويعمل على ستره بالملبس النظيف فى غير اسراف ولا تظاهر وتقويته بالرياضة .

ومن واجباته نحو نفسه أن يرضى رغباته الملحة بطريقة سليمة لا تتعارض مع الأوضاع الاجتماعية والا يكتها أو يسرف فيها أو يخضع لها خضوعاً أعمى كما يلزمه أن يرضى الجوانب المختلقة لنفسه فيعمل عملاً خيراً كل حين حتى تصبح هذه الأعمال هى الطابع الغالب على أسلوبه واتجاهه فى الحياة وعليه أن يقوى نفسه بالدين لأن الدين يساعد على اعلاء كثير من الدوافع النفسية كما أنه يضى على النفس الهدوء والراحة والأمل .

ومن واجباته نحو عقله أن يعمل على تثقيفه وزيادة خبراته حتى يقوم بعمله فى ملاءمة شخصية الفرد مع الظروف المحيطة به فى يسر ونجاح .

وعليه أن لا ينسى أثر الفنون والآداب فى ترقية العقل وتهذيب النفس معا فيجب ألا تشغله الحياة المادية عن الاستمتاع بالآثار الأدبية والفنية لأنها تملأ النفس بهجة وتفتح أمام العقل آفاقاً جديدة للانطلاق والتفكير .

والعمل اليومى الذى يكسب الانسان منه قوته من أهم أسباب الصحة العقلية والنفسية فالعمل يساعد على تثقيف العقل وزيادة مهاراته ويضع أمام الفرد هدفاً دائماً التجدد ويعاونه على التكيف حسب ظروف العمل ويرقى استعداداته التى تجد كل يوم مجالاً لاستغلالها .

أما الفراغ الدائم أو البطالة فانها تسيل بالقوى العقلية الى الخمول والركون السى التراضى .

وقد لوحظ بين كثير من المطمئنين الى حياة رغدة فارغة من العمل أن قواهم العقلية تتراخي باستمرار ويسرع ذلك خاصة بعد الأربعين .

ومن واجباته نحو المجتمع أن يسهم في تربيته والاخلاقي له واطاعة قوانينه والمحافظة على مقدساته وتوجيهه نحو التطوير الطبيعي وعدم الخروج على آدابه وأخلاقه والعن على التضامن مع الآخرين رغبة في رفاهة المجتمع وتحقيق السعادة لأفراده والدفاع عنه ضد أعداءه .

وهذه الواجبات مترابطة يؤدي كل منها الى التأثير في الأخرى ولا يمكن الفصل بينها فهي وحدة متفاعلة تعمل جميعا لمصلحة الشخصية الفردية والاجتماعية وبذلك يزول التعارض بين الفرد والمجتمع وتتحقق مصلحة الجميع .

ولا تقصد التربية الخلقية الى اخضاع علم الأخلاق لعلم النفس أو علم الاجتماع بل تعمل على الاستفادة منها في بناء الشخصية المتكاملة وتوجيهها نحو المثل الأعلى للأخلاق . ولا يتم للانسان بلوغ هذا المستوى الخلقى الا بناء على تربية منظمة تعمل على استغلال امكانياته واستعداداته جميعا وتوجيهها نحو الخير .

وهذه التربية تبدأ منذ الميلاد فتهيء للطفل جوا سعيدا ينمو فيه شاعرا بحبة من حوله وتضامنهم في البذل لتحقيق حياة أرقى له وبذلك تتطبع في نفس الطفل صورة جميلة عن المجتمع ويتجه تلقائيا في مستقبل حياته الى التعاون في سبيل سعادة الجميع .

وهذا الجو السعيد الذي نرجوه للطفل يجب أن يخلو من صنوف الشقاق والتناحر بين أفراد الأسرة وألا يظهر أمام الطفل ضروب الأخلاق الذميمة التي نخشى عليه من التقاطها فالطفل كائن حساس للمثيرات الخارجية يمتن عن طريق التقليد والايحاء والمشاركة الوجدانية كل ما يمر أمام بصره ويحاكيه في غير ادراك .

ومن هنا كان على الوالدين أن يخفيا عن أبنائهما صور الخلاف بينهما • ومن الخطأ الاعتقاد على أن الطفل صغير وأنه لا يفهم شيئا فالواقع أن الطفل عند حصوله على لغة الكلام فهما واستمعلا يستطيع أن يدرك أشياء كثيرة جدا أكثر مما نتصور • وكثيرا ما يعجب الناس لأقوال صدرت عن أبنائهم لم يكونوا يتوقعونها إطلاقا •

ولاشك أن الخدم ورفاق الطفل لهم دور كبير في تكوين اتجاه الطفل الخلقى •

ومن المسلم به أن معالم شخصية الانسان تتحدد في الخمس سنوات الأولى من حياته ومن هنا تتبين أهمية التربية المنزلية • ولاشك أن مهمة هذه التربية صعبة سواء كان الطفل وحيد أو بين أطفال أخرى فان مركز الطفل في الأسرة يؤثر على سلوك المحيطين به نحوه فنتسم معاملته بالتدليل أو القسوة •

فالطفل المدلل ينشأ حائزا لفكرة ضخمة عن نفسه معتقدا أن العالم يجب أن يرتب لخدمته كما كان شأنه في الصغر وأن الجميع يجب أن يراعوا خاطره بصرف النظر عن أى اعتبارات أخرى • وإذا تزوج فهو ينتظر من زوجته أن تعامله معاملة أمه له •

والطفل الذى عانى القسوة ينشأ ساخطا على المجتمع كارها لكل سلطة لأنها تمثل سلطة الذين قسوا عليه نازعا الى الثورة والتمرد على القوانين ان كان اتجاهه العصبى اندفاعيا أو ميلا الى الانسحاب والانطواء ان كان اتجاهه العصبى سلبيا •

وأبأس من هذين الطفلين يكون الطفل الذى لا يتلقى تربية ذات مستويات ثابتة فهي متذبذبة بين القسوة الشديدة والحنان المفرط على الأفعال نفسها التى يقوم بها فلا يستطيع أن يرتكن الى نوع ثابت من القيم أو يعرف خواص محددة لما يجب أن يكون عليه السلوك فينشأ انسانا مفكك القدرات غير مترابط الشخصية مترددا فى كل أموره لا ثقة له بنفسه ولا بالآخرين ولا يستطيع أن يقتحم أى فرصة من فرص النجاح فى الحياة •

ويجب ألا تقوم التربية المنزلية على أساس استغلال غيره بين الأخوة لأن الغيرة في الصغر قد تتحول الى كراهية في الكبر وخاصة بين الذين أخطأهم التوفيق .

واللعب من أهم الوسائل لتدريب شخصية الطفل وتوجيهها نحو التكامل فعن طريق اللعب يعبر الطفل عن ميوله وانفعالاته ويشبع حاجاته ويكون عن نفسه فكرة أقرب الى الصواب وينمي امكانياته واستعداداته ويحمل عن طريق اللعب التخيلي والايهامى على مايعجز عن الحصول عليه في الواقع ولهذا فان تهيئة الفرصة للعب الطفل لا يقل أهمية عن تهيئة فرص التغذية واللبس له .

ومن هنا نصل الى دور المدرسة في التربية الخلقية فانها في الواقع أخطر مهمة تضطلع بها فان لديها من الامكانيات ما يجعلها أقدر على تلبية هذه الحاجة في العصر الحديث . فيجب أن يكون الجو المدرسى والدروس وطرق التدريس ومعاملة الأطفال والنشاط المدرسى كلها قائمة على اعتبار الطفل وديعة غالية بين يدي المدرسة وعليها أن توجه كل جهودها نحو تهيئة الفرص له لينمو نموا متوافقا منسجما .

والصلة بين المدرسة والبيت تعمل الكثير في سبيل ايجاد التوازن والانسجام بين التربييتين واستدراك ما في احدهما من نقص بما في الأخرى من زيادة .

ولا تنتهى التربية الخلقية بانتهاء مهمة البيت والمدرسة بل انها تستمر باستمرار حياة الفرد في المجتمع وعن هذا الطريق يمتد الأفراد كثيرا من الأخلاق ويجد من السلامة له أن يسير في وفاق مع مجتمعه وحبنا لو نفر في المجتمع طائفة من الغيورين على أخلاقه وآدابه فيقوموا بالحفاظ على الفضيلة وهداية الناس في مشاكلهم السلوكية وأن تقوم الدولة عن طريق أجهزة الاعلام التي لديها على توجيه المجتمع اتجاها روحيا وتربية المواطنين تربية تؤدي الى تحصيلهم للخير وفي ذلك تقدم للدولة وللأفراد (١) .

(١) مبادئ الأخلاق ، د . د . ماهر كامل ، عبد المجيد عبد الرحيم ، ط ١ الأولى ،

سنة ١٩٥٨ ، دار الطباعة الحديثة ، ص ١٧٤ : ١٧٩ .



### الفصل الثالث

#### الظاهرة الخلقية والحكم الخلق

المبحث الأول : الظاهرة الخلقية

المبحث الثاني : الحكم الخلق



## المبحث الأول

### الظاهرة الخلقية

قبل أن نتحدث عن الظاهرة الخلقية على وجه الخصوص ينبغي علينا أن نتعرف على الظواهر بوجه عام . فالظاهرة تشمل كل ما يظهر على مسرح هذا الوجود من حقائق تترك بالحس أو بالعقل .

فما يدرك بالحس مثل ظاهرة تمدد المعادن بالحرارة وسيولة الماء واستطراقه وقابلية الخشب للاحتراق وغير ذلك من التغيرات والحقائق المادية .

وما يدرك بالعقل مثل الظواهر النفسية المختلفة التي تحتاج الى أدلة ظاهرية عليها كما نشاهد انتقال بعض الناس من الجبن الى الشجاعة ومن الاكتئاب الى المرح وغير ذلك من الصفات الباطنية .

### أنواع الظواهر:

- ١ - الظاهرة الفيزيائية : كتمدد المعادن واسطراق الماء ونحو ذلك .
- ٢ - الظاهرة الجوية : مثل العواصف والسحب والأمطار وغيرها .
- ٣ - الظاهرة الفلكية : مثل الخسوف والكسوف والجاذبية وغيرها .
- ٤ - الظاهرة الاقتصادية : مثل الاشتراكية والشيوعية وغيرها .
- ٥ - الظاهرة الخلقية : مثل الكرم والشجاعة في البادية والشح والحرس في الحضر وكل نشاط اجتماعي .

### تعريف الظاهرة الخلقية :

الظاهرة الخلقية هي نمط من السلوك الانساني يتعارفه مجتمع من المجتمعات الانسانية ويعتبره قانونا مقدسا يعد مخالفة خارجا على آداب الجماعة .<sup>(١)</sup>

(١) مباحث ونظريات في علم الأخلاق ، أبو بكر ذكري ، دار الفيزيقي ، ط ٢ ، ص ٢٦ .

فمثلا من المتعارف عندنا وفي هذه التصور أن السرقة عمل غير شريف وإن صاحبه عرضة للاحتقار من أهل مجتمعه ولكن التاريخ يروى لنا أن بعض البلاد القديمة كانوا يعدون ذلك من الشجاعة والمهارة كذلك فعل الفاحشة في الإسلام حرام ولكنها عند اليهود حلال طالما تفعل في غير اليهودي •

#### خواص الظاهرة الخلقية :

أولا : تشارك الظاهرة الخلقية جميع الظواهر الاجتماعية في أنها تنشأ عن التفاعلات الاجتماعية بينما الظواهر الأخرى تجري دون تدخل المجتمعات فيها بل تكون ناشئة بفعل التفاعلات الطبيعية •

ثانيا : تمتاز الظاهرة الخلقية على كافة الظواهر الاجتماعية الأخرى كالاقتصادية والثقافية بأن لها في النفوس قدسية خاصة وأنها تمس الضمير وتحركه باللوم والتأنيب العميق عندما يقع عمل الفرد مخالفا لقانونها •

وقد تحدث أحيانا ثورات نفسية بين أفراد المجتمع ضد من يخالف الظاهرة القائمة في المجتمع حتى لدى ملوكا فقدوا عروشهم لخروجهم على الظواهر الخلقية السائدة فـ في مجتمعاتهم كما سبق أن فقد ملك الأفغان أمان الله خان عرشه لأنه تحدى قانون السفير وظهرته السائدة في مجتمعه اذ ذاك وسمح لزوجته بالخروج سافرة أمام الشعب •

ثالثا : بينما نجد التطور للظواهر الاجتماعية الأخرى سهلا وسريعا وغير محفوف بالأخطار نجده في الظاهرة الخلقية على العكس من ذلك بطيئا وعسيرا ومحفوفاً بالأخطار • فمثلا سفور المرأة كان يعتبر في أول هذا القرن في البلاد الإسلامية جريمة خلقية شنيعة فلما جاء الاستعمار واختلط الغربي بالشرقي وتفاعلت التقاليد الغربية والشرقية وامتزجت الثقافة الشرقية بالثقافة الغربية بدأت هذه الظاهرة تنحسر شيئا فشيئا وسط حرب عنيفة بين أنصار الحجاب وأنصار السفور • ومع ذلك وبعد مضي أكثر القرن العشرين

لانزال نرى ظاهرة الحجاب فى معنى البيوت والأسر المتدينة محتفظة بطابعها لاتنقادهم  
أن هذه الظاهرة انما جاءت بها التعاليم الدينية وحث عليها •

رابعا : سلطان الظاهرة الخلقية يرجع الى الضعير الأدبى ويستند اليه بينما ترجع  
الظواهر الاجتماعية الأخرى الى مجرد التقليد والمحاكاة من أجل ذلك كانت الظواهر  
الخلقية أعمق وأقوى جذورا فى الطبيعة الانسانية •

خامسا : الظاهرة الخلقية باستنادها الى الوازع الداخلى الملازم للانسان فى جميع  
الأزمنة والأمكنة تساعد كثيرا على سيادة الأمن وتغنى عن تطبيق القوانين المدنية والجهود  
العنيفة التى تبذل فى سبيل ذلك وذلك بخلاف الظواهر الاجتماعية الأخرى التى يكون الوازع  
فيها مستندا الى القانون وناشئا عنه • ولذا يمكن لكل من يستطيع اغفال القانون والاقناعات  
منه أن يعمل ما يشاء دون خوف أو خجل • • وهذه الخاصية تعتبر من أهم ما يميز  
الظاهرة الخلقية على جميع الظواهر الاجتماعية الأخرى •

سادسا : فى المجتمعات اللادينية تقوم الظاهرة الخلقية أحيانا مقام الدين فينتظم  
السلوك الاجتماعى عليها • ولو أنها كانت مفقودة اذ ذاك لبلغ المجتمع أقصى حدود الفوضى  
والتحلل من أواصر الانسانية ويجب أن يلاحظ أنه حتى مع قيام الظاهرة الخلقية بجانب  
من مهمة الدين فى الهداية الى طريق الخير فانها مع ذلك لاتغنى عن الدين تماما •  
( ١ )

#### تطور الظاهرة الخلقية واختلافها :

يعتقد البعض أن الظاهرة الخلقية جامدة لاتتحول ولا تتعدل لأنها فى الأصل  
نابعة من الدين الذى لا يتطور ولا يتعدل • وهم اذا سمعوا بأن محاولة للتعديل  
الأخلاقي ظنوا ذلك خروجا على تعاليم الدين والأخلاق فى وقت واحد • ولكن التجربة  
والواقع يثبتان عكس ذلك • والحقائق التاريخية تهدينا الى أنه لا يكاد يوجد عمران فى  
التاريخ يتشابهان تماما فى النواحي الخلقية فى مجتمع واحد • ونستطيع أن نستعرض  
المجتمع العربى لنؤكد من هذه الحقيقة •

( ١ ) مباحث ونظريات فى علم الأخلاق ، أبوبكر ذكري ، عبد العزيز أحمد ، ص ٢٦ : ٢٨ .

كان المجتمع الجاهلى العربى على جانب من الفضائل العالية كالشجاعة والكرم والحفاظ على الجوار ونحو ذلك ولكن وجد أيضا فى هذا المجتمع بجانب هذه الفضائل كثير من الانحرافات كؤاد البنات خشية العار وقتل الأولاد خشية الفقر والاعتداء على من ينازعونهم المراعى ومصادر المياه وكان القانون المطبق هو قانون الغاب وهو الحق للأقوى دائما . فلما جاء الاسلام تناول هذه الظواهر الخلقية المنحرفة بالتعديل والتهديب حتى تغيرت هذه الظواهر وحلت محلها ظواهر أخرى كالعدل والرحمة والاخاء والتعاون وكان الفضل فى ذلك التطور الخلقى الباهر للظاهرة الاقتصادية حيث أحل الاشتراكية محل الرأسمالية الغالبة فى الأنانية والسلب والنهب بلا قاعدة ولا قانون .

أما عندما توطد سلطان بنى أمية فأصبحوا فى نظر أنفسهم أصحاب الملك والسلطان والقوة والنفوذ بدأ المجتمع يأخذ فى طريق ظاهرة اقتصادية وخلقية مغايرة لما كان مألوفاً فى الاسلام .

فقد شاع الترف والرفاهية كما شاعت ظاهرة الحرص على الدنيا والتوسع فى المقتنيات وإدخار المال وبناء القصور واقتناء العبيد وغير ذلك مما يدل على تناسى الروح الاسلامى فى الصدر الأول والانسحاق وراء زخارف الدنيا ومفاتها .

لكن لما كانت الظاهرة الخلقية تستعصى على التغير الكلى السريع وتشبت بوجودها لأنها تعتمد فى أهم عناصرها على تعاليم الدين فمن الحق أن نقول أن المجتمع لم يكن قد تحول برمته الى هذه الظاهرة الجديدة . أما الذى حدث بالضبط فهو أن المجتمع قد حدث فيه ما يسمى بالانشطار الاجتماعى اذ كان قد انشطر الى شطرين احدهما الفريق الأول الذى تكلمنا عنه والفريق الآخر الذىبقى متشبثاً بالتعاليم الاسلامية الصحيحة وأخلاق القرآن والسنة فشاع الزهد والدعوة اليه ومقاومة الظاهرة الخلقية الجديدة التى جاء بها العهد الأموى . وكان العبء فى هذه المقاومة ملقى على أكتاف بقية قليلة من مالىة الصحابة ومن تبعهم من علماء التابعين وأئمتهم .

وبذا أصبح المجتمع العربي الاسلامى يسير فى حياته على ظاهرتين متناقضتين —  
الظواهر الخلقية • ظاهرة الترف والمجون وظاهرة النقش والتدين والحرص على تعاليم  
السلف الصالح •

ولما شاء الله أن ينفرض الجيل الصالح من النجابة والتابعين وبتباعد الزمن بين  
حاضر الناس وبين ماضى الاسلام تناسى الناس أو كادوا يتناسون تعاليم الدين والأخلاق  
وبدءوا يتحدثون حول الظاهرة الأخرى حتى أصبحنا لانرى فى العصر العباسى الذى جاء  
فيما بعد الا ظاهرة الترف والمجون والرفاهية ، ومضى الناس على هذه الظاهرة التى أو دت  
بالمجتمع الاسلامى •

وحينما جاء الاستعمار غازيا وجد الطريق مهده لاستعمار البلاد والعباد وبهذا نرى  
أن الظاهرة الخلقية يمكن أن تختلف من مجتمع الى آخر ومن عصر الى آخر (١)

---

(١) مباحث ونظريات فى علم الأخلاق ، أبو بكر ذكرى ، عبد العزيز أحمد ، طابعة

## المبحث الثانى

### الحكم الخلقة

(١)

تعريفه : هو تقدير الأعمال الانسانية بمقاييس خلقى من المقاييس الخلقية

موضوعه : ان الحكم الأخلاقى أى الحكم بالخيرية والشرية لا يصدر الا على الأعمال

الارادية الاختيارية • فما لم توجد ارادة لا يصدر حكم خلقى •

فليست اذن جميع الأعمال تصلح لى تكون موضوعا للحكم عليها بالخيرية أو

الشرية •

فعمل الطبيعة وثورتها لا يمح أن يكون موضوعا للحكم الخلقى كالزلازل والبراكين

كذلك أعمال الحيوان الأعجم تخرج عن موضوع الحكم الخلقى •

واذا كان الحكم الخلقى ينصب على الأعمال الاختيارية اذن يستثنى منه عمل المكروه

والنائم والصبى اللاميز والمجنون والسكران وأيضا الأعمال الغير ارادية (٢) •

واذا كان الحكم الخلقى يصدر على الأعمال الاختيارية فعلى أى أساس يصدر هذا

الحكم ؟

هل يصدر الحكم على هذا العمل باعتبار النتائج التى أنتجها أو باعتبار نية العامل

فى عمله ؟

فكثير ما يريد انسان عملا يقصد به خيرا فيستتب العمل من النتائج السيئة مالم

يكن فى حسبانته كرجال حكومة أعلنوا الحرب على أمة أخرى لأنهم رأوا خير أمتهم فى ذلك

فقد قدروا قوتهم بأكثر من قوة عدوهم ولكن خاب أطمعهم فهزموا • فهل يحكم على اعلان الحرب

بأنه خير نظيرا الى النية والفرض والقصد الذى قامت عليه الحرب هو خير الأمة وتحصيل

(١) مباحث ونظريات فى علم الأخلاق ، أبوبكر ذكرى ، عبد العزيز أحمد ، ط رابعة ، ص ١٥٨ بتصرف •

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٨ •



السعادة لها أو أنه شر نظرا لما نتج عنه من الآلام ؟ يرى جمهور الأخلاقيين أن الحكم الخلقى يصدر على العمل والعامل باعتبار قصد العامل ونيتته دون اعتبار النتائج العمل في ذاتها . فالنية والقصد والارادة الطيبة هي وحدها مناط الحكم الأخلاقي متى تحسنت حكما بخيرية العمل . ومتى ساءت حكما بشريته ولا اعتبار لنتائج العمل في ذاتها .

هذه القاعدة حق الى حد كبير ولكن يجب أن لا نعتد في حكمنا على النية والغرض دون التحرر عن صدق هذه النية .

وهناك على الضد من هذا المذهب المتسامح يوجد مذهب آخر يجعل مناط الحكم الخلقى نفس العمل فاذا حسن وحسنت نتائجه كان خيرا واذا ساء وساءت نتائجه كان شرا . لأن النيات والمقاصد أمر مغيب لا نستطيع جعله مناط الحكم .

وهذا الرأي هو رأى بسكال الفرنسي وهو رأى يعد ظالما متشددا أكثر مما يجب . نعم ان هناك الفاظا وضعت للدلالة على نتائج العمل كلفظ نافع ولفظ ضار ، فانه يصح الحكم على نتائج الأعمال بأنها نافعة أو ضارة أما الحكم بالخيرية أو الشرية فانما يكون على النية في العمل . وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم " انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى " (١)

اذن يكون من الواضح أن بعض الأعمال قد يكون خيرا ضارا كاعلان الحرب في المثال المتقدم ونعني بخير أن غرض فاعله حسن ونعني بضر أي أن نتائجه وخيمة والعكس صحيح .

والانسان لا يلام على عمل عمله يريد منه الخير مهما ساءت نتائجه وانما يلام اذا كان في استطاعته أن يرى النتائج اذا دقق في البحث وأمعن النظر ثم لم يفعل فموضع اللوم هو التقصير عند اختيار العمل .

فالامة التي أعلنت الحرب ففشلت لا تلام على اعلانها الحرب لأنها رأتها خيرا وانما تلام اذا لم تكن قد بحثت المسألة من جميع وجوها بحثا وافيا وكان في استطاعتها أن ترى النتائج ثم قصرت في البحث . (٢)

(١) سوف يكتب فيها تخريج الحديث .

(٢) " رجع السابق ، بتصريف ص ١٥٩ .



## الفصل الرابع

### المسئولية والجـزاء

المبحث الأول : المسئولية

المبحث الثاني : الجـزاء



## المبحث الأول

### المسؤولية

- معناها العام هي كون الانسان أهلا لسؤاله عن نتائج عمله .
- فالحارس معرض لسؤاله عن كل ما يتصل بعمله وما قد ينتج عنه من تقصير واهمال ، والمدرس مسئول عن عمله والطبيب مسئول وكل راع مسئول عن رعيته .

وموضوع المسؤولية هو واحد من أهم الموضوعات التي يشتمل عليها علم الأخلاق وأشدها أثرا في تشكيل كيان الانسان وكاله الذاتى .

وقد عرضنا فيما سبق للكشف عن مناط المسؤولية الأخلاقية عندما قسمنا أفعال الانسان الى ارادية ولا ارادية وشبه ارادية وقررنا رأى علماء الأخلاق فى هذا الصدد وهو أن الأعمال التى تقع تحت هذه المسؤولية انما هى الأعمال الارادية والشبه ارادية .

ولكننا هنا سنعرض للمسؤولية من وجه آخر يختلف كل الاختلاف عما سبق ذلك أن اهتمامنا سينصرف الى موضوع المسؤولية من حيث الكشف عن حقيقتها وما يتعلق بذلك من أنواعها ومصادرها التى من أهمها " الضمير " .

فالمسؤولية فى اطارها العام ومعناها المجل هي : حالة للمرء يكون فيها صالحا للدخاخذة على أعماله ملزما بتبعاتها المختلفة .

وتنقسم الى عدة أنواع :

- ١ - المسؤولية الدينية : وهى التزام المرء بأوامر الدين ونواهيه وقبوله لما يترتب على مخالفتها بحيث يكون ملتزما بما ينتج عن هذه المخالفة من جزاءات محددة وعقوبات مقررّة . قال تعالى " وأفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا (١) .

---

(١) الاسراء ، آية ٣٤ .

٢ - المسؤولية الاجتماعية : وهى التزام المرء بقوانين المجتمع الذى يعيش فيه ويتقاليده ونظمه وتقبله لما ينتج عن مخالفته لها من تقويات شرعها المجتمع للخارجيين على نظمته أو تقاليده .

٣ - المسؤولية الأخلاقية : هى حالة للمرء يكون فيها أهلا للحكم عليه أو على عمله بالخيرية أو الشرية . ومصدرها القوة الفطرية المودعة فى الانسان والتي تحاسبه أعماله ويلتزم الانسان بتحمل أعمال نفسه أمامها .  
(١) وهذا النوع الأخير من المسؤولية هو موضع عناية المؤرخين لعلم الأخلاق .

ومن أهم الأحاديث النبوية الشريفة التى تعبر عن هذه الأنواع الثلاثة مجتمعة هو حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته - الامام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيته والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته " . (٢)  
وقد وضع الرسول صلى الله عليه وسلم سمات المسؤولية فى الاسلام فبين أنها فردية فكل انسان مسئول عن عمله .

قال تعالى : " وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا " . (٣)

#### عناصر المسؤولية :

لا تتوفر المسؤولية فى شخص الا بأربعة عناصر :

(١) معرفة العمل الذى يعمله . فالنائم والمجنون والسكران الذى لا يميز وأمثالهـم

(١) العقيدة والأخلاق ، د. بيمار ، ص ٢١٨ ، ط ثانية .

(٢) سوف يكتب فيها تخريج الحديث .

(٣) سورة الاسراء ، آية ١٤-١٥ .

كل أولئك لامتسولية عليهم فى العمل الذى يرتكبونه وهم فاقدوا الشعور • ولكنهم يؤخذون على العمل الذى كان سببا فى ضياغ شعورهم اذا كان قد وقع منهم بمحن اختيارهم كما يؤخذون على ترك الاحتياط حال شعورهم لأن الاحتياط كان يكفى لتجنب النتائج السيئة عند فقدهم الشعور •

( ٢ ) المعرفة المتبصرة بعواقب الأمور بعد وزنها وادراك نتائجها قبل الاقدام عليها •

ومن هنا كان الحيوان غير مسئول • فالحصان الذى يرى مروجاً خضراء تستهويه فيعدو نحوها فيلقى براكبه لا يعتبر مسئولا عن سقطه راكبه مهما كانت عقابها لأنه وان كان متصورا العدو الذى يوصله الى المروج فانه لم يكن فى الحق مستطيعا أن يتبصر عاقبة الأمر وأن يوازن بين العدو وعدمه ليختار أحدهما •

( ٣ ) الحرية التى بها يختار المرء عمله ويريد تعد شرطا ضروريا لتحقيق المسئولية فمتى

كان المرء شاعرا من نفسه بأنه لا يستطيع أن يعمل العمل أو أن يتركه فقد صار غير مسئول وأن تحقق فيه العنصران الأولان لأن معرفته وادراك عواقبه لا يكفيان مادام عنصر الحرية مفقودا •

( ٤ ) الشعور بشريعة خلقية وقانون أدبى تخضع له النفس، هذا متمم للثلاثة السابقة •

لأننا لو فرضنا وجود انسان يعيش بمعزل عن الجمعية الانسانية ولم يعرف شيئا من قوانين الأخلاق فانه لا يعتبر أهلا للمسئولية مهما كان مدركا لعمله والنتائج التى تنجم عنه ومهما كان حر الاختيار لأن مثل هذا الشخصى تستوى عنده الأعمال خيرا وشرا فتكون معرفته وتمييزه وحرية أمورا لا قيمة لها من الناحية الأدبية أن يصنع ما يشاء كما يقول العوام " من غير مؤاخذه " أما من تعرض له العزلة بعد حياة الجماعة فانه مسئول

" ونضيف لما تقدم من عناصر للمسئولية عنصر النية والقصد للفعل فهو العنصر

الحقيقى الذى هو أساس المسئولية الخلقية والسبب هو أن الفعل الانسانى الحقيقى الذى يصدر عن الانسان مباشرة ويمكن أن يراه بوضوح ويسيطر عليه هو ما يصدر عن نيته

وينبعث من ارادته العاقلة فأما ما وراء ذلك فانه يدخل في ميدان خارج عن الدائرة التي يعرفها الانسان معرفة صحيحة ويستطيع أن يسيطر عليها سيطرة فعلية .

اذن فالنية هي المقياس الحقيقي لخيرية الفعل . وقد قال عليه الصلاة والسلام :  
" إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى " . (١) (٢)

وكما أن مصدر النوع الأول من المسؤولية هو الدين بما جاء به من مبادئ وما سن من أحكام وشرائع وكما أن مصدر النوع الثاني هو المجتمع بما اتفق عليه من نظم وتقاليد فكذلك مصدر النوع الأخير من المسؤولية وهو المسؤولية الأخلاقية هو ما ذكرناه من القوة الفطرية " الضمير " الذي يكون له من السلطان ما يجعل منه مصدرا للمسؤولية ووقيا على الفعل ثم مثيرا أو معاقبا تبعا لما يتصف به من خير أو شر حسن أو قبيح خطأ أو صواب .

فما هو اذن ذلك الضمير ؟

الضمير :

هو ذلك الاحساس الداخلي للانسان الموجه لكل حركاته وسكاته الناقد لكل تصرفاته والمحاسب على جميع أعماله .

يقول الدكتور عبد الهادي أبو ريده : (٣)

الضمير هو الحاكم الذي نطقه والرقيب المشرف على بواعثنا في داخل أنفسنا والحارس الساهر على المحافظة على المبادئ التي ينبغي علينا أن نتقبل لها وهو الحاكم الذي يخالفه من يخرجون على المبادئ الخلقية المتبعة وبذلك يفسدون أنفسهم

(١) سوف يكتب فيها التخريج الحديث .

(٢) مباحث ونظريات في علم الأخلاق ، ص ١٦٥ ، ط رابعة .

(٣) مبادئ الفلسفة والأخلاق ، د.د. عبد الهادي أبو ريده ، ط ثانية ، ص ٢٠٤ :



خارج دائرة الأخلاق • ومن الواضح أيضا أن الضمير يباشر وظيفته على أساس ادراكه قيمة الأفعال وإصدار حكمه تبعا لذلك دون مبالاة بالعواطف والمصالح والأهواء •

ان هذا الذى نسميه " الضمير " شىء يتميز به الانسان وهو من عجائب الطبيعة البشرية • فاذا كان الانسان مثلا يفكر ويعى أنه يفكر ويريد ويدرك أنه يريد فانه يتصرف ويعى ذلك وفى الوقت نفسه يجعل من ذاته على ذاته حاكما ووقيا وهذا وحده كاف فى اثبات الاختيار واقامة الدليل على الزام خلقى لاطمئنه على الانسان سلطنة خارجة عن ذاته لأنه حتى وهو بعيد عن كل رقابة انسانية وعن امكان المؤاخذه على مايفعل يمثل لحكم ضميره ويسعده ذلك سعادة كبرى •

ففى كثير من الاوقات يعرض للانسان أمر من الأمور فتحدثه نفسه بأن يقوم حياله بتصرف معين وأن يحدث فعلا معينا • هذا الفعل الذى سيقوم به قد يكون موافقا للخير أو الشر وحينئذ يقلب ذهنه بين وجوه الفعل والترك مفكرا فيما قد يترتب عليه من وجوه الخير أو الشر ثم يقضى برأى يبرمه ألا وهو القيام بالفعل أو عدم القيام به •

الا أنه بعد وقوع أحد الأمرين فعلا كان أو تركا وبعد تحقق ما يترتب على أحدهما من خير أو شر يجد الانسان من نفسه نزوعا الى الاثابة على خيرية الفعل أن أشر خيرا والعقاب على شربه أن أشر شرا ذلك ما يسمى باطمئنان الضمير فى الحالة الأولى وبثأنيب الضمير فى الحالة الثانية •

• ويكون مصدر هذا النزوع هو قوة كامنة في ذات الإنسان .

اذن فكل فعل من أفعال الإنسان وكل تصرف له لابد أن يمر بمراحل ثلاثة:

• الأول : دور تشريع الفعل .

• الثاني : دور تنفيذ هذه .

• الثالث : دور المحاسبة بالاثابة أو العقاب عليه .

اذن فداخل نفس الإنسان توجد ثلاث سلطات هي :

• ( ١ ) السلطة التشريعية .

• ( ٢ ) السلطة التنفيذية .

• ( ٣ ) السلطة القضائية .

واذا أمعن الإنسان النظر في النفس البشرية لوجد أن هذه السلطات الثلاث لا تتفصل بعضها عن بعض إنما هي جميعا ترجع لقوة واحدة لها كل هذه السلطات معها تعددت مراحلها . تلك القوة الكامنة في النفس الإنسانية هي الذي أطلق عليها علماء الأخلاق اسم " الضمير " . فالضمير اذن قوة في النفس تجمع هذه السلطات الثلاث . ( ١ )

ويوضح الأستاذ منصور على رجب ذلك بمثال :

فيقول: قد يستفزك انسان مثلا بكلمة تخرجك عن وعيك فتضربه وبعد أن تثوب السى رشك وتجلس بفردك تسمع بناخلك وفي أعماقك صوتا يؤنبك على فعلك هذا ويسألك عن الرحمة والحلم ويبين لك أنه لا فرق بينك وبين الجاهل وقد تسمع هذا التسوت مرة أخرى فيقول لك أنه يستحق هذا الضرب وأن ما فعلته به كان صوابا وصحيحا .

( ١ ) بتصرف من العقيدة والأخلاق ، د . بيبصار ، ص ٢١٨ : ٢٢٠ ، ط الثانية .

اذن قد يتهك هذا الصوت ثم يعود فيبرئك من هذه التهمة وفى النهاية يصدر

الحكم اما لك واما عليك .

هذا الصوت الذى تسمعه فى داخل نفسك اذا نظرت اليه من ناحية أنه يميز  
الخبث من الطيب ويفرق بين الصواب والخطأ ، والحق والباطل . اذا نظرت اليه  
من هذه الناحية فهو سلطة تشريعية .

واذا نظرت اليه من ناحية أنه يحكم بالحق فهو من هذه الناحية سلطة قضائية .  
واذا نظرت اليه من ناحية أنه يسرك أو يؤلئك : يسرك بنتيجة الفعل الحسن ويؤلئك  
بنتيجة الفعل الباطل اذا نظرت اليه من هذه الناحية فهو سلطة تنفيذية . فهذا  
الصوت الذى تسمعه فى نفسك كما فى داخلك هو الضمير .

اذن فالضمير هو مركز التوجيه فى الانسان وهو محكمة كبرى ترجع اليها كل  
أعمال الانسان الخارجية . هذه المحكمة يشعر بها كل انسان فى نفسه عالمًا كان أم  
جاهلًا ذكيًا أم غبيا فهو من الأمور التى لا تحتاج الى برهان وهو أول حاكم وأول قاضى  
يقضى عليك وينفذ حكمه عليك . (١)

#### هل الضمير فطرى أم مكتسب ؟

اذا كان الضمير محكمة داخل الانسان تنتظر فى أعماله الخارجية فهل ولد هذا  
الضمير كقوة فطرية تستطيع أن تميز بين الحق والباطل وتفرق بين الخطأ والصواب  
كما وجدت حاسة العين التى تميز بين الألوان وحاسة السمع التى تفرق بين الأصوات  
والأنغام أم هو قوة مكتسبة على معنى أنه ثمرة تخلقها التربية ؟

اختلف العلماء فى هذا الموضوع فالبعض منهم ذهب الى أن الضمير قوة فطرية  
أودعها الله تعالى فى الانسان وركبها فى طبيعته فولد بها والبعض ذهب الى أنها

---

(١) تأملات فى فلسفة الأخلاق ، ص ٢٢٨ ، ط ٣ .

قوة مكتسبة حيث أنها مستوردة من خارج ذات الانسان بالمران والممارسة وحسن التربية

واعتياد الفضائل وحديد الصفات •

فأصحاب المذهب الأول وأشهرهم الفيلسوف الأخلاقي الانجليزى شافيتسرى وهتشون يعرفون

الضمير بأنه قوة فطرية غريزية موضوعها الخير —

والشر هذه القوة موجودة فى جميع الناس على قدر مشترك وان اختلفت فيهم قوة وضعفا

فكما منح الانسان قوة البصر والسمع لتمييز المبصرات والمسموعات كذلك منح الله تعالى

حاسة أخلاقية فطرية تميز بين الخير والشر وتحضه على ما تراه حسنا بقدر ما تنهاه

عن ما تراه قبيحا من الأفعال ومن هنا يرى جان جاك روسو أن ابن آدم مزود بمثل

تلك الغريزة الفطرية كما هو الشأن فى الحيوان وأنه بهذه الغريزة الالهية يفرق بين

الخير والشر كما تفرق العين بين الأبيض والأسود هذا الضمير يحمله الانسان منذ

ولادته وهو ثقة لا يخطئ وهو خير دائما وهو الوسيلة الوحيدة للهداية فى الطبيعة

الانسانية •

اما المذهب الثانى فعلى رأس القائلين به استيورت مل حيث ينكر فطرية الضمير

ويقرر كسبته يعنى أنه قوة من قوى الشعور اكتسبها الانسان واستفادها من المران

والتجربة وعلى نحو من التدرج • ومن أجل ذلك كان الضمير — فى نظر أصحاب هذا

المذهب — متفاوتا بتفاوت الأفراد والجماعات مختلفا فى أمة أو بيئة عنقى أمة أو بيئة

أخرى •

ان المرء فى نظرهم وليد مجتمعه • وكل مجتمع له عرفه المعين وتقاليد

المرعية ونظمه المتفق عليها • فوجود الانسان فى جماعة معينة يجعله يكتسب هذا

الشعور بالتجربة والمران عبر تاريخ الانسان مع هذه الجماعة •

ويقول الأستاذ منصور على رجب :

ويستند هذا رأى الى أن الناس فى كل العصور وفى جميع الأقطار يستشيرون

ضمائرهم ولكنها لا تسمعهم جميعا لحنا واحدا إذ أن ما يظهر عدلا وخيرا لبعنى النفوس

فى عصر معين لا يظهر عدلا ولا خيرا لبعنى النفوس الأخرى التى عاشت فى عصر آخر

( ١ ) العقيدة والأخلاق ، د. د. بيمار ، ص ٢٢٠ ، ط ٢ بتصرف •

أو في مكان آخر فلو كان الضمير معصوما بطبيعته لأرشد الناس جميعا الى طريق الهدى  
(١) وجنبهم طريق الضلال ودليلهم على ذلك أنه كان الضمير العربي فيما مضى يبيع لـه  
أن يقتل ابنته وفي ذلك يقول القرآن الكريم : " قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاسا  
بغير علم " (٢)

وقال تعالى " ولا تقتلوا أولادكم خشية اطلاق نحن نرزقهم وإياكم ان قتلهم  
كان خطئا كبيرا " (٣)

فقد أقر الضمير العربي في الجاهلية وأد البنات بما اعتبره الاسلام بعد مجيئه  
من أقيح الجرائم .

ونحن نؤيد الرأي الأول وهو أن الضمير قوة فطرية وليس قوة مكتسبة وأن الضمير  
ليس معصوم عن الخطأ وإذا كان الضمير العربي قد وقع في ذلك فذلك هنه من هناته .  
وإذا كان الضمير كسبيا لوقع اختلاف بين الناس في تقييم الفضائل والردائل  
باختلاف العصور والأمم بل وباختلاف البيئات كما تختلف تقاليدهم وقوانينهم وهذا  
مخالف للواقع .

فاننا نرى الناس متفقين على المبادئ الأخلاقية في مختلف الأزمان مهما كان  
من بعض التفاوت في مسائل جزئية لا تؤثر على أصول الأخلاق وقواعد السلوك .

اذن فالضمير ليس معصوم من الخطأ لقوله تعالى : " من اهتدى فانما يهتدى  
لنفسه ومن ضل فانما ضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى " (٤)

(١) تأملات في فلسفة الأخلاق ، منصور على رجب ، ص ٢٣٢ : ٢٣٣ ، ط الثالثة .

(٢) الأنعام ، آية ١٤٠ .

(٣) الاسراء ، آية ٣١ .

(٤) الاسراء ، آية ١٥ .

(١)

وقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم".

وبذلك نتحقق من أن الضمير قوة فطرية في النفس البشرية ويؤكد ذلك حديث

الرسول صلى الله عليه وسلم فلقد ورد أن وابصة بن معبد ذهب إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم فقال له صلوات الله عليه. جثت تسأل عن البر فقال وابصة: نعم يا رسول الله

فقال: "البر ما أطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والاثم ما حاك في النفس وتردد في

الصدر وأن أفتاك الناس وأفتوك" أفلمست ترى في هذا ما يؤكد أن الضمير قوة فطرية؟<sup>(٢)</sup>

"ولكن نضيف إلى ذلك رأى الدكتور بيمار في ذلك حيث يقول: والرأى المختار

هو القول بأن الضمير قوة فطرية باعتبار جرثومتها وأصلها وإن كان للتربية العقلية والأدبية

دخلا في نموها وتحقيق كمالها فهو قابل للتأثر بعوامل التربية فهل يمكن تنمية الضمير

وتربيته، يقول الأستاذ منصور: (٣)

وخير ما يربى عليه الضمير إنما هو الاعتدال وهذا ما يشير إليه الإسلام حيث قال

تعالى "وكذلك جعلناكم أمة وسطا". (٤)

#### درجات الضمير :

وإذا كنا نميل إلى الرأى الذى يقول بفطرية الضمير فهل للضمير درجات مختلفة ؟

يتفاوت الضمير بين مراتب ثلاث تميزها أساليب الناس في هذه الحياة .

١- ضمير يوجه صاحبه توجيهًا خاطئًا على معنى أن صاحبه لاتراه يعيش إلا في

طباع غليظة حتى تلاشى مركز التوجيه فيه أو كاد فهو لا يأمر إلا بسوء ولا يوجه إلا إلى

سوء يعتدى على أمن الناس وحرياتهم وأعراضهم وينشر السموم بينهم ويخون وطنه مادام

ذلك يعود عليه بالنفع الشخصي . وصاحب هذا الضمير هو صاحب النفس الأمارة السى

تأمر باللذات والشهوات الحسية وهى التى يشير إليها القرآن الكريم بقوله: "إن النفس

لأمر بالسوء إلا ما رحم ربي". (٥)

وصاحب هذا الضمير هو ذلك الذى غلبت شهوته عقله ومن يحل إلى هذه الدرجة

تكون البهائم خيرا منه بنى القرآن الكريم يقول: "إن شر الدواب عند الله الصم البكم

الذين لا يعقلون". (٦)

(١) سورة المائدة، آية ١٠٥ .

(٢) مسلم ك البرو والصلة رقم ١٥ ، أحمد بن حنبل ج٤، ص١٨٢ ، والدرامى فى سننه

ج٢، ص٣٢٢ .

(٣) كتاب تأملات فى فلسفة الأخلاق ، منصور على رجب، ص٢٤٢ .

(٤) سورة البقرة ، آية ١٤٣ (٥) سورة يوسف ، آية ٥٣ .

(٦) سورة الأنفال ، آية ٢٢ .

يقول الغزالي " ان الله تعالى خلق الخلق على ثلاثة صُروب  
خلق الملائكة وركب فيهم العقل ولم يركب فيهم الشهوة وخلق البهائم وركب فيها  
الشهوة ولم يركب فيها العقل وخلق ابن آدم وركب فيه العقل والشهوة فمن غلبت  
شهوته عقله فالبهائم خير منه ومن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة •

ولخطر مثل هذا الضمير على النظام الاجتماعي جعل الاسلام جهاد النفس  
التي اختل فيها مركز التوجيه جعله هو الجهاد الأكبر •

فالجهاد في نظر الاسلام على ثلاثة أصناف :

جهاد في الحرب مع اعداء الحق وهو جهاد الظاهر كالذي في قوله تعالى : " يجاهدون  
في سبيل الله " (١) وجهاد مع أصحاب الباطل بالعلم والحجة كقوله تعالى : " وجادلهم  
بالتي هي أحسن " (٢)

وجهاد مع النفس الأمارة بالسوء كالذي في قوله تعالى : " والذين جاهدوا  
فينا لنهديهم سبلنا " (٣) ، وقوله صلّى الله عليه وسلم " أفضل الجهاد جهاد  
النفس " •

وكان صحابة رسول الله اذا رجعوا من الحرب يقولون : " رجعنا من الجهاد  
الأصغر الى الجهاد الأكبر جهاد النفس " •

وانما سموا الجهاد مع النفس أكبر لأن الجهاد معها أديم وجهاد الحرب في  
سبيل الحق يكون في وقت دون وقت • ولأن المحارب في سبيل الحق يرى العدو •  
والجهاد مع عدو يراه الانسان أسيل من الجهاد مع عدو لا يراه • ولأنك اذا قتلتك عدو الحق  
فلك الشهادة وان قتلتك نفسك وقعت في عقوبة الرحمن • ولذلك يقول الكتاب العزيز :  
" يلي من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " (٤) •

(١) سورة المائدة ، آية ٥٤ (٢) سورة النحل ، آية ١٢٥  
(٣) سورة العنكبوت ، آية ٦٩ (٤) سورة البقرة ، آية ٨١

لكن نتساءل ونقول هل هذا الضمير يخلق مع الانسان على هذا النحو أو يعرض له الفساد بعد ذلك على معنى أن ما يحيط بالانسان هو الذى يؤثر عليه بالفساد ؟

ان ما يحيط بالفرد من عدل وظلم وغير عدل وظلم هو الذى يؤثر فى الانسان ويكونه قال تعالى : " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلك تشكرون " . ( ١ )

ولذلك يحرم الاسلام على الاهتمام بالنشىء الذى يشق طريقه الى الحياة ولذلك أمر بأن يحاط بكل ما من شأنه أن يجعله انسانا فأحاطه بسياج من نظام فيه أقصى ما يمكن أن يكون لصالح الفرد والجماعة حيث أمر بحسن الخلق والسلوك والصدق وسلامة القلب والعدل والاتحاد والتعاون وآداء الأمانة والبعد عن الخيانة وغيرها مما لو تمسك به مجتمع لساد . ويوم كان الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه يشرفون على تنفيذ قواعد هذا النظام كان العالم الاسلامى عالما اخلاقيا .

فالاخلاق فى تنفيذ المبادئ الانسانية هو الذى يوجد الضمير الحى الذى يوجه الانسان نحو الخير الأعلى ويجعل منه مواطنا صالحا يستطيع ان يسيطر على تلك النفس الأمارة بالسوء ويسير على ضوء الأخلاق والدين وصدق الرسول الكريم حيث يقول " اثنان اذا صلحا صلحت الأمة واذا فسا فسدت الأمة العلماء والأمراء " . ( ٢ )

اذن فالبيئة بمعناها العامهى التى تؤثر فى مركز التوجيه فى الانسان وهو الضمير .  
٢ - يقابل هذا الضمير " الأسفل " الضمير " الأعلى " وهذا الضمير لا يوجه صاحبه الا الى ما يرى هو أنه خير وهو ضمير الأنبياء والرسل وضمير كبار المصلحين الذين لا يثنىهم تهديد أو وعيد كما يرون تقريره لصالح الانسانية مهما نالهم فى سبيل ذلك

---

( ١ ) سورة النحل ، آية ٧٨ .

( ٢ )



من تعذيب أو تنريد . وخير مثال لهذا الضمير هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم انظر اليه يقول لعنه وقد تألب العرب عليه : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله .

١ - الدرجة الثالثة من درجات الضمير درجة وسط بين الأسفل والأعلى وهي درجة الذين يرون الخير في طاعة القانون أيا كان يطلب أن يعيش آمناً سالماً . (١)

---

(١) تأملات في فلسفة الأخلاق ، منصور علي رجب ، ص ٢٥٧ ، ط الثالثة .

## المبحث الثانى

### الجزاء

لقد تأكد لدينا أن الحديث عن المسؤولية يتبعه حتما الحديث عن الجزاء وذلك بعد أن اتضح لنا أن توفر المسؤولية فى الشخص يجعله أهلا للحكم على عمله بالخير أو الشر .  
معناه : تكلمنا عن المسؤولين واتضح لنا أن توفر المسؤولية فى الشخص يجعله أهلا للحكم على عمله بالخير أو الشر .

وهنا نقرر من جديد أنه لا معنى لهذه المسؤولية ما لم يترتب عليها مشجعة أو عقوبة رادعة

بماذا يقابل امرؤ طال عمره وحسن عمله الا أن يثاب بسعادة فى هذه الدنيا يستشعرها عن رضا ضميره وطمأنينة نفسه وباحترام الناس وتقديرهم وفى الحياة الأخرى بجزاء المحسنين ؟ وبماذا يقابل مسيء شرير آثر الشر واستحب العمى على الهدى وكانت حياته لعنة اثر لعنة واجراما اثر اجراما ؟

أليس العدل أن يقابل فى الدنيا بعذاب الضمير ومقت الناس واحتقارهم وسلطان القانون وفى الآخرة بما أعد للمجرمين من أغلال وأنكال وعذاب أليم ؟

هذا هو الجزاء الذى يترتب على المسؤولية وكل الشريعة لابد لها من وازع يكفل نفاذ قوانينها والا كانت عقوبة عديمة الأثر .

فالشرائع الوضعية تسن العقوبات الرادعة لمن يتجاوزون حدودها . فالسجون والجلد والنفى والقتل لا تزال وازعا يرهبه من لا يرهب سلطة الضمير وسلطان الدين . والشرائع السماوية قد أوضحت جزاء من يطيعون سلطانها وجزاء من يعصونه . وشريعة الأخلاق وقانونها الذى نشعر به فى أعماقنا من ورائها سلطة الضمير الذى يثبينا بالرضا عن عمل الفضيلة ويعاقبنا بالندامة والألم عند مفارقة الرذيلة .

تلك المظاهر من الثواب أو العقاب على تنوعها هي ما نسميه بالجـزاء .  
وما تقدم يمكن تعريف الجـزاء بأنه " مثوبة على عمل الخير أو عقوبة على عمل الشر " .  
وقد استعملت كلمة الجـزاء في كلا المعنيين :  
الخير والشر . قال تعالى : " وجـزاهم بما صبروا جنة وحريرا " ( ١ )  
وقال تعالى " لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا الا حميما ومغسقا جزاء " ( ٢ ) ( ٣ )

#### مشروعية الجـزاء :

لو أن الناس خلقوا ملائكة محررين من سلطان الشهوات وأحكام الغرائز لما كان  
ثم حاجة الى الجـزاء ولكن الانسان خلق ضعيفا مبتلى بالخير والشر ففته . وعلى هذه  
الفتنة يقوم نظام الدنيا دار الابتلاء ومن هنا كانت مشروعية الجـزاء .

فما أكثر المتناقضات اذ تتجلى أعمال الانسانية عن خير وشر وايان وكفر وعدل  
وظلم وطاعة وعصيان الى آخره من المتناقضات التي لا حصر لها . واذا كان جانب الشر  
منها قد دعا المشائمين الى اليأس والقنوط فقد دعا جانب الخير منها أولى العزم  
من الرسل ومحبي الخير في كل عصر وزمان الى الجد في نصرة الخير وجنده في حرب  
الباطل وحزبه غير يائسين ولا قانطين . يستخدمون في ذلك شتى الأساليب مابين  
دعوة الى الخير هيئة سمحة وآية لله ظاهره بينه . ووعد بالخير يرجى ووعد بالعذاب  
يتقى . قال تعالى : " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء  
والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون " . ( ٤ )

قام انصار الحق بكل هذا في سبيل هداية الانسانية وقام سلطان الدين  
والأخلاق على الوازع الداخلي الحر الذي لا سيطرة عليه لأحد لكن أمام الله وأمام

- ( ١ ) سورة الانسان ، آية ١٢ .
- ( ٢ ) سورة النبأ ، الآيات ٢٤ : ٢٦ .
- ( ٣ ) مباحث ونظريات في علم الأخلاق ، ط ٤ ، ص ١٧٠ ، أبو بكر ذكري ، عبد العزيز أحمد
- ( ٤ ) سورة الاعراف ، آية ٩٦ .

الضمير " لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي " (١)

وما كان أسعد العقبي لو أن كل انسان اتخذ من طاعة الله وصوت الضمير  
أنوار هدية الى سواء الصراط .

أبت قلوب عليها أكنه وأبصار عليها غشاية الا أن تستحب العمى على الهدى  
وكان من حكمة الله أن أرصد لها عقاب القوانين ينفذها السلطان الذى يزع الله به  
من لا يزعمهم القرآن .

وهذا هو الوازع القانونى الذى ينتظر دائما من يتعدون على وازع الدين  
والأخلاق .

وهناك وازع الرأى العام وحكمه وهو قوة مروهبة من كثيرين من الناس .  
لأنه يجازى من يخالفونه بعقاب صارم من الاحتقار والاذراء . وهذا ما يسمى  
بالوازع الاجتماعى .

وقد يخضع بعض الناس لوازع آخر غير ما تقدم وهو قانون النتائج التى نتعرض  
لها بأعمالنا فمثلا خوف الاحتراق قد يزع المرء عن اللعب بالنار وخوف الفقر  
قد يزع عن التبذير وخوف التخمة قد يزع عن الشره . وهكذا كل عمل من طبيعته  
أن يصيبنا بضرر نجد أنفسنا نرهب منه . ويسمى هذا بالوازع الطبيعى .

وهذا الوازع قد يرهبه الطفل الصغير والحيوان فالطفل يخشى النار اذا سبق  
له أن احترق بها والعصفور قد يطير فزعا اذا رأى شخصا يميل الى الأرض خشية  
أن يرميه بحجر . (٢)

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٥٦ .

(٢) مباحث ونظريات فى علم الأخلاق ، ص ١٧٢ ، ط ٤ .

### أقسام الجزاء وأنواعه :

ما تقدم يتضح لنا أن الجزاء قسمان : مثوبة وعقوبة وأنه بحسب مصدره

أنواع :

- ( ١ ) الجزاء القانوني وهو الشرائع الوضعية التي تسنها الجمعيات الانسانية لردع من تحدثهم أنفسهم بالاعتداء على حق الفرد أو الجماعة وهذا الجزاء القانوني يهتم غالبا بوضع العقوبات لمن يخالفون القوانين دون أن يعنى ببذل ثواب لمن يطيعونها فحسبهم العيش آمين من اعتداء الغير عليهم ومن المؤاخذة بسطوة القانون لكه في أحوال نادرة قد يفرض بعض القاب ورتب ومكافآت لمن يقومون بأعمالهم خير قيام .
- ( ٢ ) الجزاء الاجتماعي وهو احترام الجماعة وإكبارها لصاحب عمل الخير أو احتقارها وازدراؤها لصاحب عمل الشر .
- ( ٣ ) الجزاء الطبيعي وهو ما يصيبنا من الأضرار المادية أو ما ينالنا من المنافع نتيجة لأعمالنا .
- ( ٤ ) الجزاء الخلقى وهو ما نشعر به من راحة الضمير وغطته عند عمل الخير وقلقه وعذابه عند عمل الشر .
- ( ٥ ) الجزاء الآخروي وهو ما أعد الله في الآخرة للمحسنين من نعيم مقيم وللمجرمين من عذاب أليم .

### الحاجة الى الجزاء الآخروي :

- لكل نوع من أنواع الجزاء المتقدمة أثر لا ينكر في تقويم السلوك الانساني ولكن الجزاء الآخروي هو أوقاها بالفرض . والحاجة اليه ماسة إذ لا يسد غيره مسده .
- فقد قلنا من قبل ان الجزاء القانوني انما جاء رمذا للذين لا يبالون بوازع الخلق . فهو اذن سلطان خارجي محض لا سلطة له على الروح فيسهل على من تجرد من سلطة

الدين والأخلاق أن يستهين بأمره متى وجد من نفسه قدرة على الإفلات من يده  
بآية وسيلة • بل كثيرا ما كان حماة القانون أنفسهم أول المعطلين لسلطانهم  
المنتهكين حرمة استنادا الى ما في أيديهم من سلطة ترد عنهم بأس غيرهم • وبهذا  
لا يعد هذا الجزاء وحده كافيا لتقويم السلوك الانساني • فكم من القوانين التي  
تدين بريئا وتبرئ مدينا •

أما الجزاء الاجتماعي وهو الرأي العام فان أثره وان قوى في نفوس فريق من  
الناس رق شعورهم ودق حسهم فانه عند غيرهم لاقية له ولا أثر واحكامه كثيرا ما تكون  
جائزة خاطئة •

كم حاكم الرأي العام رجلا وازدراه وقسا عليه فمات طريدا شريدا ميتة البائسين  
ثم بدا للرأي العام خطأ حكمه الذي أصدره على ذلك المظلوم •

وكم من رجل اتخذ منه الرأي العام تمثالا يمجده اليوم ويحطمه غدا •

لذلك لا يعد الرأي العام وسيلة كافية لاصلاح النفوس ولا حكا عادلا يصدر  
حكمه منزها عن الهوى والخطأ •

وأما الجزاء الطبيعي فهو أيضا غير بعيد الأثر في الأخلاق لأنطيس في كل  
حين تلقى الفضيلة نتيجة سعيدة تشجعها ولا الرذيلة نتيجة طبيعية مؤلمة تعاقبها  
وتردعها • بل كثيرا ما يكون العكس فلا يجنى العقلاء من أعمالهم الفاضلة الا الحرمان  
والاضطهاد بل أحيانا التعذيب والقتل كما رأينا كثيرا من شهداء الحق على حين نرى  
كثيرين من المجرمين ينعمون في الدنيا بضروب النعيم والترف فلا يزيدهم ذلك الا  
شرا وبطرا • ولو أن أمثال هؤلاء كانوا يلقون في هذه الدنيا جزاءا طبيعيا  
لرذائلهم واجرامهم لكان لهم وازعا عن شرورهم • ولكن الدنيا دارا ابتلاء واختبار لذلك  
لم ينعم فيها الأنبياء بالراحة والسكينة •

والخلاصة أنه ليس هناك تلازم بين الفضيلة والسعادة فى هذه الدنيا  
ولابين الرذيلة والشقاء • اذن لا يكون سلطان الجزاء الطبيعى تام السيطرة على  
النفوس ولا محققا للعدالة مطلقا •

وأما الجزاء الخلقى وهو ثواب الضمير أو عقابه فهو وان كان ذا سلطان  
لا يستهان به فان سلطانه ليس واحدا على جميع النفوس على السواء • هناك نفوس  
لا يزعمها أشد العذاب يأخذ الأبدان من كل ناحية ولكنها تذوب ذوبا تحت عذاب  
الضمير • ونفوس أخرى غلبت عليها شقوتها فليست تعرف الا أحاسيس البدن غير آبهة  
لمصوت الضمير ولا مبالية بسلطانه فلا يكفى جزاء الضمير وازعا لها عن غيرها •

كذلك ثواب الضمير اذا اكتفى به انسان لقاء خدمات أداها لأبناء جنسه ثم عاش  
بينهم محترما معظما • فهل يكفى هذا الثواب المحدود أولئك الذين يضحون بأنفسهم  
فى سبيل الواجب كما يضحى الجندى المجهول يلقي بنفسه الى التهلكة فيمحيى من عالم  
الوجود جسمه واسمه وورسمه ؟ كلا ان العدالة لتقضى بأن يكون لمثل هذه التضحيات  
الكبرى جزاء يناسب عظمتها وجلالها فأين يمكن أن يتم ذلك الجزاء ؟

ان الحق والعدالة يقضيان بأنه لابد من الجزاء الأخرى حيث يتحقق به  
التناسب التام بين الفضيلة والسعادة الجديرين بها وبين الرذيلة والشقاء الذى هى به  
حريه •

ان الفضيلة التى تقدم نفسها الى جحيم الدنيا فتذوب فى لهبه لتؤدى ما عليها من  
واجب ثم لا تدرك مكافأة فى هذه الدار ولا فى دار أخرى لى فضيلة مظلومة مهزومة  
بائسة يجدر بأصحابها أن يتبرموا فجزا •

أىكون من الحق والعدل أن يضع الموت حدا واحدا ونهاية واحدة لحياة المحسن  
والمسئ على السواء ؟ هل يستوى من دعى الى الحق فأجاب وامتنح فصر وحكم  
فعدل بمن دعى الى الحق فأعرض واستهان بقداسة الواجب وحرمت الفضيلة وسعى فى

الأرضى فسادا وكانت حياته سلسلة من المظالم والمآثم ؟

ان العدالة التى هى أقنس ما تستشعره النفس الانسانية من مبادئ الفضيلة لتجزم بأن العدالة الالهية لايمكن أن تقبل هذه التسوية فلا بد من يوم توضع فيه موازين العدالة المطلقة فلا يفوتها صغيرة ولا كبيرة ، قال تعالى " ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين " . ( ١ ) ( ٢ )

فما دامت قاعدة الجزاء فى هذه الدنيا لا تسير على نحو عادل فلا يضطرد فيها الثواب والعقاب مع خيريه العمل أو شريته بل أحيانا وكما ذكرنا لا تكون سعادة الانسان ثمرة لما يأتى من أعمال خيره أو لما يتصف به من فضيلة أو خلق حميد . كما لا تكون شقاوته كذلك نتيجة لما يأتى من أعمال الشر أو لما يتصف به من رذيلة أو خلق سىء . فكثيرا ما نرى الأشرار من الناس بل والكفار منهم يعطون الصحة والمال والجاه ورغد العيش ويحيون فى بحبوحة من النعيم بينما نرى الأخيار وصالحى المؤمنين والأتقياء من الناس مبتلون بالعرض والفقر وضعف الجاه وضيق الرزق .

اذن فنحن فى حاجة ماسة الى الجزاء الأخرى حتى تتحقق العدالة الالهية لانه ليس من العدل أن يستوى عند الله الخير والشرير ولا المحسن والمسىء ولا الفار والنافع كما قرره القرآن الكريم فى الآيات التالية :

قال تعالى :

" وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ان أنت الا نذير " ( ٣ )

---

( ١ ) سورة الأنبياء ، آية ٤٧ . ( ٢ ) مباحث ونظريات فى علم الأخلاق ، ص ١٧٦ ، ط ٤ .

( ٣ ) سورة فاطر ، الآية من ١٩ : ٢٢ .



وقال تعالى :

" لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون " (١)

وقال تعالى :

" أقمّن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون " (٢)

وقد قضت حكمته سبحانه وتعالى وشاءت إرادته عز وجل تحقيقا لعدله بين الناس ووفاء بوعده لهم أن تكون الدار الآخرة هي دار الجزاء على الأعمال بالثواب أو العقاب .

قال تعالى : " فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى " . (٣)

وقال تعالى : " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم ألينا لا ترجعون " (٤)

لهذا وذلك كان جمع الناس في يوم الحشر لحسابهم أمام الله على ما قدموا في دنياهم من خير أو شر أما تقتضيه العدالة الإلهية وكانت عادتهم وبعثتهم من قبورهم في هذا اليوم أما ممكنا ومقبولا لدى أصحاب العقول الراجحة والفطر السليمة .

قال تعالى :

" يا أيها الإنسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى أهله مسرورا وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا " . (٥)

---

(١) سورة الحشر ، آية ٢٠ .

(٢) سورة السجدة ، آية ١٨ .

(٣) سورة النازعات ، آية ٣٢ : ٤١ .

(٤) سورة المؤمنون ، آية ١١٥ .

(٥) سورة الانشقاق ، آيات ٦ : ١٢ .

" هذا وقد اقتضى العدل الالهي أن يكون الحساب على الأعمال جميعا سواء الظاهرة أو الباطنة .

قال تعالى : " وان تبدو مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله " . (١)

يقول الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده في كتابه : (٢) أن الذين لم تحاسبهم ضمائرهم ولم يطلع المجتمع على جرائمهم وأقفلوا من طائفة القانون من الذي يحاسبهم ؟ وأنا كان الانسان قد منح العقل والقدرة على فعل الخير والشر وتفاوتت حظوظ الناس في الحياة وتفاوتت سعادتهم فمنهم من نال عقابه ومنهم من أفلت ، منهم من سعد وهو غارق في الشرور ومن شقى وهو كامل فاضل نبيل . أفلا يكون من الطبيعي أن تكون هناك مسئولية عليا وجزاء أخير ؟ وهل من الطبيعي أن يتترك الكائن العاقل المرید بلا حسيب ولا رقيب ؟ ان هذا هو الذي دعا بعض المفكرين الى ضرورة القول بوجود اله يبين للناس ما يجب أن يفعلوه وما يجب أن يتجنبوه ثم هو سيحاسبهم في حياة بعد هذه الحياة يكون فيها الحساب العادل والجزاء الصحيح .

وهذا هو ما جاء في الدين الحق ولا يكمل منطق الحياة ونظامها الا به . وهو أيضا الذي يتفق مع الحكمة التي تتجلى في كل شيء ولا بد أن يكون أعظم مظهر لها في أعظم المخلوقات وهو الانسان .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٨٤ .

(٢) مبادئ الفلسفة والأخلاق ، أ.د. محمد عبد الهادي أبو ريده ، ط٢ ، ص ٢١١ .

## الفصل الخامس

### الأخلاق الفلسفية

المبحث الأول : الأخلاق اليونانية

المبحث الثاني : الأخلاق عند فلاسفة الإسلام



## الفصل الخامس

### الأخلاق الفلسفية

الأخلاق الفلسفية هي ثمرة تفكير في الإنسان وتحليل دقيق لطبيعته المعقدة بقصد معرفة عناصرها ووظيفتها كل منها وهي ثمرة بحث لمعرفة مكان الإنسان في الكون ومعرفة أصله ومصيره • وكل ذلك لأجل تنظيم حياته وتوجيه ملكاته على نحو يتفق مع حقيقته ويبلغ به إلى كماله وسعادته •

وقد اختلفت آراء الفلاسفة ومدارس التفلسف في الإنسان وحقيقته وتنوعت المذاهب في خبره وفضيلته • ويمكن القول بأن المذاهب في الأخلاق بعدد كبار الفلاسفة وكثرة المدارس الفلسفية ونكتفي بالحديث عن الأخلاق اليونانية وعند فلاسفة الإسلام •

## الأخلاق اليونانية

تعد المدرسة السقراطية الأصلية ممثلة في سقراط وتلميذه أفلاطون وتلميذه أرسطو أول مدرسة أخلاقية فلسفية منظمة عرفت الإنسانية عبر التاريخ فلعل أول باحث في الأخلاق بحثا علميا هم اليونان .

### أولا - سقراط " ٤٦٩ - ٣٩٩ ق م "

يعتبر سقراط أول فيلسوف يوناني دعا الى ايثار تعاليم الأخلاق واعطائها أكبر قدر من العناية : فقد كان جل اهتمام الفلاسفة السابقين على سقراط هو البحث الطبيعي ومن ثم جاء ت فلسفات هؤلاء خالية من كل اشارة أخلاقية فاذا ما جاء سقراط حول البحث من بحث في الطبيعة الخارجية للأشياء الى بحث في الانسان والنفس الإنسانية ولعل هذا هو المعنى المقصود من تلك العبارة المشهورة التي تقول : ان سقراط انزل الفلسفة من السماء الى الأرض . اذ أن هذه العبارة لا تعنى أكثر من أن هذا الفيلسوف قد نقل ميدان البحث من الطبيعة الحادية الخارجية الى داخل النفس الإنسانية بما تتطوى عليه من قيم أخلاقية وبالتالي ظهرت الأخلاق كعلم مستقل له كيانه المحدد لأول مرة على يديه .

ولم يكن لمعاصريه من مورد للثقافة سوى منبعين محدودين : ثقافة الميثافيزيقيين والسوفسطائيين وقد ظهر له أن هذين الموردين من الثقافة ليسا الا ضلالا مبنيا .

حيث أن الميثافيزيقيون يتباعدون عن الحقائق الواقعة ويخلقون وراء آفاق لا فائدة فيها ولا نفع للإنسانية منها .

وأما السوفسطائيون فقد فروا من ميدان البحث العلمى الفلسفى الى جـدـل  
عقيم وتخلييل . (١)

" ولم يؤثر عنهم فى البحث الخلقى ما يستحق الذكر انا كانت تعاليمهم  
شكوكا ومغالطات وجدلا يلتصق به طريق الفوز والغلبة فى ميدان الصـراع  
السياسى مهما كانت الوسيلة " . (٢)

وكانت القاعدة التى يستند اليها السوفسطائيون فى انكار الحقائق هى أن هذه  
الحقائق لا تتأتى للناس الا عن طريق الحواس . ولما كان الحس الذى ترتد المعرفة  
اليه فى النهاية متغيرا فان المعرفة أو الحقائق أصبحت حقائق جزئية نسبية متغيرة  
تختلف من انسان لآخر بل ان هذه المعرفة قد تختلف عند الفرد الواحد من فترة  
زمنية الى فترة زمنية أخرى فما يبدو لى باطلا الآن قد يبدو لى صحيحا فى فترة زمنية  
أخرى . وهذا هو ما لخمه بروتاجوراس زعيم هذه المدرسة فى عبارته الشهيرة التى  
يقول فيها " ان الانسان مقياس كل شئ " .

ومعنى ذلك أن الأشياء تكون بالنسبة للانسان كما يدركها هو ومن ثم تفقد هذه  
الأشياء وجودها خارج الذات كحقائق موضوعية فليس هناك حار فى ذاته أو بارد فى ذاته  
مثلا وانما ما هو موجود بالفعل هو حاله تبدو فيها الأشياء حارة لانسان باردة لانسان  
آخر .

---

(١) مباحث ونظريات فى علم الأخلاق ، أبو بكر ذكرى ، عبد العزيز أحمد ،

ط رابعة ، ص ٤٦ .

(٢) تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية ، أبو بكر ذكرى ، ط ثالثة ، ص ١٣ .

وإذا ما امتدت هذه النظرية عند السوفسطائيين الى ميدان الأخلاق صار الفرد  
عندهم مقياس الخير والشر كما كان في مجال المعرفة مقياس الصواب والخطأ ومن ثم  
أصبحت القيم الأخلاقية — في نظر هؤلاء — قيما جزئية نسبية متغيرة مرتبطة بزمنها  
ومكانها وبظروف أصحابها وحالاتهم الصحية والنفسية فما يعتبر عند مجتمع خيرا قد يعد  
هو نفسه عند مجتمع آخر شرا وما يعد عند فرد معين فضيلة قد يعتبر في نظر فرد آخر  
رذيلة بل وقد يعد هو نفسه عند هذا الفرد رذيلة اذا ما تغيرت ظروفه أو تبدلت  
أحواله .

ولم تكف السوفسطائية بنفى وهدم العقلية الموضوعية الثابتة في مجال الأخلاق  
بل انها زادت على ذلك بالقول بأن القيم الأخلاقية المعروفة منافية للطبيعة البشرية  
ذاتها .

فاذا كانت الطبيعة البشرية تحتنا على اشباع رغباتنا وارواء شهواتنا وميلنا فان  
قوانين الأخلاق تحرم علينا ذلك وتطلق عليه " عفه " واذا كانت الطبيعة البشرية  
ترى أن ارتكاب الظلم خير من تحمله فان الأخلاق ترى على العكس من ذلك تامما  
أن تحمل الظلم خير من ارتكابه وهكذا الحال في سائر الأفعال التي تواضع الناس  
على اعتبارها فضائل .

ان هذه الفضائل — في نظر السوفسطائية انما هي رذائل مقنعة وهي من وضع  
الضعفاء فليست العفة الا عجزا عن اشباع الشهوة وهكذا الحال في جميع الفضائل  
الخليقة .

هذا عن موقف السوفسطائية من المعرفة والأخلاق ولقد تصدى سقراط لهذا  
الموقف برمته ورفضه ورد المعرفة والأخلاق الى العقل بعد أن أرجعتها السوفسطائية  
الى الحس فقال لهم ان الحكم ليس للحواس وحدها بل وراء كل خطأ من الحواس  
عقل يصح الخطأ . لأن الحس كما يقول سقراط لا يستطيع أن يدرك الا ظواهر



الأشياء أو عوارضها أما ماهياتها فإن ادراكها من شأن العقل وحده • وهكذا ينتهي سقراط الى أن وراء عوارض الأشياء التى ندركها عن طريق الحواس إنما تقف ماهيات هذه الأشياء التى ندركها عن طريق العقل والعقل وحده •

وكما يرد سقراط الحقائق فى ميدان المعرفة رد القيم فى مجال الأخلاق الى العقل

أيضا •

وكما انتهى سقراط فى ميدان المعرفة الى وجود الحقائق العامة الثابتة غير المتغيرة انتهى فى ميدان الأخلاق كذلك الى وجود القيم الأخلاقية العقلية الثابتة غير المتغيرة وغير المرتبطة بزمان محدد أو مكان معين أو مجتمع بعينه •

وإذا كانت السوفسطائية من قبل قد صورت الطبيعة البشرية على أنها مجموعة من الأهواء والرغبات والغرائز والشهوات فإن سقراط - على العكس من ذلك تماما - قد رأى أن الطبيعة البشرية إنما هى تتكون من شهوة ثم من عقل يسيطر على هذه الشهوة •

" يقول الدكتور بيسار : بعد أن كان السوفسطائيون يحددون هذه الماهية بأنها شهوة وهوى ويرتبون على ذلك مذهبهم الأخلاقى • جاء سقراط مناقضا لهم فى ذلك وقائلا : بل إن الإنسان روح وعقل يسيطر على الحس ويديره • والقوانين العادلة التى يضعها الإنسان لا تصدر عن هوى أو شهوة أو عن النوازع الحسية والمشتتهيات المادية وإنما تصدر عن العقل وليست فى حقيقتها إلا قوانين غير مكتوبة رسمها الآله فى قلوب الناس • والذين يحترمون هذه القوانين ويدعون لها إنما يحترمون العقل والنظام الإلهى " ( ١ )

وإذا تتبعنا الأساس الذى يعتمد عليه سقراط فى نظريته الأخلاقية نجد أنه يبين القيم الأخلاقية على المعرفة والعلم أى يربط بين الفضيلة والعلم أو المعرفة والعكس صحيح حيث يربط ويوجد بين الرذيلة والجهل " فيكفى فى نظر سقراط أن يعلم الإنسان ماهى الفضيلة حتى يكون بمنجاة من فعل الرذيلة وكل عمل شر إنما يصدر عن الجهل بالفضيلة لأن الإنسان لا يسهه إذا عرف الخير أن يفعل شر • وكل إنسان ينشدون الفضيلة •

( ١ ) العقيدة والأخلاق ، د • بيسار ، ط ثانية ، ص ٢٣٤ •

ويقول سقراط : لا يمكن أن يعتمد انسان الوقوع فى الشر، واذا ارتكبه فلائمه  
لا يعرف الادراك العقلى للخير ولما كان يجهل حقيقة الخير تراه يفعل الشر وهو  
يظن أنه العمل الصحيح ."

والخلاصة ان سقراط قد ذهب الى أنه " لافضيلة الا المعرفة " العلم "  
واستنتج من هذه النظرية نتيجتين :

(١) أن الانسان لا يستطيع أن يعمل الخير مالم يعلم الخير وكل عمل صدر لا عن  
علم بالخير فليس خيرا ولا فضيلة فالعمل الخير لابد أن يكون مؤسسا على  
العلم ومنه ينبع .

(٢) ان علم الانسان بأن الشيء خير علما تاما يحمله حتما على عمله ومعرفته بضرر  
شيء تحمله حتما على تركه وليس انسان يعمل الشر وهو عالم بنتائجه فكل  
الشرور ناشئة عن الجهل ولو علم المرء أين الخير لعمله حتما وعلل ذلك :  
بأن كل انسان بطبيعته يقصد الخير لنفسه ويكره بها الشر فمحال أن يفعل  
ما يضرها وهو عالم بضرره مما يصدر عن انسان من الخطأ انما منشؤه الجهل  
بالعمل .

وعلاج الشرير أن يعلم نتائج الأعمال السيئة التى تصدر عنه ولتعويد انسان  
الخير وجعله مصدرا للفضيلة يعلم نتائج الأعمال الحسنة" . (١)

اذن فان ربطه بين العمل الأخلاقى وبين المعرفة جعله يشترط فيه شرطان  
هما :

(١) عنصر المعرفة الواعية المتأنية بمكانه من الخير أو الشر .

(٢) أن المعرفة تدفعه حتما الى الخير والجهل يدفعه الى الشر .

(١) قصة الفلسفة اليونانية، أحمد أمين، زكى نجيب محمود، ط ثانية، ص ١٢٣، ١٢٤

لأن الإنسان لا يعرف طريق سعادته ثم يميل الى غيرها مختاراً فالفضيلة  
اذن هي المعرفة .

ولكن ورد عليه اعتراض في ذلك من ارسطو حيث قال : " ان سقراط  
جهل أو تناسى أن نفس الانسان ليست مركبة من العقل وحده وتخيل أن كل أعمال  
الانسان خاضعة لحكم العقل ومن ثم اذا علم العقل فضل العمل ولكنه نسى أن أكثر  
أعماله محكومة بالعواطف والشهوات واذ ذالك قد يقع في الخطأ مهما علم العقل .

ولعل خطأ سقراط في الرأي راجع الى أنه نظر الى الموضوع من وجهته هو  
وقاس الناس على مقياسه فقد كان سليماً مما يتصف به عامة الناس من ضعف ولم يكن  
لمشاعره على نفسه سلطان ولكن عقله وحده هو الذي ملك قيادة فكان عمل الخير يعقب  
معرفته مباشرة كما يعقب الليل النهار ولذا لم يفهم أن يكون بين الناس من يرتكب  
الاثم وهو يعرف الخير . " (١)

وقد قال الأستاذ " سانتهيلير " رداً على هذه النظرية " ليس ما يقع الانسان  
فيه من الائم ناشئاً عن خطأ في الموازنة بين اللذة الحاضرة والآلام المستقبلية  
التي هي أكبر منها كما يعتقد سقراط ولا ناشئاً عن جهل بطبائع الأشياء انما منشوء  
فساد في الخلق يحمل الانسان على تفضيل الشر على الخير وهو عالم بهما وبقيمته  
كليهما جميعاً فان الشرير لا يجهل البتة ما يفعل من سوء . . انه يشعر تماماً بخسرانه  
ولكنه يسعى الى هذا الخسران وهو آسف انما هزيمة عقله نفسها هي الفاعلة للخطيئة  
لأنه اذا كان يجهل ما يفعل فليس بمجرم ولا بمسئول أمام الناس ولا أمام الله وحينئذ

---

(١) قصة الفلسفة اليونانية ، أحمد أمين ، وزكى نجيب محمود ، ط ثانية ،

بهذه المثابة لا تكون الفضيلة والعلم متماثلين فقد يعلم الانسان ولا يعمل وقد يعمل ضد ما يعلم اذا كانت الفضيلة في الواقع هي العلم وجب على الانسان أن يقتصر على أن يعلم ليكون فاضلا وبذلك تتضاءل الحياة الأخلاقية الى مجرد النظر والتأمل " (١).

وعلى ذلك نقول انه مخطئ حيث أن معرفة الخير ليست كافية في الحمل على فعله بل لابد أن ينضم اليها ارادة قوية حتى يعمل على وفق ما علم .

كما يرى سقراط أن السعادة لا تتجم عن شيء مادي وانما هي أثر لحالة نفسية أخلاقية هي الانسجام بين رغبات الانسان وبين الظروف التي يوجد فيها . فان السعادة ليست في عرض الحياة الدنيا ولفظاتها وانما يقول سقراط انما هي حقاً في الانسجام النفسى والرضى بالقضاء وبما يقسم للانسان بعد أن يؤدي ما عليه من واجبات العمل والسعى الشريف . حيث لم تقتصر إشادة سقراط فيما يتعلق بالفضائل على القناعة ولكنه أشاد أيضا بالعمل فهو السبيل لاكتساب ما يلزم للانسان في حياته ولمعرفة ما ينبغي معرفته .

كذلك أشاد بالرياضة البدنية فما من شك أن الصحة والقوة والاتزان والشجاعة ترتكز عليها .

---

(١) قصة الفلسفة اليونانية، أحمد أمين وزكى نجيب محمد ، ط ثانية، ص ١٢٦ .

نقلا عن كتاب الأخلاق لارسطو ترجمة الأستاذ أحمد لطفى السيد .

كذلك أشاد بالعدل سواء من قوانين مكتوبة أو من قوانين تواضع علينا العرف  
أو كان صادرا عن تعاليم الشرع والدين". (١)

ثانيا - أفلاطون : ( ٤٢٧ - ٣٤٧ ق. م )

وهو فيلسوف اثيني تتلمذ أيضا لسقراط وكلامه في الأخلاق مبني على نظرية  
المثل وتوضيح ذلك أنه يرى أن وراء هذا العالم المحسوس عالما آخر روحانيا وأن لكل  
موجود مشخى مثلا غير مشخى في العالم العقلي أو الروحاني وطبق ذلك على الأخلاق  
فقال : أن بين هذه المثل مثلا للخير وهو معنى مطلق أزلي أبدي بالغ الكمال وكلما  
قربت المعاملة منه وسطع عليها ضوءه كانت أقرب الى الكمال وفهم هذا المثل يحتاج الى  
رياضة النفس وتهذيب العقل وكل تلك المثل تقترب بالكاب شيئا فشيئا من المثل  
الأعلى . وكلما حاول المرء التشبه بالمثل الأعلى كان عمله خيرا . يقول أبو بكر ذكرى  
كان أفلاطون يعبر عن الله بالخير الأعلى ويجعل الاتجاه اليه والتشبه به موصلا الى  
الكمال الأعلى وغاية الغايات". (٢)

ويوضح ذلك د. بيار فيقول : أن أفلاطون يرى أن الخير المطلق هو الله  
باعتبار أنه مثال الكمال والجلال والواجب انما يكون في اقترابنا منه بقدر المستطاع  
وما الفضيلة الا الشبه به". (٣)

وكان يرى أن في النفس قوى مختلفة وقسمها الى ثلاثة قوى أصلية لا يخلو منها  
أحد من بنى الانسان مادام حيا وفي وضعه الطبيعي: هي قوة العقل - قوة الغضب -  
قوة الشهوة .

ومتى تنبه الانسان الى هذه القوى الثلاث وعرف كيف يحصل الانسجام بينها يحيث

(١) مباحث ونظريات في علم الأخلاق، أبوبكر ذكرى، عبد العزيز أحمد، ط رابعة، ص ٥٠، ٤٩.

(٢) تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية، أبوبكر ذكرى، ط ثالثة، ص ١٧.

(٣) العقيدة والأخلاق، د. بيار، ط ثانية، ص ٢٣٦.

تبقى قوة العقل سيدة الموقف باعتدال فلا تطغى على القوتين الأخرين فتشل قوتيهما وتوقفهما أيقافاً تاماً ولا تطلق لهما الحبل على الغارب ينطلقان بلا حساب وينفسمان فى كل رذيلة ويخرجان عن حدود الاعتدال إلى الطغيان المدمر. نتج عن ذلك فضيلة العدالة أى التعادل التام والانسجام الكامل بين قوى النفس وهذه العدالة ما يسمى فى العرف الأخلاقى بالحكمة فقوة العقل اذن لها مع قوة الشهوة وقوة العاطفة والغضب ثلاث حالات :-

- ١ - ان يطغى العقل ويتجاوز فى كبحها الحد فتتوثر الشهوة والغضب كما يفعل زهاد البوذية والبرهمية وحينئذ تموت الشخصية الانسانية .
- ٢ - ان تنام قوة العقل وتطغى القوتان الأخرى عليها وتتطلقا فى الفجور والشره والطغيان والفساد وكل رذيلة مقبولة .
- ٣ - ان تعادل قوة العقل وتدبر القوتين الأخرين باعتدال وتوسط فينشأ الانسجام والتوازن ويبقى العقل سيداً والشهوة والغضب مؤديتين لواحيهما فى اعتدال وإخلاص وأدب لتبلغ الشخصية الانسانية المقصد الأسمى المطلوب من وجودها فى هذه الحياة فان الشهوة أو الغضب لابد منها لكى تبقى الحياة ولكن بشرط أن يرضخا لتدبير العقل . (١)

اذن يجب أن يكون لكل قوة نشاطها وقانونها وأن يكون هناك توازن وانسجام بينها . فالقوة العاقلة أو " الناطقة " يجب أن تراول نشاطها على الوجه الصحيح فتتحقق لها فضيلتها وهى الحكمة أى معرفة حقائق الأشياء والقوة الغضبية يجب ضبطها وتوجيهها بقوة العقل حتى تتحقق لها فضيلتها وهى الشجاعة . والقوة الشهوانية يجب السيطرة عليها بقوة العقل وقوة الغضب وبذلك تلتزم حدود الاعتدال وتتجلى فضيلتها وهى العفة . فانما زاولت كل فضيلة نشاطها وظهرت فضيلتها مع الانسجام بينها وبين غيرها بقيادة العقل فعند ذلك تتحقق فضيلة كلية هى فضيلة العدالة ومعناها أن تأخذ كل قوة حقها ويسود فى النفس التوازن (٢) فحياة الفضيلة عند أفلاطون هى حياة العدالة والتوازن بين القوى الانسانية .

(١) مباحث ونظريات فى علم الأخلاق ، أبوبكر ذكى وعبد العزيز أحمد ، ط رابعة ، ص ٦١ ،  
(٢) مبادئ الفلسفة والأخلاق ، د . عبد الهادى أبو ريده ، ط ٢ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

يتبين اذن أن الفضيلة عند أفلاطون هي العدالة ويعنى بها توازن القوى النفسية وتعادلها بحيث تكون قوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العقل فى تعادل تام فينشأ عن اعتدال العقل الحكمة وعن اعتدال قوة الغضب الشجاعة وعن اتزان قوة الشهوة العفة ومجموع التوازن الحاصل بينها هو العدالة وهى تؤدى الى السعادة التى هى غاية الحياة .

### ثالثا : ارسطو ( ٣٨٤ - ٣٢٢ ق م )

ذهب ارسطو كما ذهب أفلاطون وسقراط من قبل الى أن القيم الأخلاقية ثابتة غير متغيرة وهى واحدة فى كل زمان ومكان وعند جميع الأفراد ومن هنا فهو يتفق معها فى موقفهما من السوفسطائية من رفعى نسبة القيم الأخلاقية وتغيرها .

أما عن رأيه فى الفضيلة فهو يرى أنه لما كان الانسان يتكون من عقل وشهوة فان الفضائل الخاصة به تنقسم الى قسمين فضائل خلقية وفضائل عقلية والفضائل الخلقية تقوم أساسا فى ضبط ميولنا والسيطرة على أهوائنا وشهواتنا واخضاعها لحكم العقل . وهذه الفضائل تأتى عادة بالممارسة والتدريب والتمرين . ولذلك فان ارسطو يطالب القائمين على التربية بتعويد النشء على ممارسة هذه الفضائل الخلقية حتى تصدر عن الانسان بطريقة تلقائية سهلة دون معاناه .

أما الفضائل العقلية فانها أعلى من هذه الفضائل الخلقية لأنها تقوم على التأمل العقلى الذى يرفع الانسان الى ملكة الله اذ أن حياة الله فكر خالى . والفضائل العقلية لاتأتى بالممارسة والتمرين وانما تأتى عن طريق التعليم فقط .

ويقول الدكتور / عبد الهادى أبورية :

وهو يرى أن تربية الفضيلة يعتمد على التعويد والتربية العملية من جهة وعلى التعليم النظرى من جهة أخرى . لكن التدرج فى نمو الانسان يقتضى أن نبتدىء بتعويده على الفضائل الى أن تتمو ملكاته الفكرية وعند ذلك نشرح له الفضيلة وقيمتها من الناحية النظرية . فأرسطو يشدد فى أهمية العوان حتى تصدر الفضيلة عن الانسان بسهولة بل

بسرور والا فهي لا تكون فضيلة لأن الفضيلة ملكة راسخة ودائمة هي فن انساني وعلى  
الانسان أن يتقنه . (١)

فاذا سألنا أرسطو . ماهي الفضيلة \_\_\_\_\_ ؟

أجاب بأن الفضيلة عبارة عن اختيار الوسط بين طرفين هما الافراط والتفريط وكل منهما  
رذيلة . والذي يعين الوسط هو العقل بنظرة الحكمة . لكن هذا الوسط ليس  
حسابيا رياضيا بل هو اعتباري وهو الى أحد الطرفين أميل منه الى الآخر فالشجاعة  
وسط بين التهور والجبن ولكنها أميل الى التهور والكرم وسط بين الاسراف والتقتير  
لكه الى الاسراف أميل . . . . . وهكذا .

أما عن السعادة عند أرسطو فهي تخضع لنفس التقسيم الذي أجراه في الفضائل  
اذ جعل السعادة نوعين :

(١) سعادة الفكر والتأمل والحياة العقلية الخالصة وهي حياة الحكماء والفلاسفة  
وأصحاب الأفق الفكري الأعلى الذي لا يتاح الا للقلائل جدا من بني الانسان  
بل ان هذه الحياة " حياة التأمل " هي حياة الله نفسه في نظر أرسطو أنها  
تفكير يدرك به ذاته ويفكر به في نفسه في احاطة وشمول .  
وليس معنى أنها قد بلغت هذا الحد من السمو أن نزهد فيها ونياأس من الوصول  
اليها باعتبار أنها فوق مستوى الانسان الفاني ، على العكس يجب أن يجاهد من  
أجلها ونحاول كائنات عاقلة أيضا أن نصل الى أقصى ما نستطيعه من هياتها  
النادرة .

---

(١) مبادئ الفلسفة والأخلاق ، د . عبد الهادي أوريدة ، ط ثانية ، ص ٢٣٧ .



(٢) سعادة الحياة المنظمة بالعقل المثلثة في السلوك العتزن التى تنتج الفضيلة الدائمة المتأتمية لجميع العقلاء ممن رزقوا الثبات فى الخير وأتبع لهم حظ ممن التربية الأخلاقية والارادة الواغبة فى الفضيلة . (١)

ويقول الدكتور بيسار " ويشترط أرسطو لتحصيل السعادة • الكمال الخارجى أيضا من صحة ومال وولد وجاه الى غير ذلك ويسمى هذه كلها عناصر للسعادة . " (٢)

اذن فأرسطو يجعل من علم الأخلاق فنا للسعادة عن طريق الفضيلة التى يرسمها العقل •

وأن الفضيلة تعود وتجرية ثم معرفة وتعليم وحكمة وهى توسط بين طرفين •

وقد ورد نقد على مذهب أرسطو فى الأخلاق ومجملته :

(١) نقد سقراط فى جعله العلم مقياس الفضيلة وقسا فى نقده ولكنه هو نفسه لـم يلبث أن وقع فيما عابه على أستاذ أستاذه • لقد أربى على سقراط وزاد الصاع صاعين اذ جعل الفضائل العقلية أسمى مراتب الفضائل وجعل السعادة بها أسمى أنواع السعادات •

بل لقد جعل العلم والفكر وحياة التأمل حياة الله نفسه فرفع العلم الذى قال به سقراط الى أن جعل أعلى خاصية للانسان وأفقا الهيأ فوق كل أفقى • وذلك والحق يقال ضرب من المبالغة لم يصل اليه سقراط نفسه الذى وقف بفضيلة العلم عند حدود الواقعية الانسانية دون زيادة وكان عمليا • أكثر من أرسطو الذى عده المعجبون به معلم العمليات ومعلم الواقعية الأول •

(١) مباحث ونظريات فى علم الأخلاق ، أبو بكر ذكرى ، وعبد العزيز أحمد ، ط رابعة ، ص ٢٢ •

(٢) العقيدة والأخلاق ، د. بيسار ، ط ثانية ، ص ٢٣٨ •

(٢) نقد أرسطو نظرية المثل الأفلاطونية نقدا قاسيا وعدها خيالا يرتبط بالحقائق

الواقعية من أى طريق . ومع ذلك نراه يمجّد حياة التأمل الروحي ويجهّله  
أسمى مستوى من السعادة مع أن أفلاطون انما فرض المثل العليا وعالمها الأعلى  
البعيد عن كل صلة بعالم المادة لكي تتسامى اليه الروح كلما ألحت عليها  
الشهوات وغضتها ضرورات الغرائز فيكون التأمل في عالم المثل منجاة لها من عالم  
الشرور والفساد وما أشبه أرسطو بأستاذه في تلك الروحانية التي يعيها عليه  
بحجة أنها مطامح أبعد من المستوى الانساني .

(٣) على حين نرى كلا من سقراط وأفلاطون قد التزم طريقا لم يحد عنه وأصر على  
تعاليمه ومبادئه دون أدنى تردد نرى أرسطو يتأرجح بين مبادئ أستاذه مرة  
وبين المادية الدنيوية الفانية مرة أخرى بحجة أن هذا هو الواقع من الطبيعة  
التي لا يعيش الانسان بدونها .

ومن ذلك انا نراه يشترط للسعادة شروطا قد تتقطع أعمار الناس وقلوبهم وأنفاسهم  
دون أن يصلوا اليها اذ يشترط للسعادة شرف النسب والجاه والثراء والصحة بل والجمال  
الذي يحرم منه أحيانا حتى أصحاب العروش . ان الذي ينتظر سعادة أرسطو لن يكون  
أكثر من باسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالفه . ولو أن الناس جميعا وضعوا  
آمالهم وجعلوا سعادتهم على مارسم أرسطو وجد في الدنيا سعيد واحد ألم يكن أستاذه  
على صواب حين علما الناس أنهم سعداء اذا رزقهم الله ما يستعين .

ضرورة الحياة وما به يتصورون ويميزون بين الخير والشر أو بعبارة أوضح يبين  
الفضيلة والرذيلة وبين ما يضرهم وينفعهم ؟

ان المشاهدة والتجربة ليعلمان العقلاء في كل مكان أن الفضلاء لا يحبون أن  
يبيعوا الفضيلة حتى بالتيجان والعروش وأنهم يفضلون الحياة معها جائعين على أن  
يتبدلوا بها الرذيلة مترفين منعمين بكل جاه ومجد وسلطان .

ان ارسطو يعظم أحيانا حتى يخيّل اليّا أنه قد بلغ شأوا لم يصل اليه أستاذه  
وأستاذ أستاذه . ويتفأء ل أحيانا حتى ينظر الى الدنيا بمنظار العامة من التجار  
وأصحاب الحرف حين يقيسون النجاح بقدر ما يربحون من الدنانير والدراهم . ولو أن  
العباقرّة من أصحاب الفضيلة لم يصيبوا السعادة الا بخزائن الأموال والا بالجـاه  
والسلطان والا بالجمال والا بالصحة الكاملة لنظروا الى فضيلتهم وعبقريتهم وأشخاصهم  
نظرهم الى أشياء حقيرة ومؤذية ولتنازلوا فورا عن كل ذلك مفضلين حياة اللذات في قصور  
المترفين والأثرياء ولو عند مستوى نعالهم . ولكننا لم نشاهد ذلك على مجرى التاريخ بل  
شاهدنا العكس تماما .

ان العباقرّة يرون الحرية والفضيلة فوق كل ثراء وكل بذل وكل عطاء وكل ترف  
وكل نعيم .

ولقد خلد التاريخ أبطالا ماتوا عطشا وجوعا وحرمانا وتشريدا في سبيل فضيلتهم  
وحريتهم ودخلوا بذلك أوسع أبواب الخلود . (١)

تحقيب :

في الواقع أن هذه الملاحظات على جانب كبير من الصواب في نقدّها لموقف

أرسطو من سقراط وأفلاطون .

(١) مباحث ونظريات في علم الأخلاق . أبو بكر ذكري ، عبد العزيز أحمد ، ط رابعة ،

ص ٧٣ : ٧٥ .

فبالنسبة للملاحظة الأولى التي تعيب على أرسطو أنه نقد سقراط في ترحيحه وربطه بين العلم والفضيلة بالرغم من أنه بعد ذلك جعل الفكر والتأمل والحياة العقلية الخالصة هي الأساس للسعادة الانسانية وأن الفضائل العقلية هي أسمى مراتب الفضائل .  
فهي ملاحظة منطقية سليمة حيث عاب أرسطو على سقراط لجعله العلم هو السبب في الفضيلة وقال : لقد نسي سقراط أن الانسان ليس عقلا محضا وأن هناك عواطف وشهوات وجوانب غير عاقلة تحكم أعمال الانسان وسلوكه ولكن حين قرر مذهبه هو نجده جعل العقل والتأمل هو أسمى مراتب الفضيلة .

أما الملاحظة الثانية والتي تعيب على أرسطو في أنه نقد أفلاطون لقوله بنظرية المثل حيث اعتبرها خيالية بعيدة عن الحياة الواقعية مع أنه اهتم بالتأمل الروحي فهي ملاحظة جيدة حيث أن الانغراق في التأمل الأرسطي يشبه الى حد كبير الاعتقاد بالمثل التي لها وجود خارج الذهن .

أما الملاحظة الثالثة وهي التي توضح تردد أرسطو بين المبادئ الروحية السامية وبين المادية الدنيوية الفانية فبعد أن قال أن السعادة الحقيقية في الفكر والتأملات العقلية والروحية الخالصة عاد وقال ان السعادة تحتاج الى مقومات مادية كالجاه والمال والصحة والجمال . وهي ملاحظة سليمة ومنطقية من جهتين ، الجهة الأولى أنه متناقض مع نفسه ومتردد اذ كيف تكون السعادة في الفكر والتأمل والجانب الروحي ثم يكون لها شروط مادية كالجمال والجاه وغيرها .

أما الجهة الأخرى فان تعاليم الاسلام تخالف ماذهب اليه ارسطو من وضع الشروط المادية للسعادة حيث قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون " ( ١ )

---

( ١ ) سورة المنافقون ، آية ٩٠ .

حيث بين الحق جل وعلا أن الخسران في التلهي بالمال والأولاد عن ذكر الله  
وليس السعادة كما يقول أرسطو هي في المال والمقومات المادية •

لذلك مدح المولى عز وجل من يجاهد بالمال والنفس في سبيل الله ووصفـه  
بالصدق بعد تخصيصه له بصفته الايمان حيث قال تعالى : " انما المؤمنون الذين آمنوا  
بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون " (١)

أيضا أكد المولى تعالى على الأجر المدخر لكل من يستغنى عن أمواله وينفقها في  
سبيل الله فقال تعالى " الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم  
عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون " (٢)

كذلك هناك الآيات الكريمة التي تحث على الانفاق في سبيل الله تعالى—  
فقال تعالى " وما أنفقتم من نفقة أو ندرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين —  
أنصار " (٣)

وقال تعالى " وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم " (٤) فان علم الله محيط  
بهذه النفقة •

وقال تعالى " يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم  
من الأرض " (٥)

فهى حث من المولى تعالى على التضحية بالمال وانفاقه في سبيل الخير وهذا  
يتنافى مع كونه أساس للسعادة فكيف يحث الله تعالى على انفاق شيء والتضحية به وهو  
في نفس الوقت أساس للسعادة لهذا الانسان •

- |                             |                             |
|-----------------------------|-----------------------------|
| (١) سورة الحجرات ، آية ١٥ • | (٢) سورة البقرة ، آية ٢٧٤ • |
| (٣) سورة البقرة ، آية ٢٧٠ • | (٤) سورة البقرة ، آية ٢٢٣ • |
| (٥) سورة البقرة ، آية ٢٦٧ • |                             |

وهناك الآيات التي توضح أن المستفيد الوحيد من الصدقة هو مخرجها كقوله تعالى  
" وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم  
وأنتم لا تظلمون " . ( ١ )

كذلك تبين الآيات مضاعفة الأجر لمن ينفق أمواله في سبيل الله . قال تعالى  
" مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة  
مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم " . ( ٢ )

وقال تعالى " ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم  
كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأنت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما  
تعملون بصير " . ( ٣ )

كذلك هناك الآيات التي تحت على الانفاق قبل فوات الأوان ، قال تعالى  
" يا أيها الذين آمنوا ما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خله ولا شفاعة  
والكافرون هم الظالمون " . ( ٤ )

ثم هناك الآيات التي تبين أن الانفاق في سبيل الله يعتبر قرض من العبد إلى  
الله تعالى فأى سعادة في الشعور بأن المال المنفق هو قرض للمولى عز وجل من العبد .

قال تعالى " من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله  
يقبض . . . . . واليه ترجعون " . ( ٥ )

- 
- |                               |                               |
|-------------------------------|-------------------------------|
| ( ١ ) سورة البقرة ، آية ٢٧٢ . | ( ٢ ) سورة البقرة ، آية ٢٦١ . |
| ( ٣ ) سورة البقرة ، آية ٢٦٥ . | ( ٤ ) سورة البقرة ، آية ٢٥٤ . |
| ( ٥ ) سورة البقرة ، آية ٢٤٥ . |                               |

وغيرها من الآيات التي توضح أهمية الانفاق بالمال في سبيل الله وتبين مدى  
الأجر والجزاء المنتظر لهؤلاء الأشخاص وأن السعادة في انفاق المال وإيثار الغير به  
وهذا بلاشك يخالف ما وصل إليه أرسطو من أن السعادة تكون في المال والحياة  
المادية .

المبحث الثاني

الأخلاق الإسلامية

قبل انبثاق فجر الاسلام كانت الأمة العربية خالية من العلوم والفلسفات والبحث العلمى المنظم فلم يعرف فى العصر الجاهلى فلاسفة دعو الى مذاهب معينة كالذى رأيناه عند اليونان من سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم لأن البحث العلمى لا يكون الا حيث تعظم المدنية وتوجد الحضارة وما كان أبعد أكرية الأمة العربية عن الحضارة والمدنية فى تلك العصور الجاهلية • بل كل ما كان عند العرب انما يعنى من الأفكار السطحية حول الخير والشر ونظرات خاصة الى بعض الفضائل العظيمة • فقد كان للعرف فى الجاهلية حكام وشعراء يرددون فضائل أبطالهم وشجعانهم ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحثون على الفضائل ويحذرون من الرذائل •

والأدب العربى مملوء بمواعظ " قى بن ساعده " وزهير بن أبى سلمى وحاتم الطائى •

غير أن ذلك لم يكن علما ولا فلسفة بالمعنى المتعارف بل كان استشرافا الى الابعاد فى التأمل والفكر لم يصل بأصحابه الى عدهمى الباحثين والمفكرين ولما أشرق نور الاسلام فى أفق الأمة العربية ليسرى منها الى بقية الأمم كانت تعاليمه سهلة التعلم (١) بينه المقاصد بعيدة عن تعقيد النظريات الفلسفية " انا أنزلنا قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " وقد دعا الاسلام الى الاعتقاد بأن الله محصور كل شىء فى العالم فما فى الكون من ظواهر مختلفة ومخلوقات متنوعة من الحب فى ظلمات الأرض الى السماء ذات البروج فانما عنه صدر وبه قام وانتظم •

وكما خلق الانسان وضع له نظاما يتبعه وطريقا يسير عليه ويشرع له أمورا من صدق وعدل أمر باتباعها وجعل السعادة فى الدنيا والنعيم فى الآخرة جزاء من اتبعها • وجعل

(١) سور يوسف ، آية ٢ •



عكسها من كذب وظلم وذائل نهى عنها وحذر من ارتكابها • وجعل الشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة عقوبة من ارتكبها • " ان الله يأمر بالعدل والاحسان وأيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى " • " من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحييناه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون " •

اذن جعل الله سبحانه وتعالى صلاح الدنيا يتوقف على أمور : من عدل وصدق وأمانة وجعل فسادها بأضدادها • فأمر بما يتوقف عليه صلاح الدنيا وانتظام شئونها ونهى عما يسبب فسادها •

وط توقفت عليه مصلحة الناس وبدونه يفسد نظامه كالمحافظة على الأرواح والأموال أمر به لاهواده فيه وسماه فرضا ومن أجل هذا جعل أعظم عقوبة للقاتل والسارق

فتعاليم الاسلام الأولى سهلة وبسيطة وكافية في الارشاد والتوجيه وافية بالمصالح شافية في تمييز مناهج الخير والشر حائثة على التأمل والتدبر " ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب " •

غير أنه بتعاقب الأيام والسنين وتوالى الفتوح الاسلامية دخل فى الاسلام من ليسوا بمكانه الصدر الأول من السلف الصالح فى قريتهم من الوحي ومن لهم آراء وأفكار من أديانهم السابقة فظهرت البدع فى الدين نبهت أنهلن المسلمين الى ضرورة التعليم والارشاد والبحث والتنقيب والتأليف والتدوين فاتسع أفق البحث وساعده اتساع رقعة الدولة الاسلامية فأسست المدارس وتفرعت المذاهب وكثر الجدل والنقاش فكان للاسلام علم وفلسفة وتعاليم أخلاقية •

والمنتبج لما كتبه الاسلاميون فى الأخلاق يراه لا يعدو سبيلين :-  
احدهما : تسوده النزعة الدينية ويتضاءل فيه نصيب البحث النظرى الفلسفى المطلق فهو جدير بأن يكون من قس الأخلاق العقلية التى تعنى ببيان الحقوق والواجبات

وتوضيح المنهم العملى للفضائل دون الاهتمام بالبحث النظرى المجرى ومن هذا الفريق  
الامام الغزالى فى كتابه " الاحياء " .

٠ ثانيهما : تسوده الروح الفلسفية واطلاق العنان للعقل المجرى وعدم الاكتراث  
أو الاهتمام بربط أبحاثهم بالعقيدة وإذا جاء ذلك يكون عرضاً وربما يتناقض هذا العرض  
العقيدة . ومن هذا الفريق ابن مسكويه والفارابى واخوان الصفا وكثير من فلاسفة الاسلام .

وسوف نتناول فى دراستنا كل من الفريقين ونبدأ بعون الله وتوفيقه بالحديث عن  
الأخلاق عند الامام الغزالى الذى يمثل السبيل الأول لما كتبه الاسلاميون فى الأخلاق

### أولاً : ابن مسكويه

لم يتفق المؤرخون بعد على تحديد السنة التي ولد فيها مسكويه وأرجح الآراء في هذا الصدد أنه ولد ما بين سنة ٣٢٥ هـ : ٣٣٠ هـ . كما أن أرجح الآراء كذلك بشأن وفاته تلك التي ذهبت الى أنه قد عمر ما يقرب من قرن كامل ومن ثم تكون وفاته ما بين سنة ٤٦٠ هـ : ٤٢٥ هـ .

واسمه كادلا هو أبى على أحمد بن محمد المعروف بابن مسكويه وكلمة مسكوية يبدو أنها مشتقة من المسك وهو من أحسن أنواع العطور .

وإذا كان الفارابي يلقب بالمعلم الثاني بعد المعلم الأول الذي هو أرسطو فان بعض المؤرخين قد أطلق على فيلسوفنا هذا الاسم " المعلم الثالث " .

وقد لقب بأبى على نظرا لأنه كان شيعيا مخلصا آمن بامامة على وبأولويته ففى خلافة المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن الطابع العام لفلسفة ابن مسكويه يظهر لنا كيف أنه يعلى من شأن العقل الى حد كبير وهو فى اعلائه لقدر العقل قد تأثر بفلاسفة اليونان وخاصة أفلاطون وأرسطو لذلك نجد معالجته للفلسفة الأخلاقية بها مسحة يونانية لاتغيب عن الباحث .

وأیضا نلاحظ أن الغاية من الفعل الخلقى عند مسكويه هى السعادة القصوى أو الخير التام أو سلوغه الكمال الأقصى فاذا فتشنا عن هذا الخير الأقصى أو السعادة التامة وكيف يصل الانسان اليها لوجدنا أنه يرى أن الخير كل الخير — والسعادة كل السعادة هى فى الوصول الى الله والعمل بكتابه ومشاهدة وجهه الكريم . وهو هنا يكاد يلتقى مع الصوفية " وأقول يكاد لأنه لیبى صوفيا " .

### موقف مسكويه من الصوفية :

يعارض مسكويه موقف الصوفية في النفر ولا يقرهم عليه بل ويصفهم بالجماد ويشبههم

بالأنموات •

فيقول : " ولذلك ذمنا المتوسمين بالزهد اذا تفردوا عن الناس وسكنوا الجبال والمغارات واختاروا التوحش الذى هو ضد التمدن لأنهم ينسلخون عن جميع الفوائد الخلقية ... وهل هو الا بمنزلة الجماد والميت " (١)

اذن فهو يرفض تلك الاتجاهات الانعزالية والتي اعتقدت خاطئة أن الفضيلة التى حيث عليها الدين هى فى البعد عن الناس والانطواء على النفس وهى تلك الحياة التى يمارسها الزهاد والرهبان للحياة الاجتماعية •

فالانسان فى نظره مدنى بالطبع فيقول " ان الانسان من بين جميع الحيوان لا يكتفى بنفسه فى تكميل ذاته ولا بدله من معاونه قوم كثيرى العدد حتى يتم به حياته طيبه ويجرى أمره على السداد ولهذا قال الحكايل ان الانسان مدنى بالطبع أى هو محتاج الى مدينة فيها خلق كثير لتتم له السعادة الانسانية فكل انسان بالطبع وبالضرورة يحتاج الى غيره فهو لذلك مضطر الى مضافة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة ومحبتهم المحببة الصادقة لأنهم يكملون ذاته ويتممون انسانيته وهو أيضا يفعل بهم مثل ذلك " (٢)

اذن يدعو لمخالطة الناس لأن من يبتعد عنهم لاتظهر فيه العفة ولا النجدة ولا السخاء ولا العدالة بل تصح مافيه من قوى باطلة لأنها لا تتعامل ولا تتفاعل مع من يظهرون مافيا من خير أو شر •

---

(١) تهذيب الأخلاق ، ابن مسكويه ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ •

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥ •

وان كان مسكويه يرفض مسالك الصوفية فى الزهد والرهبانىة الا أنه فى الوقت نفسه لا يؤيد الاغراط فى اللذات وجعلها الفرض الأسمى للانسان فى الحياة حيث يقول : " وقد ظن قوم أن كمال الانسان وغايته هما فى اللذات الحسية وأنها هى الخير المطلوب والسعادة القصوى وظنوا أن جميع قواه الأخرى انما ركبت فيه من أجل هذه اللذات والتوصل إليها وأن النفس الشريفة التى سميناها ناطقة انما وهبت له ليرتب بها الأفعال ويميزها ثم يوجهها نحو هذه اللذات لتكون الغاية الأخيرة هى حصولها له " (١) فهو يدعو الى أن يأخذ الانسان من هذه اللذات بالقدر المعقول حتى لا يخرط الانسان من مرتبته كأشرف مخلوق فى هذا العالم يمتاز بالتفكير والتحكم فى قواه البهيمية والشعورية وألا انحط الى مرتبة الحيوان " (٢) ، ويتحدث فى نفس المعنى الامام ابن قدامة المقدس فيقول : ان شهوات النفوس لم توضع الا لفائدة اذ لولا شهوة المطعم ما حصل تناول الغذاء ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل وانما المزموم فضول الشهوات وطغيانها وثمة قوم لم يفهموا هذا القدر فأخذوا يتركون كسل ما تشتهي النفس وهذا ظلم لها باسقاط حقها فان لها حقا بدليل قوله صلى الله عليه وسلم " ان لنفسك عليك حقا " حتى ان قائلا منهم يقول : لى كنا وكنا سنه أشتى كنا فلا أتناوله وهذا انحراف عن الحل وخلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه يتناول المشتى من الحلو والغسل وغيرهما فلا يلتفت الى زاهد قل علمه فحرم نفسه حظها من المشتى على الاطلاق فانه الى الظلم أقرب منه الى العدل وانما يترك المشتى واذا صعبت الطريق اليه مثل أن لا يحصل الا بوجه مكروه أو يخاف من تناوله انحلال عزمه فتطمع النفس فى استدامته أو يحذر من ذلك زيادة شبع فيثقله عن عبادته • فأما تناوله فى بعض الأوقات لتقوية النفس فذلك كالطب للمريض يمدح ولا يذم ولا بأس بالرفق بالنفس لتقوى على السلوك " •

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ص ٥٠ ، ج١ كردستان العلمية، ١٣٢٩هـ •

(٢) المرجع السابق ، ص ٦١ ، ٦٢ •

(٣) مختصر منهاج القاصدين ، الامام أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن قدامة

المقدس ، ص ١٥٧ ، دار بدر ، القاهرة ، كوبرى القبة •

ويظن بعض الباحثين أن مسكويه الذى نقد منهج المصوفية قد وقع فيما عابه عليهم فى نظرية المعرفة فيذكر أن السعيد التام هو من توفر حظه من الحكمة فهو ينعم بروحانية بين الملائكة الأعلى يتخذ منهم لطائف الحكمة ويستتير بالنور الإلهي ويكون مستعدا لقبول القبض من المولى ولا بد لذلك من صرف القصد الى الأمور الإلهية وقطع كل صلة بالحسوسات حتى يصل الى مرتبة الملائكة المقربين عن طريق العشق الإلهي من حيث أن السعادة الخالصة لله عز وجل ثم الملائكة ثم المتألهين . (١)

والواقع أنى أرفى هذا التجنى على مسكويه واعتباره أنه متناقض مع نفسه اذا رفسى مسلك العزلة والرهبة للمتصوفة ثم اذا أعلن أن السعيد هو من توفر حظه من الحكمة فينعم بروحانية بين الملائكة الأعلى الى أن يصل الى مرتبة الملائكة المقربين عن طريق العشق الإلهي .

وسبب دفاعى ونفى أن يكون مناقض لنفسه هو قوله :

" فالإنسان له مرتبة فى نظام التسلسل العام للعالم فهو مرتبط بما دونه من المخلوقات كما أنه مرتبط بما فوقه منها والإنسان قد يحيا أحيانا قريبا من الأفق الحيوانى اذا غلبته قواه البهيمية ولكن هذا لا يمنع من أن يصل أحيانا أخرى الى أفق الملائكة فالإنسان كائن مرن له قوة الهبوط الى ما هو دونه وله قوة الارتقاء الى ما هو أعلى منه وهو لا يخضع فى هذا الى قوة أسمى منه تتحكم فيه وإنما الى قوة خاصة به داخلية هى قوة العقل الى من أبرز مظاهرها التمييز والإرادة فبفضلها يمكنه أن يكون حكيما ويمكنه أن يكون نبيا وعليه فمصور الإنسان فى يده لا فى يد غيره وهو يصرف أمور حياته كيفما شاء . " (٢)

---

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ١٩٨ .

(٢) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ١٩٨ .

### أهمية علم الأخلاق :

يرى مسكويه أن علم الأخلاق أهم صناعة من الصناعات التي ينبغي للإنسان أن يشغل بها وذلك لأنه علم ينصب على جوهر الإنسان فهو يبحث في السلوك الخافى بالإنسان دون سائر الحيوانات الأخرى . ولما كان الإنسان أشرف موجود من موجودات العالم الأرضى فان العلم الذى يختص به من هذه الناحية هو أشرف العلوم .

وبما أن العقل الإنسانى هو مناط التكليف الإلهى . اذن فعلى ضوء وجود هذا العقل سوف يجازى الإنسان فيثاب أو يعاقب .

وعلى ضوءه يستطيع هذا المرء أن يكون فى أقرب مكانة من الله تعالى ويستطيع أن يهوى الى الدرك الأسفل من النار .

فكلما اقترب الإنسان من الكمال العقلى اقترب فى الحقيقة من الله تعالى . وكلما بعد عن العقل وجعل قيادة سلوكه لعنان الحس والشهوة فانه يهوى الى الحضيض حيث يقترب من الحيوانات مبتعدا عن جوهر الإنسان .

وعند مسكويه أن وجود الجوهر الإنسانى متعلق بالقدرة الإلهية . فالله مسئول عن خلقه ووجوده أما عدا ذلك فينبغى أن يرد الى الإنسان . أى أن تهذيب أخلاق المرء يرد اليه لا الى غيره . فهو وحده المسئول عن سلوكه وهو وحده الذى يستطيع أن يهذب طبعه ويغيره بما يتفق والقيمة الإنسانية .

فعلى المرء أن يدرك جوهره : ماهو وأن يدرك أن كمال المرء هو فى الأفعال الخاصة به والتي لا يشاركه فيها غيره . فكمال الفرس مثلا هو فى هيئته وفى سرعة عوده فاذا فقد كمال الهيئة وسرعة العدو فانه لن يكون حينئذ كاملا لأنه يكون فى هذه الحالة أقرب الى الحمار منه الى الفرس .

وعلى ذلك ذهب مسكويه الى أن الكمال الخاص بالانسان كمالان من حيث أن له قوتين : أحدهما عالمية والأخرى عاملة فلذلك يشترك باحدى القوتين الى المعارف والعلوم وبالأخرى الى نظم الأمور وترتيبها . (١)

أما عن كماله الأول الخاص بالقوة العالمية فهو أن يصير في العلم بحيث يصدق نظره وتصح بصيرته فلا يغلط في اعتقاد ولا يشك في حقيقة ، وينتهي في العلم بأمور الموجودات على الترتيب الى العلم الالهي الذي هو آخر مرتبة العلوم ويثق به ويسكن اليه ويطمئن قلبه وتذهب حيرته وينجلي له المطلوب الأخير حتى يتحد به .

أما الكمال الثاني الذي يكون بالقوى الأخرى العاملة فهو الكمال الخلقى ومبدؤه من ترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها حتى لا تتغالب وحتى تتسالم هذه القوى فيه وتصدر أفعاله كلها بحسب قوته منتظمة مرتبة كما ينبغى وينتهي الى التدبير المدنى الذى يرتب الأفعال والقوى بين الناس حتى تنتظم ذلك الانتظام ويسعدوا سعادة مشتركة كما كان ذلك فى الشخص الواحد .

فاذا الكمال الأول النظرى منزلته منزلة الصورة والكمال الثانى العملى منزلته منزلة العادة وليس يتم احدهما الا بالآخر لأن العلم مبدأ والعمل تام والمبدأ بلا تمام يكون ضائعاً والتام بلا مبدأ يكون مستحيلاً . (٢)

---

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٤٧ .

(٢) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٤٧ ، ٤٨ .



### الأخلاق فطرية أم مكتسبة : —————

بهذا التساؤل يبدأ مسكوية بحث ومناقشة المشكلة الخلقية فقد رأى أن البعض يميلون بوجه عام إلى القول بأن الأخلاق مكتسبة وليست فطرية بينما يميل البعض الآخر من العلماء بوجه عام إلى القول بفطريته الأخلاق وبأن الإنسان يستطيع أن يميز بطبيعته بين الخير والشر . فأدرك هذين الموقفين وقبل أن يوضح رأيه عرف الخلق أولاً فقال أن الخلق هو حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رويصة .

وهذه الحال تنقسم إلى قسمين :

منها ما يكون طبيعياً من أصل الزواج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب . ويهيج من أقل سبب ومنها ما يكون مستقفاً بالعادة والتدريب وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستتر عليه أولاً فأول حتى يصير ملكه وخلقاً . ( ١ )

الخلق إذن صفة أو خاصية من خواص النفس البشرية وبواسطة هذه الخاصية

تستطيع أن تميز بين الخير والشر بين ما ينبغي فعله وما لا ينبغي فعله .

وهذه الخاصية قد حار الناس في شأنها من حيث وجوبها : فمن قائل بفطرتها

ومن قائل بأنها مكتسبة .

ولقد أدرك مسكوية بمهارة النتائج المترتبة على كل الموقفين : —————

فلو أنه قال بأن هذا الخلق فطري في الإنسان فإنه حينئذ يسلم بوجود اناس أخيار

---

( ١ ) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٢٧ .

بالفطرة وأشرار بالفطرة • ويترتب على ذلك أننا لا ينبغي أن نلوم الخير على فعله الخير والشرير على ارتكابه فعل الشر • وهذا معناه عدم مساءلة هذا على خلقه الحميد وذلك على خلقه السيء •

فإن هذا الاتجاه من شأنه أن يقف حائلاً دون اصلاح الشريرين • فطالما أن الشر أو الخير يجرى في دمه وطالما أن هذا الشر - بناء على هذا الرأي - طبيعة ثابتة فإنه من غير المعقول أن نسعى إلى تغيير هذه الطبيعة أو أن نهذبها •

فإن مثل هذا الرأي يؤدي إلى ابطال قوى التمييز والعقل وإلى رفض السياسات كلها وترك الناس همجا مهملين وإلى ترك الأحداث والمصائب على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم • أو توجيه وتهذيب وتعليمهم أحكام الشريعة •

أما إذا أخذنا بالاتجاه الآخر القائل بأن الخلق أمر مكتسب فإن مسكوية وإن كان يميل إلى مثل هذا الرأي إلا أنه لا يقربه كلية • بمعنى أنه لا يقول بأن الخلق كله مكتسب من خلال التجربة لأنه يرى أن المرء لا يمكن أن يكتسب شيئاً أو يتعلم شيئاً ما لم يكن لدى هذا المرء استعداداً نحو تعلم هذا واستعداداً نحو الامتناع عن ذلك • ورأيه أن من يجحد هذا الرأي كمن يحرق في بحر من الماء • لأنه كيف اسعى إلى تعليم فرد ما إذا لم تكن التربة الفكرية له صالحة وقابلة لتلقي العلم والمعرفة •

معنى هذا أن فيلسوفنا يرفض الرأيين المتطرفين القائل أحدهما بفطرية الأخلاق • والآخر القائل بأن الفطرة صفحة بيضاء وليس فيها شيء البتة إن مسكوية يرى أن المرء مطبوع على قبول الأخلاق واكتسابها • أي أن التعليم باعتباره استعداداً موجوداً لدى كل الناس • ليس ثمة خير بالفطرة وشرير بالفطرة • صحيح أن هناك من ينفعل من الناس انفعالا سريعاً لأنه الأسباب وهناك من يضحك منهم على توافقه الأمور وهناك من يحزن على أمر قد لا يحزن عليه غيره فهذه أمثلة فطرية يولد بها

الانسان لكننا نستطيع أن نهذب هذه الأمزجة وأن نوجهها توجيها سليما وأن  
نكسبها من خلال العقل مبادئ وقيم بحيث توجه انفعالها نحو صيانة هذه  
المبادئ ومراعاتها •

أى أن فيلسوفنا يرى أننا نستطيع بالتأديب والتعليم أن نكتسب المبادئ  
والمعايير الخلقية •

ويقول مسكويه فى صيغة قياس منطقى :

ان كل خلق يمكن تغييره ولا شىء مما يمكن تغييره هو بالطبع • فإذا  
لاخلق ولا واحد منه بالطبع • (١)

أى أنه يرى أن تغيير أخلاق الانسان وسلوكه واكتسابه للخير والشر دليل  
قاطع على أن الأخلاق ليست فطرية وليست فى طبع الانسان لأن الفطرة والطبع  
أمور لا تتغير ولا تتبدل بل هى موجودة وثابتة دائما فى الانسان فمثلا النار محرقة  
دائما وهذا طبع فيها والحجر يهوى الى أسفل ولا يستطيع أحد أن يغير حركته الى  
أعلى والماء ينساب الى الأرض المنخفضة لا العالية • وهكذا معنى هذا أن أخلاق  
المرء مادامت تتغير وتتبدل فان ذلك دليل على أنها مكتسبة وليست فطرية •

النفس عند مسكويه :

يعطى مسكويه أهمية خاصة للنفس لأنه يرى أن مشكلة الأخلاق هى مشكلة  
النفس لا ارتباط هذا بتلك •

فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن الأخلاق الا اذا تحدثنا عن النفس سواء من  
حيث طبيعتها ومن حيث صلتها بالجسم •

وهل هى جزء منه بحيث تغنى بغناؤه أم لا ؟

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٣٧ : ٤٠ •

يبدأ مسكوية حديثه عن النفس مبينا أن هذه النفس ليست هي الجسم وليست جزء منه وليست حالا من أحواله وانما هي شيء آخر متميز عن البدن تمام التمييز .

وقد استدلل على ذلك على الوجه التالى :

(١١) نحن نشاهد صدور بعض الحركات على الأجسام وهذه الحركات أو أن شئت الأفعال تضاد الجسم كالمعود الى أعلى والانتقال من مكان الى آخر الى غير ذلك . وهذا يدل على أن ثمة قوة أخرى خلف الجسم هي الفاعلة لكل ذلك . لأن هذه الأفعال لو كانت صادرة عن الجسم من حيث هو جسم لوجب اشتراك سائر الأجسام فى هذه الأفعال . ومن المعلوم أن الأجسام الأخرى لا تصدر عنها هذه الأفعال .

وعلى ذلك فان النفس هي الحركة للجسم حركة مخالفة لطبيعته : وهذه النفس متميزة عن الجسم لوجودها فى بعض الأجسام دون البعض الآخر .

ثم أن الجسم محدود بمتناه وقدرته محدوده متناهية ونحن نعلم أننا نستطيع ادراك موجودات ومعرفة أمور تتدر عن طاقة الجسم وقدرته وهذا يدل على أن الادراك لا يتم بالجسم ولكن بقوة أخرى غير الجسم هي النفس .

ثم أن الجسم يستحيل ويتغير يزيد وينقص ويظل الانسان مدركا طوال ذلك كله أنه هو هو . وهذا يدل على ان ثمة جوهرًا آخر غير الجسم به يكون الانسان انسانا .

ويرتبط بما سبق أن كثرة التجارب تشد الجسم وتؤدى الى هلاكه أما كثرة التجارب فانها تؤدى - فيما يتعلق بالنفس الناطقة - الى تنميتها وتقويتها . وهذا يدل على أن قوة الادراك العقلية متميزة عن البدن . فالنفس تزداد بكل معقول تحصله قوة على قبول غيره دائما أبدا بلا نهاية . وهذه حالة مقابلة لأحوال الجسم وخاصة فى غاية البعد من خواصها .

ثم أن الجسم له صورة واحدة ولا يقبل أية صورة الا بعد مفارقة الصورة الحاملة له . لكنا نشعر أننا نستطيع أن ندرك عدة صور متباينة متمايزة . وهذا يدل على تميز النفس من البدن .

يقول ابن مسكويه في هذا الصدد " اذا قبل الشمع صورة نقش في الخاتم لم يقبل غيره من النقوش الا بعد أن يزول عنه رسم النقش الأول . وكذلك الغضة اذا قبلت صورة الخاتم . وهذا حكم مستقيم مستمر في الأجسام ونحن نجد أنفسنا نقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات على التمام والكمال من غير مفارقة للأولى ولا معاقبة ولا زوال رسم بل يبقى الرسم تاما كاملا وتقبل الرسم الثانى ايضا تاما كاملا . ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبدا دائما من غير أن تضعف أو تقصر في وقت من الأوقات عن قبول ما يرد ويطرأ عليها من الصور بل تزداد بالصورة الأولى قوة على ما يرد عليها من الصورة الأخرى . وهذه الخاصية لخصوا من الأجسام . ولهذه العلة يزداد الانسان فهما كلما ارتاض وتخرج في العلوم والآداب . فليست النفس اذن جسا . (١) ويقول : " ان النفس ليست بجسم ولا بجزء من جسم ولا حال من أحوال الجسم وأنها شيء آخر مفارق للجسم بجوهره وأحكامه وخواصه وأفعاله " . (٢)

وينتهى مسكويه في هذا القول " فلا محالة أن جوهرها (النفس) مفارق لجوهر البدن ومخالف له في طبيعه . وأيضا فان النفس وان كانت تأخذ كثيرا من مبادئ العلوم من الحواس فلها من نفسها مبادئ آخر وأفعال لا تأخذها عن الحواس البتة وهى المبادئ العالية التى تتبنى عليها القياسات الصحيحة . وذلك أنها اذا حكمت أنه ليس بين طرفى النقيض واسطة فانها لم تأخذ هذا الحكم من شيء آخر لأنه أولى وله أخذته من شيء آخر لم يكن أوليا

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٦٥ .

(٢) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ١١ .

أيضا فان الحواس تدرك المحسوسات فقط أما النفس فانها تدرك أسباب الاتفاقات  
وأسباب الاختلافات التي من المحسوسات وهى معقولاتها التى لا تستعين عليها  
بشئ من الجسم •

وكذلك اذا حكمت على الحس أنه صدق أو كذب • فليست تأخذ هذا الحكم من  
الحس لأن الحس لا يصاد نفسه فيما يحكم فيه • (١)

النفس اذن متميزة وهى تختلف فى طبيعتها عن طبيعة الجسم وفى مطالبتها عن  
مطالبة وأهم من هذا وذلك أن النفس من عالم آخر غير عالم المادة لأنها سوف تصعد  
الى بارئها أما الجسم فسوف يفسد وينحل • أى أن فناء الجسم لا يمتد الى فناء  
النفس ففناؤه ليس دليلا على فنائها أو عدمها • لأنها ليست جزء منه •

ولعل الخطأ الأكبر الذى ارتكبه الفلاسفة الحسيون هو أنهم اعتقدوا أن النفس  
مرتبطة بالجسم وأنها جزء منه وتابعة له وأنها تغنى بفنائها وهم لهذا السبب الرئيسى  
اعتقدوا أن المتعة الحسية هى كل مافى الأمر • وأنها مقياس الفعل الخلقى فالأفعال  
التي تخلوا من متعة حسية هى فى رأيهم أفعال شريرة • أما تلك المتعة واللذيزة  
فهى أفعال خيرة • هؤلاء الناس ظنوا أن كمال الانسان وغايته عما فى اللذات  
الحسية وأنها هى الخير المطلوب والسعادة القصوى وظنوا أن جميع قواه الآخر انما  
ركبت فيه من أجل هذه اللذات والتوصل اليها وأن النفس الشريفة التى سمينها ناطقة  
انما وهبت له يرتب بها الأفعال ويميزها ثم يوجهها نحو هذه اللذات لتكون الغاية  
الآخيرة هى حصولها له على النهاية والغاية •

وظنوا أيضا أن قوى النفس الناطقة أعنى الذكر والحفظ والروية كلها تزداد لتلك  
الغاية • • ولأجل هذه الظنون التى وقعت لهم جعلوا النفس المميزة الشريفة كالعبد  
المعين وكالأجير المستعمل فى خدمة النفس الشهوية لتخدمها فى الأكل والشارب والمناج  
وترتيبها لها وتعددها اعدادا كاملا موافقا •

---

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٩٠٨

وهذا هو رأى الجعير من العامة وجهال الناس •

ويعجب مسكوبة من هؤلاء الحسنيين للذين ينافسون - على حد قولهم -  
الخنafs والديدان وصغار الحشرات فى تتبع اللذات الحسية • ان عظمة الانسان  
تكن فى البعد عن اللذة الحسية والاقتراب من المتعة الذهنية من اللذة العقلية •  
ان كمال الانسان فى تشبهه بالملائكة والآلهة لاحسب سلوكه طبقا للحيوانات الدنيا •  
وقد أشرنا الى أن كمال المرء فى خاصيته التى تميزه عن غيره وهذه الخاصية أشرنا  
الى أنها العقل أو النفس الناطقة • وعلى المرء اذا أراد أن يكون سعيدا أن يقبل  
نصح العقل ورشده وهدايته لا أن يتبع مطالب الغرائز والسير تبعاً للهوى والنزوع  
البدنى •

ذلك أن اللذة - كما يرى فيلسوفنا - ليست الا راحة من ألم أو خلاصاً من  
أذى لحق المرء •

فمن يرضى لنفسه باللذة الحسية غاية قصوى فقد رضى أن يكون عبداً لشهواته  
لاسيما عليها وبُست العبودية •

أضف الى ذلك من جهة أخرى أنه ينبغي أن يعلم هؤلاء الشراة الحسيون أن  
الغرض من الأكل والمشرب هو المحافظة على البدن وتحسينه ضد المهالك التى تترتب  
على عدم اشباع هذه الحاجات الأولية • أى أن اشباع الجسم وسيلة وليست غاية •  
أنه وسيلة لحياة الجسم والنفس معا • فاذا انقلبت الوسيلة الى غاية كانت الطامسة  
الكبرى • فبعت أن يكون جمع المال وسيلة للسعادة أضحى جمعه غاية فى حـ  
ذاته • فهل هذا يعقل !! • •

الأخلاق وارتباطها بالنفس الناطقة :

لكل موجود من الموجودات قواه الخاصة به والتي تميزه عن غيره من موجودات أخرى • وبدون هذه القوى لا يصير الموجود موجودا • بمعنى أننا في مجال الفلسفة نميز بين نوعين من الصفات : صفات أولية وصفات ثانوية • صفات ذاتية وصفات عارضة • والفرق بين هذين النوعين من الصفات أن الصفات الذاتية أو الأولية إذا فسرت فسر الموجود ذاته • أعني أن هذه الصفات هي جوهر الموجود • فهو موجود بوجودها فاسد بفسادها •

ولا نستطيع أن نتصور الموجود بغير هذه الصفات أما النوع الآخر من الصفات فهو الصفات العارضة أو الثانوية • وهي صفات يمكن أن تكون موجودة للشيء أو غير موجودة لأن وجودها ليس شرطا رئيسيا لوجود الموجود • فوجودها وجود عارض مؤقت • ولنضرب لذلك مثلا كي يتضح لنا الفرق بين النوعين من الصفات • فالجسم لابد أن يكون طويلا عريضا عميقا •

هذه الصفات أو الأبعاد الثلاثة خواص ذاتية للأجسام • لأن كل جسم لابد أن يكون له طول معين وعرض معين وعمق معين • وبدون هذه الخواص الثلاثة لن يكون ثمة جسم • ولهذا قلنا أن هذه صفات أولية أو ذاتية لارتباطها بالموجود • اما اذا كان هذا الجسم ابين أو اصفر أو متحرك أو ساكن فهذه أعراف لأنها لو ارتفعت لظل الجسم كما هو •

فالحركة عرض يلحق الأجسام لأن هذه الأجسام تسكن وتبقى كما هي • فليست الحركة ولا البياني أو غيرهما من صفات عارضة شرطا أساسيا في وجود الشيء •

على ضوء ذلك نقول : ان لكل موجود من الموجودات خواص ذاتية تميزه عن غيره من كائنات وله قوى خاصة به يصير هو ما هو بها • ولولا هذه القوى لفقد



الشيء أو الموجود خاصيته التي تميزه أو التي يتميز بها عن غيره —————  
موجودات •

ولما كان الانسان من بين سائر الموجودات هو الذى يمكن أن نقوم سلوكه  
من جهة الخير والشر ونقول أن أفعاله طيبة أو رديئة ولما كان هو الموجود الذى  
يلام ويحاسب على أفعاله ، فاننا لهذا ينبغي أن لا ننظر فى هذا الوقت الى قواه  
الأخرى التى يشارك بها الحيوانات والنباتات لأننا اذا نظرنا الى هذه القوى لابتعدنا  
عن مجال علم الأخلاق واقتربنا ان لم نكن اقتحمنا ميدان العلم الطبيعى •

فالعلم الطبيعى هو الذى يختص بدراسة الموجودات " الكائنات الطبيعية بما  
فى ذلك الانسان من حيث أنه كائن حى حساس • لهذا وجب فى مجال الأخلاق  
أن نركز على الانسان باعتباره كائنا عاقلا ، باعتباره كائنا حرا ، باعتباره موجودا  
عاقلا تصدر عنه أفعاله بناء على عقديده واختياره وإرادته •

ومن هنا ترتبط الأخلاق بالجزء الناطق من النفس ترتبط بالإرادة لأنها قدرة  
أو طاقة من شأنها التمييز بين الخير والشر ومن هنا ايضا ترتبط الأخلاق بالحرية  
لأن الإرادة تعنى الحرية • والانسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص به  
لا يشاركه فيه غيره وهو ما صدر عن قوته المميزه المروية • فكل من كان يتميزه أصح  
ورويته أصدق واختياره أفضل كان أكمل فى إنسانيته •

والأخلاق تسعى الى تحقيق الخير والسعادة للانسان •• ومن هنا أكد  
مسكويه على أن الخيرات هى الأمور التى تحصل للانسان بإرادته وسعيه فى الأمور  
التي لها وجد الانسان ومن أجلها خلق • والشروع فى الأمور التى تعوقه عن هذه  
الخيرات بإرادته وسعيه أو كسله أو انصرافه • (١)

---

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ص ١٣، ١٤ •

فالإرادة شرط رئيسي لعد الفعل أخلاقيا • فهي جوهر ومن ثم أساس الأخلاق •  
فلكى نحكم على أن الانسان خير أو شرير ينبغى أن نقف على إرادته : ان كانت  
إرادة حرة أو إرادة مملوبة •

ينبغى أن نترك ان كانت إرادته متجهة بدافع الخير نحو هذا السلوك أم بدوافع  
أخرى شخصية • فالإرادة اذا غابت خلا الفعل من كل عنصر أخلاقى حتى وان جاء  
فى نتيجته متفقا مع القانون الخلقى • ذلك ان ما يميز الكائن العاقل عن الحيوانات  
الأخرى أنه يعمل بناء على إرادته فهو كائن مريد • أما الكائنات الأخرى فتعمل طبقا  
لطبيعتها طبقا لفطرتها وجبلتها • ولهذا فانها ليست كائنات أخلاقية •

وعلى ذلك فان على الانسان أن يتمسك بجوهريته وأن يسعى الى تحقيق  
انسانيته التى تميزه عن الموجودات الأخرى •

معنى هذا أننا أن نحصر — بالعقل — على الخير الذى هو كمالنا والذى من  
أجله خلقنا وأن نتجنب فى نفس الوقت — وبالعقل أيضا — الشرور التى تعوقنا  
وتمنعنا عن تحقيق آدميتنا وانسانيتنا •

ومن هنا فان الناس متفاوتون ومترتبون فى الشرف والخسة طبقا لعدى تحقيق  
كل منهم لخيره وسعادته واتباعه العقل • فبين سماع صوت الحى الخالى وبين سماع  
صوت العقل الخالى توجد عدة مراتب من النفوس الانسانية وأعلاها مرتبة تلك النفوس  
التي تخلصت من أهواء البدن وشهواته وميوله وأخذت فى تجليه مراتبها حتى تستطيع  
أن ترى فيها تجلى النور الالهى • وفى مقابل هذه الرتبة توجد رتبة النفوس الضالة  
وهى تلك النفوس التى عجزت عن ادراك كنه الانسان وجعلت همها المتعة الحسية  
وسخرت نفسها وقواها لخدمة البدن ونزواته واعتقدت — وأهمه — أن اشباع الحاجات  
الأولية هو كل مافى الأمر وأنه غاية الغايات • هذه النفوس تنسى بلا شك عالمها  
وتعتقد — خاطئة — ان الحياة الوحيدة وأن ارتباطها بالبدن ارتباط دائم وليس

ارتباطا عارضا أو مؤقتا • هذه النفس أضحت مرآتها صده ومن ثم أضحت بحجاب الشهوة والحس عاجزة عن قبول التجلي والاشراق الالهيين • هذه النفس هي التي مرتبة الحيوان أقرب منها إلى الانسان لأن المرء حينئذ قد سوى بينه وبين الحيوانات اللاعاقلة •

والفاضل من الناس هو من يسعى إلى إعلاء سلطة العقل على سلطة الحس والشهوة • أما الشرير فهو ذلك الذي يعلى من سلطة الشهوة على سلطة العقل • (١)

#### قوى النفس :

أوضحنا فيما سبق أمرين :

الأمر الأول : أن النفس متميزة عن الجسم وأنها مستقلة عنه ومع هذا فإنها تؤثر فيه وتتأثر به هذه النفس باقية لا تفنى بفناء الجسم

الأمر الثاني : هو أن الأخلاق مرتبطة بالنفس الانسانية وأن الانسان يستطيع أن يفعل الخير ويستطيع أن يفعل الشر •

على ضوء ذلك نقول : إذا كانت الأخلاق مرتبطة بالنفس الانسانية ومن حيث أن النفس مصدر السلوك الانساني الذي يتصل بالخير والشر فإن هذا معناه أن الخير والشر يردان إلى هذه النفس •

وهذا معناه أننا نستطيع أن نميز في داخل النفس الانسانية بين قوى للخير وقوى للشر • إذ أنه يصعب على المرء أن يدرك أو يتصور ان ماعنه وبه يصدر الفعل الخير هو بعينه ما يصدر عنه أو به الفعل الشرير •

نريد أن نقول : أن الخير يصدر عن الانسان بجهة غير تلك التي يصدر عنها

الشر •

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ص ٥٨ ، ٥٩ •

فللخير قوى وللشر قوى • ولما كان الخير والشر يردان الى الانسان البسوى النفس فاننا ينبغى أن نبحث عن قوى النفس لكى نفسر من خلالها الأفعال الخيرة والأفعال الشريرة •

على أنه ينبغى أن نؤكد منذ بداية الأمر أن مسكويه يرفض القول بأن هذه القوى التى للنفس قوى مستقلة أو أن هناك نفوس متعددة داخل الانسان • أنه يرفض مثل هذا رأى •

فهو يرى ويعتقد أن النفس واحدة ولها قوى متعددة • فالنفس أشبه بشجرة لها ثلاث فروع رئيسية : فالفروع لا وجود لها الا بالشجرة والشجرة لا وجود لها من غير هذه الفروع •

ومع أن ثمة فروعا ثلاثة الا أنها كلها ترد الى أصل واحد وقوة واحدة • وكما لا يستطيع الفرع أن يحيا ويستمر فى الحياة بعيدا عن الأم فكذلك الحال فى كل قوة من هذه القوى فهى لا توجد مستقلة وإنما وجودها بوجود النفس الأم •

ويذهب مسكويه جريا على عادة الفلسفة اليونانية الى القول بالتقسيم الثلاثى للنفس :

( ١ ) القوة التى بها يكون الفكر والتمييز والنظر فى حقائق الأمور وهذه القوى يسميها مسكويه القوة الطلعية ويرى أن آلتها الدماغ •

( ٢ ) القوة التى بها يكون الغضب والنجدة والاقدام على الأحوال والشوق الى التسلط والترفع وضروب الكرامات • ويسمى مسكويه هذه القوة " السبعية " ويرى أن آلتها من البدن " القلب " •

( ٣ ) القوة التى بها تكون الشهوة وطلب الغذاء والشوق الى الملاذ التى فبى المآكل والمشارب والمناكح وضروب اللذات ويسمى مسكويه هذه القوة " البهيمية " ويرى أن آلتها التى تستعملها من البدن " الكبد " •

( ١ ) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ص ١٨ ، ١٩ •

هذه هي قوى النفس وهي على الترتيب : القوة الناطقة ثم القوة الغضبية ثم القوة الشهوانية ويرى مسكويه أن هذه القوى الثلاثة يمكن أن تكون مصدرا للخير ويمكن أن تكون مصدرا للشر . فإذا أحسن المرء تهذيبها وتربيتها والتنسيق بينها أصبح انسانا خيرا . أما إذا ترك لها العنان وأساء سياستها ونزل على رغباتها فأنه سيكون عبدا تعسا شقيا .

ولهذا نجد مسكويه يربط بين هذه القوى وبين الفضائل " فمتى كانت النفس الناطقة العاقلة " معتدلة وغير خارجة عن ذاتها وكان شوقها الى المعارف الصحيحة لا المظنونة معارف وهي بالحقيقة جهالات حدثت عنها فضيلة العلم وتتبعها الحكمة . ومتى كانت حركة النفس البهيمية معتدلة منقادة للنفس العاقلة غير متأببة عليها فيما تقسطه لها ولا منهمكة في اتباع هواها . حدثت عنها فضيلة العفة وتتبعها فضيلة السخاء . ومتى كانت حركة النفس الغضبية معتدلة تضيع النفس العاقلة فيما تقصده لها فلا تهيج في غير حينها ولا تحمى أكثر مما ينبغي لها حدثت عنها فضيلة الحلم وتتبعها فضيلة الشجاعة ثم يحدث عن هذه الفضائل الثلاثة باعتدالها ونسبة بعضها الى بعضى فضيلة هي كما لها وتامها وهي فضيلة العدالة .

معنى هذا أن فضيلة العقل الحكمة وأن فضيلة القلب الشجاعة وأن فضيلة الحس العفة . ويضيف مسكويه فضيلة رابعة هي العدالة . ويقصد بها أن يوائم المرء ويعدل بين هذه القوى الثلاث بحيث لا يميل الى واحدة منها ميلا كليا تاركا الآخرين أو العكس .

فالعادل شرط أساسى ورئيسى لوجود الفضائل الأخرى الثلاث . ذلك أنه اذا انتفت صفة العدل لم يعد الانسان فاضلا . ليس هذا فقط بل لأصحت هذه الفضائل رذائل . ومن هنا ينقلب المرء من كونه انسانا خيرا الى انسان ضال شرير فيصير الحكيم جاهلا والشجاع جبانا أو متهورا والعفيف شرها أو بليدا ويصبح العادل جائرا .

وهذه هي الصور المقابلة للفضيلة أو الوجه الآخر الذي يمكن أن ينتج عن  
إساءة استخدام المرء القوى نفسه . ولهذا قلنا أن المرء يستطيع أن يكون خيرا  
ويستطيع أن يكون شريرا . أنه يمكن أن يصل الى مرتبة القديسين ويستطيع أن يكون  
أسوأ الحيوانات الشرسة وذلك كله مرتبط بحسن استخدام المرء لقواه أو إساءة  
استخدام هذه القوى .

ان اكتشاف القبلة الذرية وتفجيرها هو في حد ذاته ليس عملا خيرا وليس عملا  
شريرا : ان استخدامها الانسان في علاج أخيه الانسان وفي تغيير مجرى للطبيعة  
لمصلحة لأصحى اكتشافها عملا خيرا ما بعده خير أما اذا أساء استخدامها بحيث  
حارب بها الانسان أخيه الانسان وقتله بها وحاول من خلالها استغلاله لأصحى  
اكتشافها عملا شريرا ما بعده شر . ان الثروة ليست في حد ذاتها خيرا أو شرا .  
لأنها يمكن أن تكون مصدرا للسعادة ويمكن أن تكون مصدرا للشقاء واليأس . وذلك  
كله مرتبط بحسن توجيهها واستغلالها أو إساءة استغلالها في الأغراض القنطرة  
والدنيئة . . . . . وهكذا .

ويصف لنا مسكويه قوى النفس فيقول : ان النفس الناطقة متصفة بالأدب والحكمة  
والروية والكرم . أما النفس الغضبية فانها وان كانت عادمة الأدب الا أنها تقبل  
الأدب أو التهذيب أما النفس الشهوانية البهيمية فيرى مسكويه أنها عديمة الأدب لا تقبل  
التأديب وعنده أن حكمة الله شاءت أن تمنحنا النفس الغضبية لكي نقاوم بها النفس  
الشهوانية البهيمية حيث تسعى النفس الناطقة الى استخدام الغضبية في مصارعة النفس  
البهيمية والتغلب عليها . (١)

ويشبه مسكويه هذه النفوس الثلاث برجل صياد يركب دابته ومعه كلبه  
" الرجل = العقل . الدابة = الشهوة . الكلب = الغضب " فإذا كانت القيادة  
للرجل استطاع الحصول على غايته واستطاع أن يوفق بين مطالبه ومطالب دابته  
وكلبه .

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٦٣ .

اما اذا كانت القيادة لكليه أو لدابته ما استطاع الصيد وأضحى طريقه  
خطرا .

اذ سرعان ما تجرى دابته نحو الحشائش الخضراء بقصد اشباع معدتها وهى  
لاتعبأ بالأودية والسدود التى تعترض طريقها . وقد يؤدى ذلك الى سقوط الفارس من  
على ظهرها فيلقى حتفه .

وكذا الأمر فيما يتعلق بقيادة الكلب اذ سرعان ما يتوهم أن ثمة صيدا بعيدا  
(١)  
فيسعى الى جر الفارس وفرسه الى المهالك والمخاطر .

### بيان الفضائل الأربع ومبادئها

أما الحكمة فهى فضيلة النفس الناطقة المميزة وهى أن تعلم الموجودات كلها من  
حيث هى موجودة وان شئت فقل أن تعلم الأمور الالهية والأمور الانسانية ويثمر علمها  
بذلك أن تعرف المعقولات أيها يجب أن يفعل وأيها يجب أن يغفل .

وأما العفة فهى فضيلة الحس الشهوانى . وظهور هذه الفضيلة فى الانسان يكون  
بأن يصرف شهواته بحسب رأى . أعنى أن يوافق التمييز الصحيح حتى لا ينقاد لها  
ويصير بذلك حرا غير عبد لشيء من شهواته .

وأما الشجاعة فهى فضيلة النفس الغضبية وتظهر فى الانسان بحسب انقيادها للنفس  
الناطق والمميزة واستعمال ما يوجبه رأى فى الأمر الهلّة . عنى أن لا يخاف من  
الأمور المفزعة اذا كان فعلها جميلا والصبر عليها محمودا .

فأما العدالة فهى فضيلة تحدث لها من اجتماع هذه الفضائل الثلاث التى عدناها

---

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

وذلك عند مسالمة هذه القوى بعضها لبعض واستسلامها للقوة المميزة حتى لا تتغالب ولا تتحرك لنحو مطلوباتها على سوم طبائعها • ويحدث للانسان بها سمة يختار بها أبدا الانصاف من نفسه على نفسه أولا ثم الانصاف والانتصاف من غيره وله (١) •

#### الفضائل التي تحت الحكمة

الذكاء ، سرعة الفهم وقوته ، صفاء الذهن ، الذكر سهولة التعلم وبهذه الأشياء يكون حسن الاستعداد للحكمة •

أما الذكاء : فهو سرعة انقدام النتائج وسهولتها على النفس وأما جوده الذهن وقوته : فهو تأمل النفس لما قد لزم من المقدم •

وأما صفاء الذهن : فهو استعداد النفس لاستخراج المطلب •  
وأما الذكر فهو ثبات صورة ما يخلصه العقل أو الوهم من الأمل •  
وأما سهولة التعلم : فهي قوة للنفس وحده في الفهم بها تدرك الأمور النظرية (٢) •

#### الفضائل التي تحت العفة

الحياء ، الدعة ، الصبر ، السخاء ، الحرية ، القناعة ، الدماثة ، الانتظام ، حسن الهدى ، المسالمة ، الوقار ، الورع •

أما الحياء : فهو انحصار النفس خوف اتيان القبائح والحذر من الذم والسبب الصادق •

وأما الدعة : فهو سكون النفس عند حركة الشهوات •  
وأما الصبر : فهو مقاومة النفس للهوى لئلا تنقاد لقبائح اللذات •  
(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٢١ ، ٢٢ •  
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣ •



وأما السخاء : فهو التوسط فى الاعطاء وهو أن ينفق الأموال فيما ينبغي على مقدار

ما ينبغي وعلى ما ينبغي •

وأما الحرية : فهي فضيلة بها يكتسب المال من وجهة ويمتنع من اكتساب المال من

غير وجهه •

وأما القناعة : فهي التساهل فى المآكل والمشرب والزينة •

وأما الدماثة : فهي حسن انقياد النفس لما يجمل وتسرعها الى الجميل •

وأما الانتظام : فهو حال للنفس تقودها الى حسن تقدير الأمور وتربيتها كما ينبغي •

وأما حسن الهدى : فهو محبة تكميل النفس بالزينة الحسنة •

وأما المسالمة : فهي موادة تحصل للنفس عن ملكة لا اضطراب فيها •

وأما الوقار : فهو سكون النفس وثباتها عند الحركات التي تكون فى المطالب •

وأما الورع : فهو لزوم الأعمال الجميلة التي فيها كمال النفس • (١)

#### الفضائل التي تحت الشجاعة

كبر النفس ، النجدة ، عظم الهمة ، الثبات ، الصبر ، الحلم ، عسدم

الطيش ، الشهامة ، احتمال الكد • " والفرق بين الصبر هنا والصبر الذي فى

العفة أن الصبر هنا يكون فى الأمور الهائلة • أما فى العفة فيكون فى الشهوات •

أما كبر النفس : فهو الاستهانة باليسير •

وأما النجدة : فهي ثقة النفس عند المخاوف حتى لا يخامرها جزع •

وأما عظم الهمة : فهي فضيلة لنفس تحتل بها سعادة الجد وصدها حتى

الشدائد التي تكون عند الموت •

وأما الثبات : فهو فضيلة للنفس تقوى بها على احتمال الآلام ومقاومتها فى

الأهوال خاصة •

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٢٤ •

- وأما الحلم : فهو فضيلة للنفس تكسيها الطمأنينة فلا تكون شفيه ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة •
- وأما السكون : الذى نعى به عدم الطيش : فهو أما عند الخصومات وأما فى الحروب التى يذب بها عن الحريم أو عن الشريعة •
- وأما الشهامة : فهى الحرص على الاعمال العظام •
- وأما احتمال الكد : فهو قوة للنفس تستعمل آلات البدن فى الأمور الحسية بالتمرين وحسن العادة • (١)

#### الفضائل التى تحت العدالة

- المداقة ، الألفة ، صلة الرحم ، المكافأة ، حسن الشركة ، حسن القضاء التودد ، العبادة ، ترك الحقد ، مكافأة الشر بالخير ، المروءة فى جميع الأحوال ترك المعاداة ، الرجوع الى الله والى عهده وميثاقه ، ترك اليمين بالله وبشئ من أسمائه وصفاته •

- أما الصداقة : فهى محبة صادقة يهتم معها بجميع أسباب الصديق واثار فعل الخيرات التى يمكن فعلها به •

- وأما الألفة : فهى اتفاق الآراء والاعتقادات وتحدث عن التواصل فيعتقد معها التضايف على تدبير العيش •

- وأما صلة الرحم : فهى مشاركة ذوى اللحمه فى الخيرات التى فى الدنيا •
- وأما المكافأة : فهى مقابلة الاحسان بمثلها أو بزيادة عليه •
- وأما حسن الشركة : فهو الآخذ والاعطاء فى المعاملات على الاعتدال الموافق

لجميع •

---

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٢٥ ، ٢٦ •

وأما حسن القضاء : فهو مجازاة بغير ندم ولا من .  
وأما التودد : فهو طلب مودات الاكفاء وأهل الفضل بحسن اللقاء والأعمال التي تستدعي المحبة .

وأما العبادة : فهي تعظيم الله تعالى وتمجيده وطاعته وإكرام أوليائه من الملائكة والأنبياء والأئمة والعمل بما توجبه الشريعة وتقوى الله تعالى تتم هذه الأشياء وتكملها . (١)

#### طبيعة الفضيلة وشروطها :

يذكر بعض الباحثين أن ابن مسكويه اجتهد واهتم بتحديد الصفات الأساسية لهذه الفضيلة فيتحدث صاحب كتاب " ابن مسكويه " (٢) نقلاً عن التهذيب : " ان من صفات هذه الفضيلة أنها ليست طبيعية فينا وإنما هي مكتسبة بمعنى أنها تأتينا من الخارج حسب الظروف التي نعيش فيها فنفس الصبي لا تولد على صورة محددة معينة وإنما هي قابلة أن تتشكل حسب ما يحيط بها من الظروف الخارجية وحسب ما تتعرض عليه من العادات فالنفس كالشمع تتشكل حسب ما يوضع لها من أساليب المعاملات والتهذيب فهي قابلة للفضيلة والرذيلة في آن واحد والذي يقرر لها أحد الاتجاهين هي الظروف الخارجية يقول مسكويه " وهذه النفس " نفس الصبي " مستعدة للتأديب صالحة للعناية لا يجب أن تهمل ولا تترك ومخالطة الأصدقاء الذين يفسدون بالمقارنة والمخالطة وإن كانت بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة فإن نفس الصبي ساذجة لم تنقش بعد صورة ولا لها رأي وعزيمة تميلها من شيء إلى شيء فإذا نقشت بصورة وقبلتها نشأ عليها واعتادها " .

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٢٧ : ٢٩ .

(٢) ابن مسكويه ، فلسفته الأخلاقية ومصادرها ، د . عبد العزيز عزت ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ ، هـ ، الأولى ، ١٩٤٦ ، نقلاً عن كتاب تهذيب الأخلاق ، مسكويه .

هذه هي الصفة الأولى التي ذكرها ابن مسكويه ، أما الصفة الثانية فهي كونها وسط ومعنى ذلك أن كل فضيلة عملية توجد على مسافة متساوية بين رذيلتين بحيث لو خرجت عن موضعها مالت الى إحدى هاتين الرذيلتين وفسدت طبيعتها .

فالوسط في نظره يشبه مركز الدائرة الذي هو دائما على بعد متساو من نقط المحيط ولهذا كان تعيين هذا الوسط من الصعوبة بمكان وإذا أمكن تعيينه فإنه من الصعب على الانسان التمسك به بعد ذلك ولهذا كان تحديد الوسط بين الأطـُـراف يتناسب ومقدرة كل انسان على حدة فليس الناس كلهم سواسية في ادراكه والتمسك به ولكن مما لاشك فيه أن دراسة الأخلاق تساعد الانسان كثيرا على بلوغ الوسط . يقول مسكويه " كل فضيلة فهي وسط بين الرذائل " . (١)

وقد تأثر مسكويه في حديثه عن الفضيلة بالرأى الأرسطي حيث يرى ارسطو أن الفضيلة وسط بين طرفين كلاهما رذيلة .

وقد استفاد مسكويه من هذا الرأى الأرسطي واعتقده ونادى به في كتابه " تهذيب الأخلاق " وكتابه " السعادة " وقد ذهب مسكويه الى أن الوسط هنا ليس وسطا حسابيا أو هندسيا وإنما هو وسط اعتباري فحسب يخضع لمعايير انسانية

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، نقلا عن تهذيب الأخلاق ،

أما عن تطبيق مسكويه لنظرية " الوسط العدل " الأرسطية على الفضائل التي  
أشرنا إليها فكان على الوجه التالي : (١)

(١) ففيما يتعلق بالحكمة نجد أنها وسط بين طرفين كلاهما رذيلة . فمن  
المعروف أن الحكمة فضيلة النفس الناطقة " العقل " وهي فضيلة بسبب حسن  
استخدام العقل فيما ينبغي أن يستخدم فيه . هذه الفضيلة تتوسط السلف والبلاهة .  
والمقصود بالسلف هنا أن يستخدم القوة الفكرية فيما لا ينبغي  
وكما لا ينبغي . كأن يستخدم المرء عقله في الغش والخداع والسعى إلى إساءة  
الآخرين .

فهذا طرف لاشك أن ما ينتج عنه يعد رذيلة . وفي مقابل هذا الطرف نجد  
الإنسان " الأبله " ونقصه به ذلك المرء الذي يسعى إلى تعطيل قوته الفكرية  
بارادته دون أن يحاول تميته بالتأمل والفكر والنظر . مثل هذا الإنسان شريـر  
بلاشك . ولا ينبغي أن يفهم أن البله نقصان الخلقة .

كذلك نجد أن الذكاء وسط بين الخبث والبلادة . كذلك فإن التعقيل :  
الذي هو حسن تصور الأمور وإدراكها وسط بين الذهاب بالنظر في الشيء إلى أكثر مما  
هو عليه " التهويل " وبين القصور بالنظر فيه عما هو عليه " التهوين " .

(٢) أما الفضيلة الثانية التي ذهب مسكويه إلى أنها وسط بين رذيلتين فهي  
العفة . حيث أنها تتوسط الشره من جهة وخبث الشهوة من جهة أخرى ونحن نعلم أن  
الشره هو الانغماس والانهمك في اللذات الحسية المادية سواء كانت مشروعة أو غير  
مشروعة والسعى إلى الحصول عليها بأي ثمن وبكل ثمن . وفي مقابل هذا الشره نجد  
من جهة أخرى الخمود أي سكون النفس الشهوانية عن اللذة كلية بل عن الحركة التي  
تتجه نحو هذه اللذة سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة مباحة أو غير مباحة حلها

---

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٣١ : ٣٤ .

الشرع أو حرما . فمثل هذا المرء قد سعى الى وأد قوى الشهوة مع أن هذه القوى  
ضرورية للجسم والنفس معا .

ومن الفضائل التى تتدرج تحت فضيلة العفة نجد الحياء الذى هو وسط بين  
الوقاحة وبين الانطواء على الذات من شدة الحياء .

( ٣ ) وتأتى الى الفضيلة - الشجاعة وهى فضيلة وسط بين رذيلة الجبن  
وبين رذيلة التهور أما الجبن فهو خوف المرء فى الوقت الذى ينبغى أن لا يخاف فيه  
ونقيضه التهور الذى هو أقدم أعمى . أو هو الاقدام حيث لا ينبغى للمرء أن يقدم .

أما الصفة الثالثة الخاصة بالفضيلة كما يذكرها صاحب كتاب " ابن مسكويه "   
نقلا عن كتاب تهذيب الأخلاق فهى اللذة والسرور فكل رجل فاضل يشعر فى فعل  
الفضيلة بلذة خاصة أدبية كذة أصحاب المهن الأخرى كالبناء والموسيقى عندما يجيدون  
الفهم والتحقيق فى مهنتهم الخاصة فالرجل الفاضل لا يفعل الفضيلة تحت تأثير نوع من  
الضغط والجبر والتحتيم وإنما هو يفعلها ويشعر بنوع من الحب لها ونوع من السرور  
والانجذاب اليها فاللذة متصلة كل الاتصال بالفضيلة ولا يمكن أن تتفصل عنها يقول مسكويه  
" وليست تظهر لذة السعيد الا بابرار فضائله واطهار حكمته ووضع كفاءته فى مواضعها  
وكذلك البناء الحاذق والصانع اللطيف والموسيقى المحسن وبالجملة كل صانع حاذق فاضل  
فى صناعته يسير باظهار فضائله واذاعتها بين أهلها ومستحقيها . . . سيرة الأفاضل  
السعداء سيرة لذيدة بنفسها لأن أفعالهم أبدا مختارة وممدوحة وكل انسان يلتذ  
بما هو محبوب عندما يلتذ بعادل العادل ويلتذ بحكمة الحكيم فالأفعال الفاضلة  
والغايات التى ينتهى اليها بالفضائل لذيدة محبوبة " .

هذه هى الصفات الأساسية للفضيلة عند مسكويه ولكن الصفة الثانية وهى

صفة الوسط هي الصفة المهمة التي يركز عليها تعريفها وهي التي تحدد لنا طبيعتها الخاصة " (١)

أما عن شروط تحصيل الفضيلة فيقول صاحب كتاب " ابن مسكويه " أول شرط من هذه الشروط هو العلم لأن حالة الفطرة والطبع الخاص لا تكفي مطلقا لاكتساب الفضيلة لأن الميل الخاص يتجه دائما الى اضعاف قوة التمييز والعقل بسعيه وراء الشهوات ولهذا وجب ألا يترك الانسان على الحال التي يتفق وجوده فيها وانما يجب أن يركن دائما الى تعليمه أصول المعارف وأصول المعاملات • يقول مسكويه " اننا مطبوعون على قبول الخلق بل ننتقل بالتأدب والمواعظ اما سريعا أو بطيئا وهذا الرأي الأخير هو الذى نختاره لأننا نشاهده عيانا ولأن الرأي الأول يؤدي الى ابطال قوة التمييز والعقل والى رفض السياسات كلها وترك الناس همجا مهملين والى ترك الأحداث والمباني على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم وهذا ظاهر الشناعة جدا •

وهذا العلم يشمل أشياء كثيرة : أولا • العلم بالشرعية فى أول عهد الانسان فى طفولته وصباه وذلك لأن الطفل فى هذا العهد بطبع ولكنه لا يفكر فى أنسب المعارف اليه فى هذا الدور وهى مقدمة لازمة لتعلم العلوم والفلسفة فيما بعد •

يقول مسكويه " والشرعية هى التى تقوم الأحداث وتعودهم الأفعال المرضية وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل والبلوغ الى السعادة الانسية بالفكر الصحيح والقياس المستقيم •

---

(١) ابن مسكويه ، فلسفته الأخلاقية ومصادرها ، د • عبد العزيز عزت ج٢ ، ص ٢٨١ ،

٢٨٢ ، نقلا عن كتاب تهذيب الأخلاق لمسكويه •

وبشمل العلم كذلك الوقوف على طبيعة النفس وملكاتنا ووظيفة كل قوة من هذه القوى واتصال بعضها ببعض حتى تعمل فى انسجام ولا تطغى احداها على الأخرى فيجب على الانسان أن يقوم نزاعاته البهيمية من مأكّل ومشرب وأن يتحكم فى مشاعره الحادة الجامحة التى تدعوه الى الغضب والخروج عن حد العقل .

وأخيرا يجب أن يدعم قوته العاقلة التى يتميز بها عن سائر الكائنات بالتهذيب والتثقيف ، يقول مسكويه " أن ينظر الانسان الى هذه القوى " قوى النفس " التى تحدث فىنا أيها أسبق الينا وجودا فيبدأ بتقويمها ثم بما يليها على النظام الطبيعى وهو بين ظاهر وذلك أن أول ما يحدث فىنا هو الشئ العام للحيوان والنبات كله ثم لايزال يختص بشئ بعد شئ يتميز به عن نوع بعد النوع الى أن يصير الى الانسانية ولذلك يجب أن نبدأ بالشوق الذى يحصل فىنا للغذاء فتقومه ثم بأخذها الشوق الذى يحصل فىنا الى المعارف والعلوم فنقومه " .

وبشمل العلم أيضا معرفة الرذائل بأنها أضداد الفضائل فيتطهر منها ويتبعده الانسان عنها حتى تصفو نفسه وتقبل على الفضائل فى نزاهة وصفاء فى جوهرها فالفضيلة لايمكن أن تثبت وتترعرع فى نفس مدنسة بأضدادها وانما هى تتطلب الجو والمال الذى يتفق مع طبيعتها الخاصة أى الابتعاد عن كل ما هو حيوانى غصبى .

يقول مسكويه : " فأما الفضائل أنفسها فليست تحصل لنا الا بعد أن نطهر نفوسنا عن الرذائل التى هى أضدادها أعنى شهواتها الرديئة الجسمانية ونزواتها الفاحشة البهيمية فان الانسان اذا علم أن هذه الأشياء ليست فضائل بل هى رذائل تجنبها وكره أن يوصف بها . . . ثم يلتصق الانسان الفضيلة فى نفسه العاقلة التى بها صار انسانا وينظر الى النقائص التى فى هذه النفس خاصة فيروم تكميلها قدر طاقتها وجهدها " .



وبشمل العلم أيضا تعلم العلوم والوقوف على سائر أبواب المعارف المختارة فان هذا هو الغذاء الطبيعي للنفس وهو المادة التي تعيش عليها ولا يمكن أن يكون الانسان فاضلا بالمعنى الصحيح ان لم يهذب نفسه ويروضها بهذه العلوم . يقول مسكويه : " وأن يغذى الانسان هذه النفس بغذائها الموافق لها المتمم لفضائلها كما يغذى تلك بأغذيتها الملائمة لها فان غذاء هذه هو العلم والزيادة في المعقولات والارتياض بالصدق في الآراء وقبول الحق حيث كان ومع من كان والنفور من الكذب والباطل كيف كان ومن أين جاء . . . . أما شوقها "النفسى " الى أفعالها الخاصة بها أعنى العلوم والمعارف مع هربها من أفعال الجسم الخاصة به فهو فضيلتها وبحسب طلب الانسان لهذه الفضيلة وحرمه عليها يكون فضله وهذا الفضل يتزايد بحسب عناية الانسان بنفسه وانصرافه عن الأمور العائقة له عن هذا المعنى بجهد وطاقته " . ( ١ )

الشرط الثانى لتحصيل الفضيلة يذكره صاحب كتاب ابن مسكويه فيقول : " بجانب العلم هناك شرط آخر للفضيلة هو الارادة فأفعال الانسان لا يمكن أن تسمى خيرة ولا فاضلة ان لم تصدر عن ارادة واختيار ولعل هذا الشرط يتخذ أهمية كبرى فى نظر مسكويه لأنه يعلق بالارادة كل مصير الانسان الورحى من ملكات وقوى وقيم أدبية وهى التى توجد مسئولية الانسان عن أفعاله وجزائه أمام نفسه وهى التى تقويه أو تبعده عن الخير أو الشر فالانسان لا يمكن أن يحكم عليه بأنه خير أو شرير الا بمقدار ما للارادة من مساهمة وسعى فى اقرار أو منع ما يتفق وطبيعة الانسان الخاصة باعتباره كائنا عاقلا فالارادة شرط أساسى من شروط الفضيلة . يقول مسكويه : " وأما أفعاله " الانسان " وقواه وملكاته التى يختص بها من حيث هو انسان وتتم بها انسانيته وفضائله فهى الأمور الارادية التى بها تتعلق قوة الفكر والتمييز . . . . والأشياء الارادية التى تنسب الى الانسان تنقسم الى الخيرات والشرور وذلك أن الغرض المقصود من وجود الانسان اذا توجه الواحد منا اليه حتى يحمل هو الذى يجب أن يسمى

( ١ ) ابن مسكويه فلسفته الأخلاقية ومصادرها ، د . عبد العزيز عزت ، ج ٢ ، ط الأولى سنة ١٩٤٦ ، مصطفى البابى الحلبي ، وأولاده بمصر ، نقلًا عن تهذيب الأخلاق . مسكويه

به خيرا سعيدا فأما من عاقه عنها عائق آخر فهو الشرير الشقي .

فأذن الخيرات هي الأمور التي تحصل للانسان بإرادته وسعيه في الأمور التي لها وجود الانسان ومن أجلها خلق والشرور هي الأمور التي تعوقه عن هذه الخيرات بإرادته وسعيه أو كسله وانصرافه ، والارادة هي التي تعين مراتب الناس وفضائلهم وهذه المراتب قد يكون الانسان فيها خنزيرا اذا أراد لنفسه حياة البهائم من لذات وشهوات وحياة السباع اذا أراد لنفسه حياة الغضب والتهور وحياة الانسان الفاضل الكامل اذا أراد لنفسه حياة العقل والتفكير ففضيلة الانسان تعظم أو تصغر حسب ما يضع الانسان نفسه في مراتب هذه الحياة بإرادته واختياره .

يقول مسكويه : " واذا كانت القوى ثلاثا كما قلنا مرارا فأدونها النفس البهيمية وأوسطها النفس السبعية وأشرفها النفس الناطقة والانسان انما صار انسانا بأفضل هذه النفوس أعنى الناطقة وبها شارك الملائكة وبها باين البهائم فأشرف الناس من كان حظهم من هذه النفس أكثر انصرافه اليها أتم وأوفر ومن غلبت عليه إحدى النفوس الأخرى انحط عن مرتبة الانسان بحسب غلبه تلك النفس عليه فانظر رحمك الله أين تضع نفسك ؟ وأين تحب أن تنزل من المنازل التي رتبها الله تعالى للموجودات فان هذا أمر موكل اليك مردود الى اختيارك فان شئت فانزل في منازل البهائم فانك تكون فيهم وان شئت فانزل في منازل السباع وان شئت فانزل في منازل الملائكة وكن منهم " .

والارادة أخيرا في نظر مسكويه هي التي يترتب عليها تهذيب النفس والارتقاء بها الى أن تحترم طبيعتها الخاصة وتترفع عن الانحطاط الى مستوى الشهوة أو الغضب ومقاومة ما تدعو اليه كل منها فان الانسان كائن معقد يولد وله كثير من الاستعدادات التي تهيئة لكثير من المراتب والمقامات المختلفة ولكن أمر هذه المراتب والمقامات فترتب على تهذيب الانسان لنفسه والرقى بجوهره الخاص الى مستوى رفيع وهذا التهذيب

أمره موكل الى الانسان فاراته هي التي تقرر هذا وهي التي تنفذه وأن الله ليس بمسئول عن رفعة الانسان وضعته فليس هناك اذن قدرية تعين أقدار الناس حسب ارادة عليا هي ارادة الله لأن الله وهب الانسان جوهره الخاص وهو العقل والانسان بعد ذلك مسئول عن تهذيب هذا الجوهر وحفظه في حدود طبيعته الراقية يقول مسكويه : " فأما الانسان من بين هذه الجواهر فهو مستعد بضروب من الاستعدادات وضروب من المقامات . . . الا أن الذي ينبغي أن يعلم الآن هو أن وجود الجوهر الانساني متعلق بقدرة فاعله وخالقه تبارك وتقدس اسمه تعالى فأما تجويد جوهره فمفوض الى الانسان وهو معلق بآرادته " . (١)

أما عن الشرط الثالث لتحصيل الفضيلة فهو الثبات ويقصد به أن تكون الفضيلة عادة لصاحبها ففعل الفضيلة مرة واحدة لايجعل الانسان فاضلا بل لابد له من تكرار ذلك ولهذا نرى مسكويه يلجأ الى العادة كوسيلة لغرس الفضائل وبثها في النفوس عند الصبيان . وهي العنصر الأساسي الذي يجعل الرجل الفاضل سعيدا بحق لأنها لاتجعله ينفصل بسرعة عن هدوء نفسه أمام ماقد يصيبه من النوازل والنحوس فهو لا يهلع ولا يخاف ولا يحزن لأن حياة الفضيلة أصبحت له سنة يصعب أن ينفصل عنها ولهذا كانت العادة هي السبب الذي يدعو الانسان أن يشعر بلذة الفضيلة ونعممة احترامها في معاملاته مع غيره يقول مسكويه : " ان السعيد ير عليه من النكبات والنوائب وأنواع المحن والمصائب ما يرد على غيره الا أنه لا يتزعزع منها ولا يلحقه ما يلحق غيره من المشقة في احتمالها لأنه غير مستعد لسرعة الانفصال منها بعادة

---

(١) ابن مسكويه ، فلسفته الأخلاقية ومصادرها ، د . عبد العزيز عزت ، ج٢ ،

ص ٢٨٤ : ٢٨٦ ، ط الأولى ، نقلا عن تهذيب الأخلاق ، مسكويه .

الهلع والجزع . . . ومن لا يعرف الحكمة العملية يعنى ايثار الأفضل والعمل به والثبات عليه لا ينشط له ولا يرتاح اليه ومن كان كذلك فكيف يلتذ وينعم بما شرحناه " .

والثبات هذا أو العادة تتمم للارادة فلا يكفي أن يريد الانسان الخير بل ينبغي أن يفعله كثيرا ويردده حتى تصبح فيه ارادة الخير جسية وطبعيا والا لم تكن ارادته خيرة فاضلة بالمعنى الصحيح فى الأخلاق . يقول مسكويه : " يتمكن كل واحد من تحصيل خلق لنفسه جميل اذا لم يكن موجودا له فاذا كانت على خلق قبيح أمكه بها أن ينتقل عنه بارادته الى ضده ثم يلزمه الاعتقاد وتكرير الأفعال الملائمة حتى يصير ذلك سجية .

ويرى مسكويه كذلك أن قوة الارادة ترتكز على العادة فكلما قويت عادة فعل الفضيلة كلما تأكدت فى النفس ارادة الخير والارادة لا تضعف الا لضعف عادة اتباع الفضيلة يقول مسكويه : " وسبب ضعف العزيمة قلة التدرب بالأخلاق التى ذكرناها ان الكتب المصنفة فيها تفيد الانسان ملكة وهيئة فاضلة بتكرير الأفعال المحمودة واعتبارها حتى تصبح سجية " .

فالارادة والعادة أو الثبات كشرطين من شروط الفضيلة مرتبطين متلازمين ولترابطهما من القوة ما يجعلهما أهم شروط الفضيلة وهما أسبق من العلم لأن الفضيلة هنا هى الفضيلة الأخلاقية العملية لا الفضلية العقلية النظرية . (١)

---

(١) ابن مسكويه ، فلسفته الأخلاقية ومصادرها . د . عبد العزيز أحمد . ج ٢ ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ ط الأولى ، نقلا عن كتاب تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، كتاب السعادة ، مسكويه .

#### الفضيلة والممارسة :

وبشير مسكويه الى أمر آخر له صلة وثيقة بالفضائل وأقصد ماذهب اليه من أن هذه الفضائل لا تتحقق الا في ممارسة الانسان لحياته الاجتماعية .

#### الفضيلة والمجتمع :

ويتناول مسكويه فيه مدى صعوبة أن الانسان بمفرده وفي عزلة عن مجتمعه هذا بالاضافة الى اثباته عدم تحقق الفضيلة بالصورة المطلوبة في حالة انفراد الانسان وابتعاده عن المجتمع .

وهذا يعنى أن الانسان فضلا عن أنه مدنى بطبعه فانه فى أشد الحاجة الى الآخرين ليحقق سعادته هو نفسه ويحقق للآخرين سعادتهم أى أن هنا تأثيرا متبادلا بين الفرد والجماعة فأننى مدين بالكثير مما يسعدنى الى من أحيا بينهم ومعهم كما أن الآخرين مدينون أيضا بقسم كبير من سعادتهم الى والى غيرى .

ان سعادة الفرد وخير الجماعة كلا لا يتجزأ .

" ولذلك فان مسكويه يرفض العزلة وبعد عن المجتمع بزعم تحقيق السعادة أو الاتصال وما الى ذلك مما يلجأ اليه الرهبان المسيحيون والصوفيّة المسلمون ورأى مسكويه فى هذا الشأن أن أولئك الذين رأوا الفضيلة فى الزهد وترك مخالطة الناس وتفردوا عنهم اما بملازمة المغارات فى الجبال واما ببناء الصوامع فى المغاور واما بالسياحة فى البلدان لا يحصل لهم شيء من الفضائل الانسانية التى عدناها . وذلك ان من لم يخالط الناس ولم يساكنهم فى المدن لا تظهر فيه العفة ولا النجدة ولا السخاء ولا العدالة . بل تصير قواه وملكاته التى ركبت فيه باطلّة لأنها لا تتوجه الى خير ولا الى شر . فاذا بطلت ولم تظهر أفعالها الخاصة بها صاروا بمنزلة الجمادات والموتى من الناس . ولذلك يظنون ويظن بهم أنهم أعفَاء وليسوا بأعفَاء وأنهم عدول وليس بعدول .

وكذلك فى سائر الفضائل . وليست الفضائل أهدأ بل هى أفعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم وفى المعاملات وضروب الاجتماعات (١) .

الفضائل اذا ليست مواقف سلبية يقفها الانسان تجاه نفسه وتجاه الآخرين . وانما هذه الفضائل تتضمن الفعل . انها تعبر عن موقف ايجابى يتخذه الفرد من نفسه ومن المجتمع الذى يحيا فيه .

ولن يستطيع الانسان أن يكون فاضلا أو أن يعرف معنى الفضيلة وطعمها ان صح التعبير الا على ضوء الجماعة .

فكيف يكون الانسان شجاعا دون أن يواجه موقفا أو عدة مواقف يختبر فيها نفسه أو يكشف فيها عن شجاعته .

---

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

وكيف يكون الانسان عادلا وهو يهرب من المتنازعين وهو لا يسعى الى كشف عدله أو بيانه من خلال المواقف والأفعال التي ينبغى له أن يعدل فيها .

وكيف يكون حكيما وهو يرى الفضيلة تنتهك والظلم يسود دون أن يتحرك نحو تغيير ذلك .

معنى هذا أن الفضائل لا توجد ولا تتضح الا من خلال احتكاك الفرد بالجماعة ووجود علاقة متبادلة بينهما . فيها فعل وانفعال مزدوج .

هنا يتضح الخير من الشر والعالم من الجاهل والظالم من الجائر والعفيف من الخسيس الفاجر .

#### الفعل بين الخير والسعادة :

علينا الآن بعد أن عرضنا رأى مسكويه فى النفس وأقسامها وصلتها بالبدن وبعد أن تحدثنا عن الفضائل علينا أن نوضح الغاية من الفعل الخلقى عنده وماهى طبيعة هذه الغاية :

هل هى واحدة عند كل الناس أم أنها تختلف باختلاف المشارب والأمكنة ؟

يرى مسكويه أن الغاية من الفعل الخلقى هى تحقيق الخير والسعادة . وإذا كنا لم نضع من قبل فرقا حاسما بين المصلحين فأننا هنا نجد فيلسوفنا يضع تمييزا دقيقا بين المصلحين حيث ذكر أن الخير عام أما السعادة فهى خاصة . هناك أفعال تكون الجماعة باعنا عليها وتكون هذه الأفعال موجهة نحوها .

هنا تكون الغاية من الفعل الخلقى خير المجتمع . أما اذا قصد المرء من فعله نفعه الشخص ومصلحته الذاتية تكون الغاية من الفعل الخلقى هنا سعادة الفرد . فالسعادة خاصة بالفرد والخير عام بالمجتمع .

ويوضح مسكويه في هذا الصدد أنه لا يجد تعارضا بين سعادة الفرد وبين خير المجتمع . بل أنه يرى أن ثمة علاقة وثيقة بين خير المجتمع وسعادة الفرد . ذلك أن المجتمع ليس الا مجموعة من الأفراد . فان يكون الخير عاما على الجميع فذلك من شأنه أن يؤدي الى سعادة كل فرد من أفراد المجتمع . كما أن الأفراد اذا كانوا بدورهم سعداء فان ذلك يؤدي الى أن يكون الخير عاما شاملا . أليست الحروب التي تخوضها الدول تؤثر على كل فرد من أفراد هذه الدولة أو تلك بطريقة أو بأخرى . وفي مقابل هذا الا تؤدي ثقافة الفرد وذكاءه الى خير مجتمعه . ألا يحقق الفرد باختراعه آلة أو جهازا خيرا لمجتمعه باختراعه هذا . هنا نجد بلا شك علاقة متبادلة بين سعادة الفرد وخير المجتمع . أما من اعتقد بوجود صراع بين الفرد وبين المجتمع فانه لم يضع هذه العلاقة في موضعها الصحيح .

(١)  
وقد ميز مسكويه بين أنواع من الخيرات : فهناك خيرات شريفة وأخرى ممدوحة وثالثة نافعة .

أما عن الخير الشريف فالمقصود به الحكمة وهي تلك التي تستمد قيمتها من ذاتها لامن شيء آخر . ومن ثم تجعل من يكتسبها أو الحاصل عليها شريفا .

أما عن الخير الممدوح فهو كل فعل أو فضيلة يقصد الانسان من ورائها التهيؤ والاستعداد لقبول الخيرات الشريفة .

وهذا الخير الممدوح فهو كل فعل أو فضيلة يقصد الانسان من ورائها التهيؤ والاستعداد لقبول الخيرات الشريفة .

وهذا الخير الممدوح حاصل أو هو يحصل للانسان بناء على ارادته واختياره ورغبته في التحقق والقرب من الملاء الأعلى الشريف .

---

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٩٢ .



أما الخيرات النافعة فانها بمثابة وسائل يسعى الانسان الى الحصول عليها لكي يحقق من خلالها خيره الشريف فالمال — على سبيل المثال — يعد خيرا نافعا وليس خيرا شريفا لأنه لا يطلب لذاته بل يطلب بحسابه وسيلة يحقق الفرد أو المجتمع من ورائه الخير والسعادة •

ونستطيع أن تعبر عن أنواع الخيرات بعبارات أخرى فنقول : أن الخيرات منها ما يطلب لذاته ومنها ما يطلب لا لذاته بل لغايات أخرى باعتبارها وسيلة لهدف آخر • والغايات بعضها تام كامل وبعضها ليس كذلك فالسعادة مثلا غاية تطلب لذاتها لا لشيء آخر • فنحن جميعا نسعى لتحقيق سعادتنا ولا نعتقد أن أحدا يتخذ سعادته وسيلة لأمر آخر • فنحن اذا بلغناها لم نحتج — كما يقول مسكويه — أن نستزيد اليها شيئا آخر •

أم الصيحة والثروة فهي خيرات جزئية ناقصة • فهناك أصحاب لكلهم ليسوا سعداء وهناك من لديهم ثروة ضخمة من المال ومع ذلك هم أشقى الناس وهذا يدل على أن الصحة أو المال أو البنون كلها خيرات جزئية ، كلها خيرات بحسابها وسائل وليست غايات • اذ أن المرء حينئذ يعتقد أنه بحصوله عليها يستطيع أن يحقق سعادته •

ومن الطريف هنا أن نذكر ماذهب اليه مسكويه بصدد بيانه الخيرات وارتباطها بالمقولات الأرسطيقوكيف انه ربط هذه المقولات بالخيرات •

ويقول مسكويه : ووجود الخيرات في المعقولات كلها يكون على الوجه الآتي :  
أما الجوهر فالله تبارك وتعالى هو الخير الأول • فان جميع الأشياء تتحرك نحوه بالشوق اليه •



عليه وهو متعلق بأحوال المادة أن يطالع الأمور الروحانية الشريفة وأن يتأملها ويتمثل بها وبراعيا ويسعى الى الاتصال بها .

ومن جهة أخرى عليه اذا وصل الى مرتبة الأشياء الروحانية وتعلق بأحوالها أن ينظر الى الأمور الحسية وأن يأخذ منها بقدر الضرورة وأن يتأملها حيث يرى فيها عظمة الله وقدرته وجلاله وحكمته .

والحقيقة أن موقف مسكويه فيما يتعلق بالذات الحية البدنية موقف معتدل فهو يرفض الجوع من أجل الجوع أو الأكل من أجل الأكل أو الشهوة في حد ذاتها . أن مسكويه يرفض هذين الموقفين المتطرفين المتناقضين وقد رأينا كيف أنه قد نادى بالوسط العدل . وعلى ضوء هذا الوسط العدل يكون الطعام وسيلة وليس غاية ويكون ارتداء الثوب وسيلة أيضا يستريحها الانسان نفسه وليس غاية يفتخر بها أو يقارن من خلالها بينه وبين غيره فعلى المرء كما قال فيلسوفنا أن يأخذ من الطعام ما يحفظ اعتدال الجسم وقوامه . فينال منه قدر الضرورة في كماله ولا يطلب اللذة لعينها بل قوام الحياة التي تتبعه اللذة .

وأما اللباس فالذى يدفع به آذى الحر والبرد ويستر العورة . وأما بالجماع فالذى يحفظ نوعه وتبقى به صورته . ( ١ )

وعند مسكويه كما هو الحال عند الفلاسفة اليونانيين أن الخيرات تتمايز فيما بينها بحسب الرتبة والشرف كما تمايزت الفضائل . وهو هنا يرتبها ترتيبا تصاعديا بادئا من العالم المحسوس منتهيا الى العالم المعقول .

( ١ ) فهو يرى أن أول مراتب السعادة " أو الفضيلة " هي أن يصرف المرء ارادته وهمته نحو منفعه التي توجد في العالم المحسوس وترتبط به سواء كانت هذه المنافع متعلقة بالجسم " الطعام - الشراب - والملبس " .

---

( ١ ) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٥٩ .

أو متعلقة بالنفس" النظر فى العالم المحسوس للصعود الى ما فوقه

وينبغى أن يكون ارتباط المرء بالعالم المحسوس ارتباطا معتدلا • لا يخرج  
عن الحد الملائم لأحواله الحسية • وفى هذه المرحلة أو الرتبة لمانع من أن يشبع  
المرء بعنى ميوله بالقدر المطلوب والمباح بحيث يخضع كل سلوكه لتقدير الفكر •

( ٢ ) المرتبة الثانية من مراتب السعادة هى أن يوجه الانسان ارادته وهمته  
نحو اصلاح النفس والبدن والارتقاء بهما فوق مستوى الشهوة والهوى والمآرب الشخصية •  
وعلى المرء فى هذه الدرجة أن لا يكثر بشئ من الشواغل الحسية الا بالقدر الضرورى  
والملائم لاستمرار وجود الجسم والنفس • ويرى مسكويه أن الناس فى هذه المرتبة  
متفاوتون فيما بينهم لاعتبارات كثيرة أهمها : اختلاف الطبائع أولا ثم اختلاف العادات  
ثانيا • ثم اختلافهم من جهة ثلاثة بحسب درجاتهم من العلم والفضل والمعرفة  
والفهم • ورابعا فانهم يختلفون بحسب جدهم واجتهادهم وهمهم ومدى شوقهم الى  
العالم المعقول •

( ٣ ) أما المرتبة الثالثة فهى تلك المرتبة التى لا ينظر فيها المرء البتة للعالم  
المحسوس ولا الى نفسه فلا يشاق لمحسوس أو معقول صادر عن الحس بل أنه يسعى  
الى الأمور الالهية يسعى الى الاتصال بالله واتباع أوامره وطلب رضاه ومحبته • وهو فى  
هذه الرتبة لا يرى غير الرضا الالهى ولا يسمع غير صوت الله • فلا يلتفت الى مال أو  
ولد أو جاه أو أى شئ فان • أنه أدرك حينئذ الفرق بين القليل والخالد • الفرق  
بين الثابت والمتغير الفرق بين النور والظلام وهو الى النور الخالد الثابت يسعى وبه  
يحيا وعلى ضوئه يسير وبه يهتدى •

( ٤ ) وأخيرا نصل الى مرتبة السعادة القصوى التى مابعد سعادة • وهى  
تلك التى تكون فيها أفعال الانسان كلها أفعالا الهية • وتقصد بالأفعال الالهية تلك

الأفعال التى تصدر عن صاحبها بغير غاية أو هدف آخر خارجا عنها • أنها صادرة عنه باعتبارها واجبة عليه ومن الحكمة والعدل أن يفعلها • فالفعل هنا ليس وسيلة وإنما هو غاية من حيث أن الفاعل يتوخى هنا فى سلوكه الخير المحضى وهو الخير الذى يطلب لذاته لا لأمر آخر •

" فأفعال الانسان اذا صارت كلها الهية فهى كلها انما تصدر عن لبه وذاته الحقيقية التى هى عقله الالهى الذى هو ذاته بالحقيقة " . (١)

#### تقويم النشئ و غرس الفضائل فيه :

" وبمناسبة الحديث عن الأخلاق عند مسكويه فلا بد من أن نعرض لرأيه فى تربية الصبيان وكيفية توجيههم وتعليمهم الفضيلة واعدادهم خير اعداد ذلك أن معظم الرذائل التى يرتكبها المرء انما كانت نتيجة تربية فاسدة ساهمت فى فسادها الأسرة والظروف الثقافية والاقتصادية " •

يرى مسكويه أننا ينبغى أن نحاسب الطفل وأن ننبهه على أخطائه ابتداء من اللحظة التى يستحى منا فيها ويستحى من بعض أفعاله • فالحياء دليل على بزوغ العقل لدى الطفل • ونحن لا نستطيع فى الواقع أن نؤدب الطفل وأن ننشئه صالحة ألا عن طريق العقل • فوجود الحياء لدى الطفل فى فترة مبكرة من حياته دليل على نضجه العقلى المبكر من جهة ودليل على أن هذا الطفل قد أدرك القبيح والحسن وهو بادراكه لهذا وذلك بدأ يستحى منا ومن نفسه من جهة أخرى • وهذا الحياء من شأنه أن يجعل الطفل يتجنب الأفعال السيئة التى يخجل من ارتكابها • (٢)

ونحن نعلم أن مسكويه لا يقول بفطرية المعرفة ومن ثم لا يقول بفطرية

#### الأخلاق •

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ١٠٣ : ١٠٦ •

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٨ •

ورأيه في هذا أن النفس الانسانية مهياة للادراك والمعرفة • فهي أشبه بصفحة بيضاء لم تنتقش بعد بصورة ولا لها رأى وعزيمة تحليلها من شيء الى شيء • فـإذا نقشت بصورة وقبلتها نشأت عليها واعتادتها • (١)

ومن أجل هذا ينبغي علينا أن نسعى الى أن نطبع في نفس الصبي القيم والمبادئ والمثل العليا وأن نحثه دائما على حب الكرامة والاعتزاز بالنفس • وينبغي لنا أن ندم أمامه الأشرار وأن نمدح الأخيار • مع تشبيهنا الأشرار بالحيوانات الشرسة وتصويرنا له الأخيار بصورة جميلة •

وفيما يتعلق بالمأكل ينبغي لنا أن نؤاخذه على اشتهاؤه ونزوته المفرطة نحو المأكل والمشرب والملابس الفاخرة • وأن نحجب لديه مجانية الهوى ومحاربة النفس • ونوضح له أن من شيمة الرجال العظام الترفع عن الحرص على الأكل الشهي • فلا ينبغي أن تكون معدته أو بدنه الشغل الشاغل أو هو كل همه ومصدر قلبه • كما لا ينبغي أن يكون الملبس كل شيء لأن المرء ببطانه لا يظهره •

ويضيف مسكويه : أننا ينبغي أن نطالب الصبي بحفظ محاسن الأخيار والأشعار التي تجرى مجرى ما تعود به بالأدب • وأن نجنيه النظر في الأشعار السيئة الرديئة • (٢)

وقد اهتم مسكويه كثيرا بأدب المطاعم على حد تعبيره حيث عاد فخصى له قسما كبيرا من فصل عقده لهذا الغرض ومن جملة ما قال في هذا الصدد أننا ينبغي أن نوضح للنشء أن الأطعمة إنما تتراد للصحة لا اللذة • وأننا ينبغي أن نتناول سائر الأطعمة على هذا الأساس وعلينا أن نعرف الطفل أن الأغذية شبيهة بالأدوية حيث نداوى بها الجوع والألم الحادث عنه ولا نتناولها للذة ولا نستكثر منها للشهوة •

ولا ينبغي لنا أن نأكل لكي نلتذ بالأكل ولكنا نأكل لكي نعيش ونؤدي مهمتنا

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٦٨ ، ٦٩ •

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٩ ، ٧٠ •

(١) التي خلقنا من أجلها وينبغي أن نعود المصبي على عدم الكذب وعلى أن لا يحلف البتة :  
لاصادقا ولا كاذبا . وأن لا يتكلم الا جوابا واذا حضر من هو أكبر منه اشتغل  
بالاستماع منه والصمت له ويمنع من خبيث الكلام ومن السب واللعن ويعود خدمه  
نفسه ومعلمه وكل من كان أكبر منه ويعود طاعة والديه ومعلميه ومؤدبيه وأن ينظر  
اليهم بعين الجلالة والتعظيم وبهاهم . (٢)

ويرى مسكويه أنه من الأفضل للمصبي أن يتلقى المعرفة والعلم من الشيخ  
دون أن يعترض أو يسأل بل يكتفى في بداية أمره بالقبول . وعليه أن يقبل النصوص  
الدينية في بداية حياته كما هي دون أن يسعى الى فهمها بل عليه بالحفظ والقبول  
والطاعة أولا . ثم بعد أن ينضج عقله عليه أن يفهم هذه النصوص وأن يفسرها .

ولهذا يقول : ان السعيد هو من اتفق له في صباه أن يأنس بالشرعة ويسلم  
لها ويتعود جميع ما تأمر به . حتى اذا بلغ المبلغ الذي يمكنه به أن يعرف الأسباب  
والعلل طالع الحكمة فوجدها موافقة لما تقدمت به عادته . فاستحكم رأيه وقويت  
بصيرته ونفذت عزيمته . (٣)

وبعد : فهذه الآراء تعتبر العلامات العريضة التي خطها مسكويه في تربية النشء  
وتهذيب أخلاقه ووجوب اتصافه بتلك التي وضع مسكويه قواعدها بدفعه والتي اتضح  
من خلالها مدى فهمه للنفس البشرية وأمراضها وكيفية علاجها .

---

(١) تهذيب الأخلاق ، مسكويه ، ص ٧١ ، ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٥ .

### ثانيا : الامام الغزالي

هو مشيخ الاسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ولد في خراسان سنة ٤٥٠ هـ الموافق ١٠٥٨ م وقد تتلمذ على امام الحرمين أبو المعالي الجويني وقد ألف الغزالي الكثير من الكتب في جميع فروع المعرفة حيث كانت ثقافته واسعة ومتنوعة وقد بدأ حياته دارسا للفلسفة وعلم الكلام وانتهى به الحال الى التصوف والزهد . ويقول الدكتور أبو ريده: (٢)

ويعد الغزالي من اكبر الأخلاقيين في الاسلام وأنه طراز فريد بينهم . فهو قد جمع في تصانيفه بين عناصر الفلسفة الأخلاقية المعروفة عند اليونان وعناصر الفضائل الدينية الاسلامية وثمرات التجربة الصوفية . وكانت حياته في أولها حياة السالك طريق التكمل الروحي على النهج الصوفي . ثم كان في الفترة الأخيرة بعد عزوفه عن التدريس واختياره العزلة حياة رياضة روحية على علم وبصيرة ثم حياة دعوة الى الاصلاح وتربية روحية عملية لمن كان حوله من أرباب القلوب كما يقول وقد أثمرت هذه الحياة أعظم ثمرات المعرفة بالأخلاق وأصولها وكيفية تربية الفضائل ومحو الرذائل . وكان مجلسه محط رجال العلماء ومقصد الأئمة والفصحاء وقد توفي في رابع عشر جمادى الآخرة بالطابران قصرية بلاد طوس وله خمسة وخمسون سنة . (٣)

(١) شندرات الذهب ، الجزء الرابع ، ص ١٠ .

(٢) مبادئ الفلسفة والأخلاق ، أ. د. محمد عبد الهادي أبو ريده ، ص ٢٤٠ ، ط ثانية .

(٣) شندرات الذهب ، ص ١٠ .



### حقيقة الخلق :

عنى الغزالي بالاصلاح الخلقى مؤمنا بأن الأخلاق الجميلة شيمة الأرواح العالوية ودليل صحة القلب وأن الأخلاق السيئة هي السموم القاتلة وهي أمراض القلب . فاهتم ببيان حقيقة الخلق فهو يميز في الانسان بين صورته المادية الظاهرة وهي الجسد وصورته المعنوية الباطنة وهي النفس ولكل منهما هيئة وصورة اما جميلة واما قبيحة ثم يعرف الخلق بقوله الخلق هو : عبارة عن هيئة راسخة في النفس عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية " فالخلق الحسن هو هيئة النفس التي تصدر عنها الأفعال الجميلة والخلق السيء هو هيئتها التي تصدر عنها الأفعال القبيحة . (١)

ومن الواضح أن الغزالي يقصد بهيئة النفس صورتها وحالتها وصفاتها التي تصدر عنها الأفعال . وهوي فصل شرح التعريف بأن يبين معنى أن الخلق هيئة راسخة أى تقتضى ثبات صفة النفس فيكون الانسان مثلاً كريماً أو حليماً على الدوام لا فى حال دون حال . ومعنى صدور الأفعال بسهولة من غير روية هو أن لا يكون الكرم أو الحلم بتكلف ومجهود وطول تفكير ثم يزيد فى التحليل فيشرح أن الخلق ليس هو القدرة على الفعل لأنها صفة ذاتية باطنية موجودة على الدوام وصالحة للجد والبذل أو البخل ولا هو الفعل ذاته لأن الفعل يتوقف على الظروف فرب شخص خلقه الكرم ولا يعطى لأنه ليس معه مال ورب شخص خلقه البخل ويبذل رياءً أو احراجاً . فالخلق هو الصفة النفسية التي عنها يصدر الفعل فهو جوهر السلوك " فالخلق اذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة" .

ولما كان حسن الصورة الانسانية الظاهرة لا يتم الا بحسن جميع الأعضاء وتناسبها فكذلك حسن الصورة الباطنة لا يتم الا بالتناسب والتوازن بين قوى النفس الثلاثة وهي قوة العقل وقوة الغضب وقوة الشهوة . وعن هذا التناسب تنشأ فضيلة العدالة أما قوة العلم فحسنها صلاحها فى أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال وبين الحق والباطل فى الاعتقادات وبين الجميل والقبيح فى الأفعال فاذا صلحت هذه القوة

(١) احياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٥١ .

(٢) مبادئ الفلسفة والأخلاق . محمد عبد الهادى أبو ريده ، ص ٢٤١ ، ط ثانية .

حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة وهي التي قال الله فيها - ومن  
يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا •

وأما قوة الغضب فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه  
الحكمة وكذلك الشهوة حسنها وصلحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة أعني إشارة العقل  
والشرع وأما قوة العدل فهو الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع فالعقل  
هو الناصح المشير وقوة العدل هي القدرة فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت  
فهو حسن الخلق مطلقا •

وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة وحسن قوة الشهوة واعتدالها  
يعبر عنه بالعفة فان مالت قوة الغضب عن الاعتدال الى طرف الزيادة تسمى تهورا وان مالت  
الى الضعف والنقصان تسمى جبنا وان مالت قوة الشهوة الى طرف الزيادة تسمى شرها وان  
مالت الى النقصان تسمى جمودا والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة والعدل اذا فات فليس  
له طرفا زيادة ونقصان بل له ضد واحد وهو الجور •

#### أساس التهذيب الخلقي : —————

أساس الأخلاق وامكان تربيتها هو وجود روح أو نفس للانسان والغزالي يسميها  
" القلب " الذي هو جوهر روحاني وهو الانسان على الحقيقة مؤهل للمعلم والعمل وهو  
المخاطب المكلف من قبل الله تعالى وهو القادر على الطاعة والمعصية فيه الاستعداد للرقى  
الى أعلى عليين والانحطاط الى أسفل سافلين ، فله صفاته وأخلاقه التي لا بد من معرفتها  
لامكان رياضته وتهذيب أخلاقه لأن " معرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق  
السالكين " •

والقلب الانساني في رأى أبى حامد يتميز بالعلم وبالارادة وحياته وغذاؤه في معرفة  
الله ومحبته وكماله في الأخلاق الحميدة • لكن القلب في هذه الدنيا وبسبب ملابسته

للبدن تلحقه شوائب متنوعة لابد له من التخلص منها • فالقلب الآدمي تتجاذبه دواعي الخير ودواعي الشر ، وهو صالح لقبول التأثير من الجانبين على حد سواء • لكنه بارادته الواعية التي تتبع بحسب العلم بالخير وفائدته والشر وسوء عاقبته يستطيع أن يختار طريقه • وطريقه الى حياته وكماله يتلخص في كبح جماح الشهوات وتزكية النفس بمخالفة الهوى • وعلى هذا الأساس يتخلق الانسان بخلق الخير والكمال •

وتزكية النفس تحتاج الى علم وعمل والعلم وحده لا يكفي لنجاة الانسان كما ظن الفلاسفة والغزالي لا يزال يؤكد هذا المعنى وكل من العلم والعمل يجب أن يكون مطابقا للشرع وهو في كلامه عن مقامات السلوك يذكر العناصر التي يبني عليها ارشاده فيقول "جميع مقامات الدين انما تنتظم من ثلاثة أمور : معارف وأحوال وأعمال • فالمعارف هي الأصول وهي الأصول وهي تورث الاحوال والاحوال تثمر الأعمال فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان والأعمال كالثمار وهذا مضطرد في جميع منازل السالكين الى الله" •

فالتوبة مثلا تنتظم من علم بعظم ضرر الذنوب وحالة نفسية هي الندم على الوقوع فيها وهذه الحالة ينشأ عنها انبعاث ارادة وقصد الى فعل هو ترك الذنب والعزم على عدم العودة •

وكذلك محبة الله وطاعته تنشأ عن علم بكماله وجلاله وانعامه وحالة نفسية — التشوق الى القرب منه وعمل يؤدي الى ذلك وهو تخليص القلب من الشوائب التي تحجبه عن الله ... وهكذا (١) •

#### دفع عن امكان التربية الخلقية :

اهتم الغزالي بارساء التربية الخلقية على أساس متين من الاقتناع بامكانها —  
أولا : مع التسليم بأن هناك أرواحا كاملة من أول أمرها بوجود الهى وكمال فطرى مثل (١) مبادئ الفلسفة والأخلاق • محمد عبد الهادى أبو ريده ، ص ٢٤٢ : ٢٤٣ ،  
نقلا عن الاحياء ، المجلد الثالث ، شرح عجائب القلب — المقدمة •

أرواح الأنبياء فان الانسان بوجه عام يتميز باستعداده للكمال ويقدره واختيار يساعده على  
تحصيل الخلق وهذا أمر مشاهد بالفعل وعلى أساسه تقوم كل دعوة الى الخير ونهى عن  
الشر . فالأخلاق يمكن أن تنال بالاكساب " بالمجاهدة والرياضة " أى حمل النفس على  
الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب ، مع دوام المواظبة على أن يتيسر على الانسان  
الفعل ليصبح خلقا وطبعاً محبوباً عند صاحبه . وهذا مبنى على العلاقة الوثيقة بين النفس  
والبدن يقول أبو حامد : " الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهى تكلف الأفعال  
الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء . وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح أعنى  
النفس والبدن .

فان كل صفة تظهر فى القلب يفنى آخرها على الجوارح حتى لا تتحرك الا على وفقها  
لا محالة . وكل فعل يجرى على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب والأمر فيه دور" (١) .

ومع ذلك فالغزالي لا ينسى أن الناس يختلفون فى جبلاتهم ويتفاوتون فى الاستجابة  
لمن يدعهم الى الخير . فيقسم الجبلات الى سريعة القبول وبطيئة القبول .

ثانيا : ليس المقصود من تربية الخلق الكريم مثل العفة ، اقتلاع جذور الشهوات  
من طبيعة الآتى لأن الشهوات لازمة للحياة نفسها ولولا الاشتها لما تناولت الكائنات  
الحية شيئا . فهلك بالكلية . وانما المراد ضبط الشهوات عند حدود الاعتدال والتوسط .  
فلا تطغى على العقل ويكون القلب فى حالة توازن بين الافراط والتفريط وفى هذا سلامته .

ويذكر الدكتور /زكى مبارك ماورد عن الغزالي فى ذلك حيث يقول " ولا يفوتنا أن  
نقرر أن الغزالي لا يريد من تغيير الخلق الا قهره واسلاسه وقد صرح بذلك فى قوله :  
" وظننت طائفة أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيات ! فان  
الشهوة خلقت لفائدة . وهى ضرورة فى الجبله فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان  
ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن  
نفسه ما يهلكه وهلك .

---

(١) مبادئ الفلسفة والأخلاق . محمد عبد الهادى أبو ريده ، ص ٢٤٤ ، نقلا عن  
احياء علوم الدين ، ج ٣ ، كتاب "رياض النفس" ، ص ٥٥ .

ومعنا بقي أصل الشهوة فيبقى لامحالة حب المال الذي يوصله الى الشهوة حتى يحبطه ذلك على ادساك المال . وليس المطلوب اعادة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذي هو وسط بين الافراط والتفريط . (١)

ثالثا : تغيير الخلق ممكن ويقول الغزالي تعليقا على قول الرسول صلى الله عليه وسلم " حسنوا أخلاقكم " لو لم يكن ممكنا لما أمر به ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواظب والترغيب والترهيب فان الأفعال نتائج الأخلاق .

رابعا : يرى الغزالي أن الخلق الحسن هو باصلاح القوى الثلاث : قوة التفكير وقوة الشهوة وقوة الغضب . (٢)

النفس والعقل عند الغزالي :

الحديث عن الأخلاق يسوقنا الى موقف الغزالي من النفس والعقل للنفس قوتان : قوة طاعة وأخرى عالمة . الأولى : هي القوة التي بها ينزع الإنسان الى الأعمال الارادية التي منها الحسن ومنها القبيح . وهي التي تعطينا بالدرجة الأولى لأنها مبدأ الأخلاق في نظره ولأنها لوسادته قوى البدن فصارت هذه هي قوى البدن - تتفعل بها وتتحرك حسب ارادتها كان من ذلك الفضيلة والخلق الحسن والاصارت مغلوطة على أمرها لتلك القوى فكان من ذلك الرذيلة والخلق القبيح . (٣)

---

(١) الأخلاق عند الغزالي ، د . زكي مبارك ، ص ١١٨ .

(٢) مبادئ الفلسفة والأخلاق ، د . عبد الهادي أبو ريده نقلا عن الأحياء ، المجلد

الثالث ، كتاب رياض النفس وتهذيب الأخلاق ، ص ٩٨ .

(٣) ميزان العمل للغزالي ، ص ٢١ .

أما القوة الأخرى : وهى العالمة أو النظرية فهى العقل بمعناه الأخرى ولها درجات

ومراتب مختلفة .

ومجاهدة النفس ورياضتها هى الطريق لاصلاحها وتركيتها ويقول فى ذلك " ولا يمكنك معرفة ما تطلبه الا بأن تعرف أولا نفسك وقواها وخواصها والمجاهدة معالجة للنفس بتركيتها لتقضى الى الفلاح كما قال تعالى " قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها " . (١) (٢)

وقد ذكر الغزالي أن الله سبحانه وتعالى عظم النفس الانسانية وأعلى من قدرها وقيمتها حيث نسبها الى نفسه فقال تعالى : "انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين" . (٣)

حيث أضاف الجسد الى الطين والروح الى نفسه تعالى . والأخلاق تتغير وتتبدل بمجاهدة النفس والاقبال على الرياضة الروحية وبقدر تعويد النفس على المجاهدة يحمس لها الكمال ويقول فى ذلك " وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاع يرجع الخلق كلهم اليه ويقتدون به فى جميع الأفعال ، ويقول أيضا " الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهى تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبقا لانتهاه وهنا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح أعنى النفس والبدن . فان كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك الا على وفقها لامحالة . وكل فعل يجرى على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب والأمر فيه دور" . (٤) والنفس تنال كمالها اذا اعتدلت قواها فلم تنجح الى الافراط أو التفريط ولا يتأتى ذلك الا بسيادة القوة العاقلة النطقية على القوتين الغضبية والشهوية .

---

(١) سورة الشمس ، آية ٩ .

(٢) ميزان العمل ، ص ١٤ .

(٣) سورة ص ، الآيات ٧١ : ٧٢ .

(٤) احياء علوم الدين ، ج ٣ ، كتاب " رياضة النفس " ، ص ٥١ .

أما عن العقل : فقد اعتمد عليه الغزالي كثيرا واعتبر المنهج الذي يعتمد على العقل والشرع معا هو المنهج السوي كما جعلها هما مصدر المعرفة .

وقد امتدح الدارسون للغزالي هذه الفضيلة رغم منيجه الصوفي فقد اجتهد في الجمع بين المنهجين يقول د . علي عيسى عثمان في كتابه الانسان عند الغزالي " وتقوم عبقرية الغزالي واسهامه في الفكر الاسلامي في اكتشافه حدود العقل كأداة من أدوات المعرفة وأهمية القلب ك مركز لكل معرفة وتجربة فيرتبط القلب بالعقل الذي يعقل به الانسان ما تحمله اليه حواسه من العالم الخارجي فينقل ذلك الى القلب ويرتبط القلب أيضا بالبدن الذي يتولى نقل كل ما يمر به من تجارب الى القلب . ( ١ )

" يقول الدكتور زكي مبارك : فقد رأينا يقيس العمل بمقياس العقل والشرع معا حين يريد أن يحكم أخير هو أم شر . فالعمل خير انا وافق العقل والشرع وشر انا خالف العقل والشرع فقد جاء في صفحة ٨١ من ميزان العمل في تعريف السخاء ما نصه " هو أن يتيسر عليك بذل ما يقتضى الشرع والعقل بذله عن طوع ورغبة ويتيسر عليك امساك ما يقتضى الشرع والعقل امساكه عن طوع ورغبة " وجاء في صفحة ١٣٦ من هذا الكتاب ما نصه : " وعادة عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها في شيء ما يختص بها الا فيما يسوغه العقل والشرع وعلى الحد الذي يسوغه " وقال في صفحة ٥٧ من الجزء الثالث من الاحياء .

" وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت اشارة العقل والشرع " وقال في وصف العمل الصالح : " وذلك بأن يكون موزونا بميزان العقل والشرع " صفحة ٢٢ ج ٣ احياء . " ( ٢ )

---

( ١ ) الانسان عند الغزالي د . علي عيسى عثمان ، ص ٢٣ تعريف خيرى حماد .

( ٢ ) الأخلاق عند الغزالي د . زكي مبارك ، ص ٩٦ .

منهج التربية الخلقية :

لقد وضع الغزالي منهجا قويا للتربية الخلقية بتوضيح الفضائل التي يجب على الانسان اتباعها حتى يصل الى الخير الأسمى . وقد جعل أمهات الفضائل أربعة أنواع هي :

١ - فضيلة الحكمة :

ويعنى بها الغزالي حالة للنفس تترك بها الحق من الباطل والصواب من الخطأ . وهي فضيلة القوة العقلية والذهنية . ويتخرج تحت فضيلتها حسن التدبير وجودة الذهن وثقافة الرأي وصواب الظن . (١)

٢ - فضيلة الشجاعة :

وهي وقوع قوة الغضب تحت سيطرة وأوامر القوة العقلية المنطقية فيكون الهيمنة لقوة العقل على قوة الغضب وتكون قوة الغضب منقادا للعقل . وتحتها يأتي النجدة والاحتمال والحلم والشبات والنبل والشهامة .

٣ - فضيلة العفة :

ويعنى بها الغزالي تأديب الشهوة وانقيادها للعقل والشرع معا وتحتها يأتي الحياء والخجل والصبر والسامحة وحسن الهيئة .

---

(١) احياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٥٣ ، ميزان العمل ، ص ٥٤ .



هو جلة الفضائل الثلاثة حيث تنشأ هذه الفضيلة من الانسجام والاعتدال مسن الفضائل الثلاث وبسيادة العقل على الشهوة والغضب بدون تطرف أو طغيان .

فعن طريق هذه الفضائل يستطيع أن يصل الانسان الى الخير الأعلى وإلى السعادة انا استطاع أن يطوع نفسه لهذه الفضائل مع ملاحظة أن معيار الاعتدال عند الغزالي فسي تحقيق هذه الفضائل هو الشرع والعقل وهناك الكثير من الفضائل التي اهتم بها الغزالي وتحدث عن أهميتها في تكميل شخصية الانسان والوصول به الى الخير الأسمى ومنها :

(١) فضيلة الصدق : وهي فضيلة الفضائل حيث ترفع الانسان عند الناس وتجعله

محل ثقتهم وأعجابهم . كما أنها تعتبر من أعظم الفضائل التي يتحلى بها الانسان .

يقول الغزالي في كتابه احياء علوم الدين (١) قال الله تعالى " رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم " ان الصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله مديقا وأن الكذب يهدي الى الفجور والفجور يهدي الى النار وأن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا " . (٢)

والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال " واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا " ، وقال " واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا " . (٣) وقال " واذكر في الكتاب اسماعيل أنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا " . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال : قول الحق والعمل بالصدق . (٤)

حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه :

يقول الامام الغزالي (٥) اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان صدق في القول وصدق في النية والارادة وصدق في العزم وصدق في الوفاء بالعزم وصدق في العمل وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو

- (١) احياء علوم الدين ، ج٤ ، ص ٢٧٤ . (٢) سورة الأحزاب ، آية ٢٣ .
- (٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب : باب ٢٩ قبح الكذب وأخرجه الامام مالك في الموطأ كتاب الطلاق ، باب ٧ ، ماجاء في الصدق والكذب ٩٨٩/٢ .
- (٤) سورة مريم ، آية ٤١ . (٥) سورة مريم ، آية ٥٤ .
- (٦) المرجع السابق ، ص ٣٧٥ ، ٣٨٠ بتصرف .

صديق لأنه مبالغ في الصدق ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ في المصدق  
في شيء من الجملة فهو صادق .

الصدق الأول : صدق اللسان وذلك لا يكون الا في الأخبار أو فيما يتضمن الأخبار  
والخير اما أن يتعلق بالماضي أو المستقبل وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه .

وهو أشهر أنواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه عن الاخبار عن الأشياء على  
خلاف ما هي عليه فهو صادق ولا يجوز العدول عنه الا لمصلحة . كتأديب الصبيان  
والنساء ومن يجري مجراهم . وفي قتال الأعنة والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك " .  
ثم يقول " فمن اضطر الى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه الله فيما يأمره الحق  
به ويقتضيه الدين . فاذا نطق به فهو صادق وان كان كلامه فيها غير ما هو عليه لأن الصدق  
ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه . نعم  
في مثل هذا الوضع ينبغي أن يعدل الى المعارض ما وجد اليها سبيلا فقد كان رسول  
الله صلى الله عليه وسلم اذا توجه الى سفر ورى بغيره كيلا ينتهي الخبر الى الأعنة  
فيقصد . وليس هذا من الكذب في شيء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليس  
بكتاب من أصلح بين اثنين فقال خير " والصدق ههنا يتحول الى النية فلا يراعى فيه  
الا صدق النية وإرادته الخير . كقوله " وجهت وجهي الذي فطر السموات والأرض " فان  
قلبه ان كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وبشهواته فهو كذب ، وكقوله  
- اياك نعبد - وقوله أنا عبد الله فانه اذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب  
سوى الله لم يكن كلامه صادقا ولو طوّل يوم لاقى الله بالصدق في قوله انا عبد الله لعجز  
عن تحقيقه فانه ان كان عبدا لنفسه أو عبدا لدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله  
وكل ما تقيد العبد به فهو عبدا له كما قال عيسى عليه السلام : " يا عبدة الدنيا " وقال  
نبينا صلى الله عليه وسلم : " تعس عبد الدينار تعس عبد درهم " .

تسمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له وانما العبد الحق لله عز وجل من حلت في

قلبه العبودية لله فتشغله بالله وبحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد  
إلا الله تعالى ثم تغنى إرادته في إرادة الله تعالى فيحير مفقودا لنفسه موجودا لسيده  
ومولاه أن حركة تحرك وإن سكه سكن وإن ابتلاه رضى لم يبق فيه متسع لطلب والتماس  
واعتراف بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية  
لله تعالى ، فالعبد الحق هو الذى وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين •

#### الصدق الثانى فى النية والارادة :

ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو ان لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلا الله  
تعالى فان مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية • وقد قال الله تعالى  
" والله يشهد ان المنافقين لكاذبون - وقد قالوا انك لرسول الله وهذا صدق ولكن  
كذبهم لان حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب • فيرجع أحد معانى الصدق  
الى خلوص النية وهو اخلاص • فكل صادق فلابد وأن يكون مخلصا •

#### الصدق الثالث : صدق العزم

فان الانسان قد يقدم العزم على العمل فيقول فى نفسه ان رزقنى الله مالا تصدقت  
بجميعه أو بشطره أو أن لقيت عدوا فى سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت •  
وان اعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعمى الله تعالى بظلم • • فهذه العزيمة  
قد يصادفها من نفسه وهى عزيمة جازمة صادقة وقد يكون فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف  
يضاد الصدق فى العزيمة فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة • • والصادق والمصدق  
هو الذى تصادف عزمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد بل  
تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات •

#### الصدق الرابع : فى الوفاء بالعزم :

فان النفس قد تسخو بالعزم فى الحال اذ لا مشقة فى الوعد والعزم فاذا حققت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه • ولذلك قال الله تعالى : رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه • • فقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب ابن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فممنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر • •

فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا •

#### الصدق الخامس : فى الأعمال :

وهو أن تكون أعمال المرء الظاهرة صورة لحالته الباطنة بخلاف الرياء • فرب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدته غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر اليه يراه قائما بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن اعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الأعمال وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار فهذا غير صادق فى عمله ولا ينجو من هذا الا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره •

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم اجعل سريرتى خيرا ممن علانيتى واجعل علانيتى سالحة " • (١)

وقال عطية بن عبد الغافر : اذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدي حقا • فاذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق •

### الصدق السادس: الصدق فى مقامات الدين :

وهو أعلى الدرجات وأعزها كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور . فان هذه الأمور لها مبادئ ينطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها كما يقال هذا هو الخـصـوف الصادق وقال الله تعالى " انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون " (١)

ولنضرب للخوف مثلاً فما من عبد مؤمن بالله واليوم الآخر الا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة . أما تراه اذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق فى سفره كيف يهبط لونه وترتعد فرائضه ويتفتى عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده كل ذلك خوفاً من درك المحذور ثم انه يخاف النار ولا يظهر عليه شئ من ذلك عند جريان معصية عليه .

فالتحقيق فى هذه الأمور عزيز جداً ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله اما ضعيف واما قوى فاذا قوى سمي صادقاً فيه . .

قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال تعالى " والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون - وصدق الطاعة لأهل العلم والورع وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض .

### ٢ - فضيلة الاخـ لاص:

(٢) بدأ الغزالي كلامه عن هذه الفضيلة بقوله : " قال الله تعالى وماأمرؤا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - وقال - ألا لله الدين الخالى - وقال تعالى : " الا الذين

(١) سورة الحجرات ، آية ١٥ .

(٢) احياء علوم الدين ، ج٤ ، ص ٣٦٤ : ٣٦٩ .

تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله - ، وعن الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يقول الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي " .

وقال عليه السلام " ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوما الا ظهرت بنباييس الحكمة من قلبه على لسانه " .

وروى أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا ان ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله ابليس في صورة شيخ فقال أين تريد رحطك الله قال أريد أن أقطع هذه الشجرة قال وما أنت وذلك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال ان هذا من عبادتي قال فاني لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذه العابد فطرحه الى الأرض وقعد على صدره فقال له ابليس أطلقني حتى أكلك فقام عنه فقال ابليس يا هذا ان الله تعالى قصد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدتها أنت وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم الى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من قطعها فناذره للقتال فغلبه العابد وصرعه وقصد على صدره فعجز ابليس فقال له هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع قال وما هو قال أطلقني حتى أقول لك فأطلقه فقال ابليس أنت رجل فقير لاشئ لك انما انت كل على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تتفضل على اخوانك وتواسى جيرانك وتشبع وتستغنى عن الناس فقال نعم قال فارجع عن هذا الأمر ولك على أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين اذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على اخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع اخوانك المؤمنين قطعك اياها فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمي قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها وما ذكره أكثر منفعه فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له فرجع العابد

الى متعبده فبات فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله ابليس فى صورة شيخ فقال له الى أين ؟ قال أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك اليها قال فتناولوه العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال هيهات فأخذه ابليس وصرعه فاذا هو كالعمفور بين رجليه وقعد ابليس على صدره وقال لتنتهين عن هذا الأمر أو لأدبحنك فنظر العابد فاذا لا طاقة له به قال يا هذا غلبتني فخل عني وأخبرني كيف غلبتك أولا وغلبتني الآن فقال لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك . وهذه الحكايات تصديق لقوله تعالى: " الا عبادة منهم المخلصين " اذ لا يتخلى العبد من الشيطان الا بالاخلاص . أما عن حقيقة الاخلاص فيقول الامام الغزالي : اعلم ان كل شئ يتصور أن يشوبه غيره فاذا دغما عن شوبه وخلص عنه سمي خالما ويسمى الفعل المصفى المخلص اخلاصا قال الله تعالى - من بين ثمر ودم لبنا خالما سائغا للشاربين - فانما خلوص اللب أن لا يكون فيه شوب من الغم والفرت ومن كل ما يمكن أن يمتزج به .

والاخلاص يضاده الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك الا أن الشرك درجات فالاخلاص فى التوحيد يضاده الشرك فى الالهية .

والاخلاص والشرك يتواردان على القلب فمحله القلب وانما يكون ذلك فى القصد والنية التى تجرهما البواعث المختلفة فقد يقصد التقرب لله بعمله ولكن يمتزج به باعث آخر من رياء أو من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن ي صلى بالليل وله غرض فى دفع النعاس عن نفسه به لمراقب أهله أو يصوم لكى يصح جسده أو ليخفف عن نفسه التردد فى طبخ الطعام أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها أو يتمدق على السائل ليقطع الحاجة فى السؤال أو يعود مريضا ليعاد اذا مرض أو يشيع جنازة ليشيع جناز أهله أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر اليه بعين الصلاح والوقار فهما كان باعثه هو التقرب الى الله تعالى ولكن انصاف اليه خطره من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه

بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق اليه الشرك وقد قال تعالى " انا أنهى الشركاء عن الشركة " .

وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح اليه النفس ويميل اليه القلب قل أم  
كثير اذ تطرق الى العمل تكدر به صفوه وزال به اخلاصه والانسان مرتبط في حظوظه  
منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعباده من عباداته عن حظوظ وأغراض من  
هذه الأجناس فلذلك قيل من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا وذلك  
لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب بل الخالي هو الذي لا باعث عليه  
الا طلب القرب من الله تعالى .

فالاخلاص هو تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها وكثيرها حتى يتجرد فيه  
قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواء . فلا يشتهي الطعام لأنه طعم بل لأنه يقويه على  
عبادة الله تعالى ويتمنى لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج الى الأكل فلا يكون له هم الا الله  
تعالى . فمثل هذا الشخى لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالى العمل صحيح النية  
فى جميع حركاته وسكاته فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نوميه  
عبادة وكان له درجة المخلصين فيه .

فاذن علاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث  
يغلب ذلك على القلب فاذا ذاك يتيسر الاخلاص .

ويعتبر الغزالي أن أشد الناس تعرضا لهذه الآفة أى الفتنة والبعد عن أداء العمل  
خالصا لوجه الله هم العلماء الذين يطربوا للمدح والثناء ويبتغون القرب من السلاطين  
وأصحاب الجاه ولذلك شدد فى تصفية العمل من العجب بالفعل ويكون الانسان مخلصا  
فى سكونه وحركاته لله تعالى دون انتظار اجرا او عوضا فى الدارين . فليكن العبد شديد  
التفقد والمراقبة لهذه الدقائق والا التحق باتباع الشياطين وهو لا يشعر .



" ويرد على الغزالي نقد من الدكتور / زكي مبارك حيث يقول : (١) " وقـــد  
انحصر الاخلاص عنده في الامور الدينية لغلبة هذه الامور عليه ولو كان الغزالي من الذين  
باشروا الحركات العامة ووقفوا على الشؤون الاجتماعية لذكر لنا ضروبا من الاخلاص في نهوض  
الأفراد بأهمهم •

وبين لنا كيف يتطرق الفرض الى الأعمال الاجتماعية وكيف تشقى الشعوب بأصحاب  
الانغراض فليس الاخلاص وفقا على الصلاة والزكاة والحج والصيام بل الاخلاص فيما بين الرجل  
وبين أمته أوجب من الاخلاص فيما بينه وبين ربه لأنه حين يحرم الاخلاص في العبادة لا يضر  
الله شيئا فان الله غنى عن العالمين • ولكنه حين يحرم الاخلاص فيما يعمل لأمره يشقى  
بسوء غرضه ملايين من النفوس ثم يصبح وهو منبوذ مهين • ولكن أكثر الناس لا يعلمون " •

---

(١) الأخلاق عند الغزالي • ذ • زكي مبارك ، ص ١٥٠ •

يقول الغزالي في كتابه الاحياء الجزء الثالث " قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنيا عليه ومظهورا نعمته لديه - وانك لعلى خلق عظيم " (١) - وقالت عائشة رضي الله عنها " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن " (٢) وقال صلى الله عليه وسلم " انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " (٣) وقال صلى الله عليه وسلم " أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق " (٤) ، وقيل " يارسل الله ما الشؤم قال سوء الخلق " (٥) . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني فقال " اتق الله حيث كنت قال زدني قال اتبع السيئة الحسنة تمحها قال زدني قال خالق الناس بخلق حسن " (٦) وسئل عليه السلام " أى الأعمال أفضل قال خلق حسن " . (٧)

وقال الفضيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم " ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها قال لاخير فيها هي من أهل النار " . (٨)

وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الايمان قال اللهم قوْنى فقواه بحسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الكفر قال اللهم قوْنى فقواه بالبخل وسوء الخلق " . (٩)

وقال صلى الله عليه وسلم : " ان الله استخلى هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم الا السخاء وحسن الخلق الا فزينا دينكم بهما " . (١٠)

وقيل يارسل الله أى المؤمنين أفضل ايماناً قال أحسنهم خلقاً " (١١) وعن أبى مسعود البدرى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه " اللهم حسنت خلقى فحسن خلقى " . (١٢)

وقال صلى الله عليه وسلم : " ان أحبكم الى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً " . (١٣)

(١) سورة القلم ، آية ٤ . (٢) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده ، ج ٦ ، ص ٩١ ، ١٦٣

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده ، ج ٢ ، ص ٣٨١ . (٤) أحمد بن حنبل ، ج ٦ ، ص ٤٤٣ ، ٤٤٦

(٥) (٦) رواه الترمذى . (٧)

(٨) (٩) (١٠)

(١١) (١٢) (١٣)

وقال أنس بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما إذ قال " ان حسن الخلق ليذهب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد " الى آخر الأحاديث الكثير التي ذكرها الغزالي في هذا الموضوع •

#### بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق :

يقول الغزالي " اعلم أن الناس قد تكلموا في حقيقة وأنه ما هو وما تعرضوا لحقيقته وانما تعرضوا لشرته ثم لهم ستوعبوا جميع ثمراته • • ولم يصرفوا العناية الى ذكر حسنه وحقيقته وذلك كقول الكرمانى هو كفى الأذى واحتمال المؤمن وقال على رضى الله تعالى عنه حسن الخلق فى ثلاث خصال اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العيال •

فهذا وأمثاله كثير وهو تعرف لثمرات حسن الخلق لا لنفسه • هذا وقد تعرضنا لهذا الموضوع فيما سبق فلا داعى لتكراره •

#### علامات حسن الخلق :

قال الامام الغزالي فى هذا الشأن " اعلم أن كل انسان جاهل بعيوب نفسه فاذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصى ربما يظن بنفسه أنه قد هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة فلا بد من ايضاح علامة حسن الخلق فان حسن الخلق هو الايمان وسوء الخلق هو النفاق وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والنافقين فى كتابه العزيز وهى بجملتها ثمره حسن الخلق وسوء الخلق فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق : قال الله تعالى " قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون الى قوله أولئك هم الوارثون " ، وقال عز وجل " التائبين العابدون الحامدون الى قوله وبشر المؤمنون " • وقال عز وجل " انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الى قوله أولئك هم المؤمنون حقا " ، وقال تعالى " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما - الى آخر

السورة " فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق وفقد جميعها علامة سوء الخلق ووجود بعضها دون بعض يدل على البعز دون البعض فليشتغل بتحصيل ما فقد و حفظ ما وجد وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقال : " المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق فقال " ان المؤمن همته في الصلاة والصيام والعبادة والمنافق همته في الطعام والشراب كالبيهة " إلى آخر الأحاديث التي ذكرها الإمام الغزالي والتي توضح علامات حسن الخلق .

#### بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة

يقول الغزالي : قد عرف أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكسب الحكمة وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها للعقل مطيعة وللشعر أيضا وهذا الاعتدال يحصل على وجهين : أحدهما بحدود الهوى وكمال فطري بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع فيصير عالما بغير تعليم ومؤدبا بغير تأديب كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليه ما السلام وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكساب قرب صبي خلق صادق اللهجة سخيا وربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالاعتیاد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق وربما يحصل بالتعلم .

والوجه الثاني : اكساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأغنى به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجود وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويؤاظب عليه تكلفا مجاهدا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جوادا وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يؤاظب على أفعال المتواضعين

مده وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف الى أن يصير ذلك خلقا له وطبعاً فيتيسر عليه وجميع الأخلاق المحمودة شرفاً تحصل بهذا الطريق وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيقاً بالسخط هو الذي يستلزم بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهه والــــن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ما لم تنمؤد النفس جميع العادات الحسنة وعالم تنترك جميع الأفعال السيئة .

كما قال صلى الله عليه وسلم " وجعلت قرّة عيني في الصلاة " ( ١ ) .

#### ٤ - فضيلة السخاء :

يقول الامام الغزالي في هذا الشأن " اعلم أن المال ان كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص وان كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الايثار والسخاء والتباعد عن الشح والبخل فان السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام ، قال عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما الله عز وجل فأما اللذان يحبهما الله تعالى فحسن الخلق والسخاء وأما اللذان يبغضهما الله ففسوء الخلق والبخل وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله في قضاء حوائج الناس " .

وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الجنة دار الأسخياء " وقال صلى الله عليه وسلم " خملتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق " .

وقال صلى الله عليه وسلم " السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج الجنة الا سخي والبخل شجرة تنبت في النار فلا يلج النار الا بخيل " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الشح والايثار لا يجتمعان في قلب عبد " وقال صلى الله عليه وسلم " لا يبنين لمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً " فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى والايثار أعلى درجات السخاء . ( ٢ )

( ١ ) كتاب احياء علوم الدين ، ج ١ ( ٢ ) المراجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .  
ص ٤٨ : ٥٦ .

## ٥ - فضيلة التواضع :

(١)

يقول الغزالي " قال بن عباس قال رسول الله صلى الله وسلم " اذا تواضع العبد  
رغعه الله الى السماء السابعة " وقال صلى الله عليه وسلم " التواضع لا يزيد العبد الا  
رفعة فتواضعوا يرحمكم الله " وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوما " مالي لا  
أرى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما حلاوة العبادة ؟ قال التواضع " .

وقالت عائشة رضى الله عنها انكم لتغفلون عن أفضل العبادات التواضع " .

(٢)

## بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع :

يقول الغزالي في الاحياء " اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق  
عن شيء منه وازالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمنى بل بالمعالجة واستعمال الأدوية  
القائمة له وفي معالجته مقامان :

احدهما : استئصال أصله وقلع شجرته من مغرسها في التغلب .

الثاني : دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الانسان على غيره .

**المقام الأول :** في استئصال أصله وعلاجه علمى وعملى ولا يتم الشفاء الا بمجموعهما  
أما العلمى : فهو ان يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ويكفيه ذلك في ازالة الكبر فانه مهما  
عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل وأنه لا يليق به  
الا التواضع والذلة والمهانة واذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء الا بالله .

أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وأما معرفته نفسه فهو أيضا يطول .  
ولكننا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في  
كتاب الله فان في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته وقد قال تعالى  
" قتل الانسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم  
أمامه فأقبه ثم اذا شاء انشره - فقد أشارت الآية الى أول خلق الانسان والى آخر

(١) احياء علوم الدين ، ج٣ ، ص ٣١٧ : ٣١٩ .

(٢) المرجع السابق ، ج٣ ، ص ٣٣٤ .

أمره فليُنظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً وقد كان في حيز العدم دهوراً وأى شيء أخس وأقل من المحو والعدم ثم خلق من أقل الأشياء فقد خلق من تراب ثم من نطفه ثم من علقة ثم من مضغة •• وهكذا وما صار شيئاً مذكوراً إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت إذ لم يخلق في ابتداءه كاملاً بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ولا يبصر •• فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوته وبجهاله قبل علمه وبعجزه قبل قدرته فهذا معنى قوله - من أى شيء خلقه من نطفه خلقه - فقدره - ومعنى قوله - هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنما خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج - وقال تعالى ثم السبيل يسهره - وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته حيث أحياه بعد أن كان جماداً ميتاً وأسمعه وأبصره وعلمه فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والخسة إلى الرفعة والكرامة فصار موجوداً بعد العدم وأسبغ عليه كل الصفات التي كانت مطلوبة منه •

فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أخس الإنسَاء وأضعف الضعفاء ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمع بأنفه وتعظيم وذلك لدلالة خسه أو له ولا حول ولا قوة إلا بالله •

فهذا هو العلاج العلمي •• وأما العلاج العطفي فهو التواضع لله بالفعل وليسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنه " كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد " •

ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعاً وقهل الصلاة عماد الدين وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً ومن جعلتها مافياً من التواضع بالمثل قائماً وبالركوع والسجود وقد كان العرب قديماً يأنفون من الانحناء •• فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعف أمروا به لتتكسر

بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم وبه أمر سائر الخلق فان الركوع والسجود والمثول قائما هو العمل الذي يقتضيه التواضع .. فان القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحموده الا بالعلم والعمل جميعا .

المقام الثاني : فيما يعرض من التكبر بسبعة أسباب :

الأول : النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين : أحدهما : أن هذا جهل من حيث انه تعزز بكمال غيره . فالتكبر بالنسب ان كان خسيسا في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره .  
الثاني : ان يعرف نسبه الحقيقي فيعرف اباه وجده فان أباه القريب نطفه وجده البعيد تراب وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال - الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين .  
فإذا كان أصله من تراب فمن أين رفعتة .

الثاني : التكبر بالجمال وموازاة أن ينظر الى باطنه ولا ينظر الى الظاهر . فقلد نظر الى باطنه رأى من القبايح ما يكر عليه تعززه بالجمال . حيث باطنه المطو بالبول والمخاط في أنفه والقنطرة في أذنيه والبراز الذي يخرج من جسده كل ذلك يجعله يعلم حقيقة فلا يتكبر بالجمال الخارجى .

الثالث : التكبر بالقوة وينمعه من ذلك أن علم ما سلف عليه من العلل والأمراني وأنه لو توجع عرق واحد في يده لملأ أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل . وأنه لو سلبه الذباب شيئا لم يستغذه منه . وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته فمن لا يطبق شوكة ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغي ان يفتخر بقوته وأين قوة الانسان من قوة البهائم .



#### الرابع والخامس :

الغنى وكثرة المال فهو متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل لأنه ليس اليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال فالتفاخر به غاية الجهل لأن التكبر بعاله لو زال عنه هذا المال لعاد ذليلاً لأنه ليس إليه شيء من هذا المال بل هو لواعبه ان أبقاه له أو استرجعه منه زال عنه •

#### السادس :

الكبر بالعلم وهو أعظم الآفات فانه من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش اذ لم يقضى حق نعمة الله عليه في العلم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم " يؤتى بالعلم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقنابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك ؟ فيقول كنت آمر بالخير ولا آتبه وأنهى عن الشر وآتته " وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل : " مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا " ، وقال بلعم بن باعوراء " واتسل عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا فانسخ منها - حتى بلغ - فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث • قال ابن عباس رضى الله عنهما : أوتى بلعم كتاباً فأخلد الى شهوات الأرض أى سكن حبه اليها فمثله بالكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث أى سوا • آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته •

#### السابع :

التكبر بالورع والعبادة وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد فينبغى أن لا يتكبر العابد على غيره فقد يكون هو أكثر عبادة من غيره في الظاهر ويكون غيره أكثر قبولاً عند الله في باطنه ولذلك اخبروا باطنه من الحمد والكبر والرياء والفعل وغيره •

٦ - فضيلة كظم الغيظ :

قال الله تعالى : " والكاذبين الغيظ " وذكر ذلك في معرض المدح وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن اعتذر الى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته " وقال صلى الله عليه وسلم " أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة " وقال صلى الله عليه وسلم " من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه لمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا - وفي رواية - ملأ الله قلبه أمنا وإيماناً " .

وقال ابن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ماجرع عبد جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى " .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما ، قال صلى الله عليه وسلم " ان لجهنم بابا لا يدخله الا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى " .

وقال صلى الله عليه وسلم " ما من جرعة أحب الى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد الا ملأ الله قلبه إيماناً " .

وجاء رجل الى سلمان فقال يا عبد الله أوصنى قال لا تغضب قال لا أقدر قال فإني غضبت فأفسدك لسانك ويدك ( ١ ) .

٧ - فضيلة الحلم :

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ لأن كظم الغيظ عيابه عن التحلم أى تكليف الحلم ولا يحتاج الى كظم الغيظ الا من هاج غيظه ويحتاج فيه الى مجاهدة شديدة ولكن اذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يبيع الغيظ وان هاج فلا يكون فى كظمه تعب وهو الحلم الطبيعى وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ولكن ابتداءه

( ١ ) كتاب احياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ١٦٦ .

التحلم وكظم الغيظتكنا قال صلى الله عليه وسلم : " انما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتخير الخير يعطه ومن يتوقى الشر يوقه " .

وأشار بهذا الى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولا وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم .

وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم لينوا لمن تعلمون وللمن تتعلمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم " وأشار بهذا الى أن التكرار والتجبر هو الذي يهيج الغضب ويمنع من العلم واللين وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم " ابننوا الرنفة عند الله قالوا وما هي نارسل الله ؟ قال تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحلم عن جهل عليك " .

وقال صلى الله عليه وسلم خمس من سنن المرسلين الحياء والحلم والحجاء والسؤال والتعطر " وقال على كرم الله وجهه قال النبي صلى الله عليه وسلم : ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وانه ليكتب جبارا عنيدا ولا يملك الا أهل بيته " وقال أبو هريرة " ان رجلا قال يارسول الله ان لى قرابة أسلم ويعطونى وأحسن اليهم ويسبئون الى ويجهلون على وأحلم عنهم قال : ان كان كما تقول فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك " " المل يعنى الرمل " .

وقيل فى قوله تعالى - ربانيين - أى حلماء علماء ، وعن الحسن فى قوله تعالى - وإذا خاطبهم الجاهلين قالوا سلاما قال حلماء ان جهل عليهم لم يجهلوا . وقال عطاء بن أبى رباح - يمشون على الأرض هونا - أى حلماء ورؤى " ان ابن مسعود مر بلغو معرضا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح ابن مسعود وأمسى كريما " وقال النبي صلى الله عليه وسلم " اللهم لا يدركنى ولا أدركه زمان لا يتبينون فيه العلم ولا يستحيون فيه من العلم قلبهم قلوب العجم وألسنتهم ألسنة العرب " .

وقال صلى الله عليه وسلم " ان الله يحب الحلِيم الحى الغنى المتعفف أبا العيال  
التقى ويبغى الفاحش البذئ السائل الملحف الغنى".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد  
أين أهل الفضل فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعاً الى الجنة فتلقاهم الملائكة فيقولون  
لهم انا نراكم سراعاً الى الجنة فيقولون نحن أهل الفضل فيقولون لهم ماكان فضلكم فيقولون  
كما اذا ظلمنا صبرنا واذا أسى البينا عفونا واذا جهل علينا حلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة  
فنعم أجر العاملين " .

**الآثر :** قال عمر رضى الله عنه تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وقال على  
رضى الله عنه ليس الخير ان يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك وأن  
لا تباهى الناس بعبادة الله واذا أحسنت حمدت الله تعالى واذا أسأت استغفرت الله تعالى  
وقال الحسن : اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم \_\_\_\_\_  
وقال على رضى الله عنه ان أول ما عوى الحلِيم من خلقه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل  
وقال بعض العلماء الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى تسمى به . وقال رجل لبعض  
الحكماء والله لأسببكم سبا يدخل معك فى قبرك فقال معك يدخل لا معنى ، ومــــــر  
المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام يقوم من اليهود فقالوا له شرا فقال لهم خيرا فقبل له  
انهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا فقال كل ينفق مما عنده " .

وقال لقمان ثلاثة لا يعرفون الا عند ثلاثة . لا يعرف الحلِيم الا عند الغضب و لا  
الشجاع الا عند الحرب ولا الأخ الا عند الحاجة اليه .

ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدم اليه طعاما فخرجت امرأة الحكيم وكانت سيئة  
الخلق فرفعت المائدة وأقبلت على شتم الحكيم فخرج الصديق مغضبا فتشبه الحكيم وقال له  
تذكر يوم كنا فى منزلك نطعم فسقطت دجاجة على المائدة فأفسدت ماعليها فلم يغضب أحد

فنا قال نعم قال فأحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة فسرى عن الرجل غضبه وانصرف وقال  
صدق الحكيم الحلم شفاء من كل ألم •

وشتم رجل أبا بكر الصديق رضى الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام رسول  
الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر انك كنت ساكنا لما شتمنى فلما تكلمت قمت قال لأن  
الملك كان يجيب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم أكن لأجلس فى مجلس  
فيه الشيطان • (١)

#### ٨ - فضيلة العفو والاحسان :

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقا فيسقطه ويبرىء عنه من قاصى أو غرامه وهو غير  
الحلم وكظم الغيظ فلذلك أفردناه •

قال الله تعالى : " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " • (١) وقال الله  
تعالى - وان تعفوا أقرب للتقوى - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاث -  
والذى نفسى بيده لو كنت حلالا لحلفت عليهن ما نقى مال من صدقة فتصدقوا ولا عفا رجل  
عن مظلمة بيتغى بها وجه الله الا زاده الله بها عزا يوم القيامة ولا فتح رجل على نفسه باب  
مسألة الا فتح الله عليه باب فقر " وقال صلى الله عليه وسلم : " التواضع لا يزيد العبد  
الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله والعفو لا يزيد العبد الا عزا فاعفوا يعمركم الله والصدقة  
لا تزيد المال الا كثرة فتصدقوا برحمتكم الله " •

وقال عقبة " لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فابتدرته فأخذت بيده  
أو بجرنى فأخذ بيدي فقال : يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل  
من قطعك وتمضى من جرمك وتعفو عن ظلمك •

وقال صلى الله عليه وسلم " قال موسى عليه السلام يارب أى عبادك أعز عليك قال

(١) كتاب احياء علوم الدين ، ج٣ ، ص ١٦٧ (٢) سورة الاعراف ، آية ١٩٩ •

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٩٧ •

الذى اذا قدر عفا " وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعز الناس قال الذى يعفو اذا قدر فاعفوا  
يعزكم الله •

وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو مظلمة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم  
وسلم أن يجلس وأراد أن يأخذ له بدظلمته فقال له صلى الله عليه وسلم : ان الظالمين  
هم المظلمون يوم القيامة " فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث وقالت عائشة رضى الله  
عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من دعا على من ظلمه فقد انتقمه  
وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اذا بعث الله الخلائق يوم  
القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات : يا معشر الموحدين ان الله قد عفا عنكم  
فليعف بعضكم عن بعضى " •

وعن أبي هريرة رضى الله عنه " ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف  
بالببيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فلأخذ بعضادتي الباب فقال ما تقولون وما تظنون  
فقالوا نقول أخ وابن عم حليم رحيم قالوا ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم أقول كما  
قال يوسف — لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين " قال فخرجوا  
كأنما نشروا من القبور فدخلوا فى الاسلام •

وعن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اذا وقف العباد نادى مناد ليقم من  
أجره على الله فليدخل الجنة قيل ومن ذا الذى له على الله أجر ؟ قال العافون عن الناس  
فيقوم كذا وكذا ألفا فيدخلونها بغير حساب " •

وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا ينبغي لوالى أمر أن يأتى  
بحد الا اقامه والله عفو يحب العفو ثم قرأ — وليعفوا وليصفحوا — الآية " •

وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاث من جاء بهن مع ايمان دخل من أى  
أبواب الجنة شاء وزوج من الحور العين حيث شاء من أدى ديننا خفيا وقرأ فى دبر كـ

صلاته - قل هو الله أحد - عشر مرات ونثا عن قائله قال أبو بكر أو احداهن يارسول الله  
قال أو احداهن " .

الآثر : قال ابراهيم التيمي ان الرجل ليظلمني فأرحمه وهذا احسان واء العفو  
لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له  
جواب .

وقال بعضهم اذا أراد الله أن يتحف عبدا قيى له من يظلمه . ودخل رجل على عمر  
بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو اليه رجلا ظلمه ويقع فيه فقال له عمر انك ان تلقى  
الله ومظلمتك كما هي خير لك من أن تلقاه وقد اقتصدتها .

وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديا يوم القيامة فينادي  
من كان له عند الله شيء فليقم فيقوم أهل العفو فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس .

وقال بعضهم ليس الحليم من ظلم فحلم حتى اذا قدر انتقم ولكن الحليم من ظلم  
فحلم حتى اذا غفا قدر .

وروى أن زيادا أخذ رجلا من الخوارج فأقلت منه فأخذ أخا له فقال له ان جئت بأخيك  
والا ضربت عنقك فقال أرايت ان جئت بك بكتاب من أمير المؤمنين تخلي سبيلي قال نعم قال  
فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهدين ابراهيم وموسى ثم تلا - أم لم ينبأ  
بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى أن لا تزر وازره وزر أخرى - فقال زياد اخلوا  
سبيله هذا رجل قد لقن حجته وقيل مكتوب فى الانجيل من استغفر لحن ظلمه فقد هزم  
الشیطان . (١)

(١) كتاب احياء علوم الدين ، ج٣ ، ص ١٧٢ .

٩ — فضيلة الرفق —

اعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدة والعنف نتيجة الغضب والفظاظة والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة وقد يكون سبب الحدة والغضب وقديكون سببها شدة الحرص واستيلاءه بحيث يدهش عن التفكير ويمنع من التثبت فالرفق فسي الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال ولأجل هذا اثني رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق وبالنسبة فيه فقال : " يا عائشة انه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة " .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق " .

وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطى على العنف " .

وقال صلى الله عليه وسلم " يا عائشة ارفقي فان الله اذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق " .

وقال صلى الله عليه وسلم " من يحرم الرفق يحرم الخير كله " .

وقال صلى الله عليه وسلم " أيما زال ولي فرفق ولان رفق الله به يوم القيامة " .

وقال صلى الله عليه وسلم " تدرون من يحرم على النار يوم القيامة كل هين لين سهل قريب " .



وعن عائشة رضى الله عنها " انها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه بيننا وشمالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عائشة عليك بالرفق فانه لا يدخل فى شئ الا زانه ولا ينزع من شئ الا شأنه " (١)

ونكتفى بهذا القدر من الفضائل عند الغزالى ، ويقول الدكتور أبو ريده : والى جانب طريقة التربية الخلقية الروحية الشاملة لأنواع الفضائل التى أشرنا اليها كما شرحها الغزالى بتفاصيلها فى كل فضيلة ورفيلة تناولها بالبحث نجد عنده بيان طريقة التربية بالنسبة للمالك الى الله وبالنسبة لتنشئة الصبيان .

فأما من يريد سلوك الطريق الى الله وهو المرید الموفى فقد رسم له أسس الطريق وهو أن يتلذذ على شيخ كامل فيلازمه ويطيعه مبتعدا عن مخالطة أهل السوء وتحلها بأخلاق معينة كالاستقامة مع الله وحسن الخلق مع العباد ومتجنباً كل ما يورث الصفات الذميمة .

وفى كتاب " الأحياء " رسم له طريقة التكل الروحى الذى بدأت التخلّى من كل ما يهوى طريقه الى الله مثل حب المال والجاه والتمتعب والمعاصى . ثم تأتى مرحلة العمل على تنمية الروح تحت إرشاد الشيخ العربى .

أما عن تنشئة الأطفال ويسمى الغزالى " رفاة الصبيان " فانه يهتم بها اهتماما كبيرا لأن الصبى أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش فيه ومائل الى كل ما يمال به اليه .

ويرسم أبو حامد لتربية الصبى برنامجا شيقا يشمل حياته من مرحلة الحفانة الى مرحلة المدرسة وما بعدها .

والتربية تعتمد بوجه عام على التعويد والإرشاد بحكمة ورفق مع حفظ الصبى من

---

(١) كتاب احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

مخالطة قرناء السوء • حتى اذا نضج ثقله جاء دور شرح أسرار الآداب والفضائل على أساس النشأة الصالحة التي تجعل للكلام عند البلوغ وقعا وتأثيرا في النفس •

على أن من أسس التربية في الاسلام الى جانب الشرح النظري للفضائل وبيان طريقة غرسها عمليا في النفس الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم •

وقد عبر الغزالي عن جملة من تفكيره في عبارات جامعة تلخص الكثير مما تقدم وهي قوله في أول كتاب " آداب المعيشة وأخلاق النبوة " :

" آداب الظواهر عنوان آداب البواطن وحركات الجوارح ثمرات الخواطر والأعمال نتيجة الأخلاق والآداب رشح المعارف وسرائر القلوب هي مقارن الأفعال ومتابعها وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتجليها وتبدل بالمحاسن مكارها مساويا •

ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه ومن لم يكن صدره مشكاه الأنوار الالهية لم يغنى على ظاهره جمال الآداب النبوية " ثم يفيق أبو حامد في بيان محاسن أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام وهي جماع الفضائل والآداب العالية " (١)

(١) مبادئ الفلسفة والأخلاق ، أ.د. محمد عبد الهادي أبو ريده ، ص ٢٤٦ ،

ص ٢٤٧ ، نقلا عن كتاب احياء علوم الدين ، المجلد الثالث •

## الفصل السادس

### " الأخلاق المبنية الإسلامية "

- المبحث الأول : الجوانب الأساسية في الشريعة الإسلامية
- المبحث الثاني : القواعد الأساسية في الأخلاق الإسلامية
- المبحث الثالث : القرآن والالتزام بالخلق

•

•

•

•

## الفصل السادس

### الأخلاق الدينية الإسلامية

#### المبحث الأول

#### الجوانب الأساسية في الشريعة الإسلامية

الدين الحق نظام في الفكر والحياة أو هو علم بالوجود ومصدره وبالنسبة وحقيقته ورسالته وتنظيم حياته وهو يتناول تنظيم حياة البشر من جوانب كثيرة :

١ - هناك القانون بمعناه الواسع أى الشريعة الالهية التى تنظم حياة الناس فى علاقاتهم الشخصية ومعاملاتهم وتبين لهم أنواع الأعمال التى لايجب أن يفعلوها وتضع العقوبة لمن يخالف الأمر . وبذلك يمكن الزام الانسان أن يسير فى علاقته بالغير على نحو يحفظ حقهم وحقه .

٢ - وهناك العبادات التى تحى العلاقة بين الناس وبين الله وهى علاقة تعظيم ومحبة وشكر من الانسان لخالقه . والعبادات تنحى نحو تقوية الجانب الروحى والخلقى والاجتماعى فى الانسان وهى فى الحقيقة ليست اعمالا شكلية كما يؤديها البعض أو يتخيلونها بل هى أعمال ظاهرة بالجوارح تصاحبها أعمال باطنة روحية وأحوال نفسية وآداب كثيرة مثل التفكير والخشوع أمام جلال الله والمناجاة له هذا بالإضافة الى دورها فى تربية خلق المسلم التربية القوية فالعبادة : هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة .

فالصلاة والزكاة والصيام والحج هى الأركان الأساسية للعبادة فى الاسلام وهناك صير أخرى من العبادة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وآداء الأمانة والاحسان للجار والصبر على المحصية والشكر على نعم الله وغيرها من صير العبادة فى مضمونها الشامل هى العبودية والطاعة والخضوع لله وحده . فهى الصلة الدائمة بالله عز وجل .

فالملاة لها أهمية عظمى فى تربية المسلم الصالح على الأخلاق القويمة فى الركن الوحيد من أركان الإسلام الذى لابد من أن يمارسه المسلم عدة مرات فى كل يوم بنظام معين وفى وقت محدد وفى خشوع تام ولا يدخل المسلم الى الصلاة الا بعد أن يتهيأ لها حساً ونفساً .

فالمسلم يتوضأ لى ينظف جسده من القاذورات أيضاً وقوفه بين يدى الله واستشعاره لعظمة الخالق ينظف نفسه من الدنس والخطايا .

فالملاة طهر لمن يؤديها والمحافظة عليها فى مأمن من وساوس الشيطان وشطحات النفس التى تبعده عن طريق الهداية والرشد .

قال تعالى " وأقم الملاة ان الملاة تنهى عن الفحشاء والمنكر " (١)

وللملاة أهمية عظمى فى شعور المسلم بالاتحاد مع اخوانه المسلمين حيث أن صفوف الملاة المترامة بالمسلمين بلا أدنى تفرقة بينهم ترفع من معنوياتهم وتجعلهم يشعرون بالأخوة والاتحاد .

من أجل ذلك كان للملاة مكانة عظمى ورفيعة فى الدين الإسلامى فلم يتصرف القرآن الكريم لرسم صورة المؤمنين الا وكانت الملاة عنصر أساسى فى رسم هذه الصورة .

قال تعالى " ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الملاة " (٢)

ولم تكن الملاة لها المكانة الرفيعة فى الدين الإسلامى فحسب وانما كانت لها نفس المكانة فى كل ديانة سماوية وان كل الرسل عليهم السلام قد اهتموا بها .

(١) العنكبوت ، آية ٤٥

(٢) البقرة ، آية ٢ ، ٣ .

فأبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام يناجى ربه فيقول " ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة " (١)

ويخبرنا القرآن الكريم كذلك أن أول ما تلقى موسى عليه السلام عن ربه عز وجل " وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى • اننى أنا الله لا اله الا أنا فأعبدنى وأقم الصلاة لذكرى " (٢)

ويقول تعالى على لسان نبيسى عليه السلام " وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا " (٣)

ومن وصايا لقمان لابنــــه :

يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنهى عن المنكر " (٤)

الصوم :

الفريضة التالية فى تقويم أخلاق الانسان المسلم هى الصوم •

فالصوم تهذيب للنفس وتدريبها على الصبر وقوة التحمل وتعويدها على كبح جماح الشهوة •

فالصوم ليس مجرد الامتناع عن الطعام والشراب وانما هو ضبط للنفس وتنظيم للسلوك الانسانى •

أىضا الصوم يربى فى الانسان ضميره فيجعله رقيب على نفسه أمام الله •

(١) إبراهيم ، آية ٣٧ • (٢) طه ، آية ١٤

(٣) مريم ، آية ٢١ • (٤) لقمان ، آية ١٧

فالصوم من العبادات التي تسمو بالنفس عن الدنسى والأفذار ويساعد على تربية  
الانسان المسلم تربية سليمة قوية • حيث أن الصائم يكون طوال يومه مشغول بالعبادة  
والقرب الى الله فيبتعد من تلقاء نفسه عن الذنوب والمعاصي التي نهاه الله عنها فتمنعه  
نفسه وهو صائم عن الوقوع فيها •

#### الزكاة :

فالزكاة تطهير لنفس المؤمن ولأمواله قال تعالى : " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم  
وتركهم بها " . (١)

ففي الزكاة تربية للنفس على البذل والعطاء وعلاج لشح النفس وتعويد للنفس على  
خلق السخاء والكرم ، قال تعالى : " ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " (٢)

أبنا الزكاة تساعد على توثيق العلاقة بين المسلم وأخيه المسلم وتتوثق صلات العودة  
والرحمة في المجتمع الاسلامى •

ولأهمية الزكاة في الاسلام نجد أن القرآن الكريم قرنها بالصلاة في كثير من الآيات  
قال تعالى : " ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يقيمون الصلاة ومما  
رزقناهم ينفقون " (٣) ، وقال تعالى : " وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة " . (٤)

#### الحج :

والحج من العبادات التي فرضها الله على من استطاع اليه سبيلا والمراد بالاستطاعة  
هو القدرة المادية والجسدية والنفسية أيضا •

(١) التوبة ، آية ١٠٣	(٢)	، آية ١٦
(٣) البقرة ، آية ٢٠٢	(٤) الحج ، آية ٢٧ ، ٢٨	



فالحج فريضة اسلامية تعود المسلم على تحمل المشاق وتبث في النفس الصفاء والشفافية وتسمو به في أعلى الدرجات . قال تعالى : " وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكرون اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير" . (١)

تلك هي العبادات المفروضة في الاسلام والتي تعمل على تربية المسلم على الخلق والسلوك القويم والتي ان طبقت تسمو بالمجتمع المسلم الى أعلى الدرجات .  
٣ - أما ناحية الأخلاق بمعناها الخالي فان الرسول صلى الله عليه وسلم قال :  
" انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" .

وفي الحديث الشريف من بيان الفضائل في موقف الانسان مع الله ومن بيان الفضائل الاجتماعية ما لا يدخل تحت الحصر وما هو كليل بتكوين لأفرد الكامل والجماعة الكاملة .

وإذا كانت الأخلاق أمرا يخشى الانسان في نفسه ويخضع كعضو في جماعة فان الاسلام عني بالفاحيتين .

## المبحث الثاني

### القواعد الأساسية في الأخلاق الإسلامية

لا شك أننا نستقى قواعداً الأساسية للأخلاق في الإسلام من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة حيث أن المتأمل في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة يرى أمامه الطريق المنير المستقيم مرسوماً في وضوح وجلاء لكي يصل الإنسان إلى سعادة الدارين •

فقد وضع الإسلام المبادئ المتينة التي تجعل الإنسان - تحت ظل هذا التشريع - ينهل من الحياة الدنيا كيفما شاء طالما في الإطار المشروع وبالطريق الحلال ويعمل لآخرته واضعاً في اعتباره لحظة لقاء ربه تعالى •

ومن طبيعة هذه المبادئ الإسلامية أنها مرنة كي تترك للأجيال المتعاقبة القدرة على اختيار الصور التي توفق بها بين القواعد الأساسية في الدين وبين ما تقدمه الحياة عن طريق التجارب والأحداث المتوالية لكي تسمح للأمم بتحقيق تطوراتها في أسلوب التقدم دون إهمال أي جانب من جوانب المبادئ الإسلامية • حتى لا يحدث الجمود في المجتمع الإسلامي •

أيضاً من طبيعة هذه المبادئ أنها شمولية تقصد الصالح الاجتماعي والإنساني ككل فلا تهدف إلى غاية شخصية أو منفعة خاصة لأن هذه المبادئ الإسلامية مصدورها رب العالمين الذي شرع ما يصلح إلى طريق الهدى الذي ينتهي بالسائر فيه إلى الاستقامة والملاح •

من أجل هذا كان على المسلم أن يلتزم بالطاعة والتتبع لهذه المبادئ الصادرة عن العزيز الحكيم الذي يعلم ما يصلح خلقه فهو الذي يعلم خائنه الأيمن وما تخفى الصدور •

ومن هذه المبادئ والقواعد الأساسية للأخلاق :

- ١ - الأمر باحترام الانسان فحرم قتل النفس والتعدي على الأموال والأعضاء — راعى  
قال تعالى : " ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق " (١) فقد حرم قتل  
النفس الا بالحق كما نهى الانسان عن قتل نفسه بالانتحار . قال تعالى :  
" ولا تقتلوا أنفسكم " (٢) وقال تعالى : " والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما  
كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم " . (٣)  
٢ - الأمر بفضيلة الصدق والنهي عن رذيلة الكذب . قال تعالى : " يا أيها الذين  
آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " (٤) أيضا نهى عن قول الزور . قال تعالى :  
" واجتنبوا قول الزور " (٥) ، وقال تعالى : " انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون  
بآيات الله وأولئك هم الكافرون " . (٦)  
٣ - الأمر بالأمانة والنهي عن الخيانة ، قال تعالى : " ان الله يأمركم أن تؤدوا  
الأمانات الى أهلها " (٧) ، وقال تعالى : " ان الله لا يحب كل خوان كفور " (٨)  
حيث أن المجتمع الذي يسوده طابع الأمانة يستتب فيه الأمن وتسوء الأخوة بالحب .  
٤ - الأمر بالصبر ، قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا " . (٩)  
٥ - الأمر بفضيلة التعاون على الخير ، قال تعالى : " وتعاونوا على البر والتقوى ولا  
تعاونوا على الاثم والعدوان " . (١٠)  
٦ - الأمر بالاعتدال في كل أمر والتوسط في كل شيء وعدم الاسراف ، قال تعالى :  
" ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط " . (١١)

(١) الأنعام ، آية	(٢) النساء ، آية ٣٩	(٣) المائدة ، آية ٣٨ .
(٤) التوبة ، آية ١١٩	(٥) الحج ، آية ٢٠	
(٦) النحل ، آية ١٠٥	(٧) النساء ، آية ٥٨ .	
(٨) الحج ، آية ٢٨	(٩) آل عمران ، آية	
(١٠) المائدة ، آية ٢٠	(١١) الاسراء ، آية ٣٩ .	

٧ - النهى عن السخرية والتنازع بالألقاب والظن السيئ والتجسس والغيبة والتي هي من الأمور التي تفسد المجتمع ، قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خييرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون • يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان معنى الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم" . (١)

٨ - كذلك من الرذائل التي أمر الله سبحانه وتعالى بالبعد عنها رذيلة الحسد والطمع فيما عند الغير من أنعم الله تعالى فهي من الرذائل التي تشغل الوقت فيما لا فائدة منه وتبعد المجتمع الذي يصاب بها عن العمل •

قال تعالى : " أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله " . (٢)

وقال تعالى : " ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن وأسألوا الله من فضله " . (٣)

كذلك من الرذائل التي حذر منها الاسلام لأنها ان تفشت في المجتمع انهار من أساسه وهي الزنا وشرب الخمر والخبائث •

قال تعالى : " ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا " . (٤)

وقال تعالى : " الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة " . (٥)

أيضا قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس

---

(١) الحجرات ، آية ١١ ، ١٢ (٢) النساء ، آية ٥٤

(٣) النساء ، آية ٣٢ (٤) الاسراء ، آية ٣٢

(٥) النور ، آية ٣ •

من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلمكم تفحون انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون" . (١)

أيضا من الرذائل الاجتماعية الخطيرة التي تقوض المجتمع وتهدمه من أساسه رذيلة النفاق التي تفسد العلاقات الاجتماعية •

قال تعالى : " ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد " . (٢)

٩ - كذلك نذكر من الفضائل التي أمر بها الاسلام وجعلها قمة الفضائل فضيلة العدل قال تعالى : " ان الله يأمر بالعدل والاحسان " . (٣)

وقال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين " . (٤)

وهكذا فهناك الكثير من القواعد الأساسية التي وضعها الاسلام للأخلاق والتي ان اتبعت وطبقت لرفعت من شأن المجتمع الاسلامي لذلك نجد القرآن الكريم يوضح الجراء الحقيقية لمن يتبع هذه القواعد فقال تعالى : " من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون " . (٥) على أنه إذا كانت الشريعة تضبط السلوك وكان الاهتمام بالفضائل الشخصية والاجتماعية يكون الغرد والجماعة • فان من بين مفكرى الاسلام طائفة اهتموا بتربية الفضائل كلها على نحو علمي وعلى أساس علمي بغية جعل الفضائل صبغة للروح وحالا لها. تصدر الأعمال الفاضلة نابضة بالحياة وهؤلاء هم الموفية الذين لم يقتصروا على بيان كيف يمكن معالجة الذميمة بل اهتموا أيضا ببيان كيف يمكن تحصيل الأخلاق الحميدة •

(١) النور ، آية ٣٢ (٢) البقرة ، آية ٣٠٤ : ٣٠٦

(٣) النحل ، آية (٤) النساء ، آية

(٥) النحل ، آية ٩٧

والى جانب تكوين الأخلاق الكريمة على طرق تربوية نظرية وعملية فإن الأخلاق الإسلامية تقوم فى ناحية من نواحيها على القدوة الحسنة وهى هنا شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم باعتبار أنه الانسان الكامل الذى علمه الله تعالى العلم والعمل فاستحق أن يقول تعالى له " وانك لعلى خلق عظيم " .

#### الحقوق والواجبات فى الاسلام

عندما أشرقت الرسالة المحمدية السامية كان العالم فوضى جهالات وحرب شهوات وعصبيات ولم يكن هناك فخر الا بالقوة والطغيان والتفنن فى صروب الظلم والعدوان ومن أشعارهم فى ذلك :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه •• تهدم ومن يظلم الناس يظلمهم

وتاريخ الجاهلية مشحون بالنزعات الفردية الأنانية التى لاتخفى مظاهرها على من له أدنى العام بأحوالها اذ ذاك •

وأما الأمم المتحضرة فكانت على مالها من مدنية وسلطان لاتكاد تعبر المبادئ العامة السامية أدنى عناية ولاهم لها الا تحقيق أطماعها الخاصة كائنة ماكانت الوسيلة التى تحقق أطماعها •

ولكم كان رائعا مدهشاً أن تبزغ شمس الرسالة المحمدية على ذلك العالم المظلم فجأة بتلك الأصواء الرائعة من العلم والعرفان والنور والمبادئ السامية التى لا تفرق فى الحقوق والمعاملات بين فرد وفرد وبين أمة وأمة • قال تعالى: " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها " ( ١ )

( ١ ) سورة النساء ، آية ١

وقال تعالى : " يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل  
لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم " .

فهى دعوة الى رب واحد ونبي واحد وقانون واحد وعدل واحد لعالم واحد . لاتمايز  
فيه بألوان ولا بألسن ولا بأوطان .

دعوة الى اخاء عام عالمي يكون للأفرد فيه خير معين لأخيه فيسود التعاون فى كل  
ما يعود على الإنسانية بالخير والفلاح أفرادا وجماعات لا ظلم ولا استعباد ولا استعلاء  
ولا حجر على الحرية ولا اكراه فى الدين ولا تفاخر بالأنساب ولا تنابز بالألقاب قانون  
من الآداب السامية شامل كامل يسير به الجميع وكل لأخيه كالملاك الحارس يعرف له  
حقه فى الأمن وحقه فى احترام للأذات وحقه فى احسان الجوار وحقه فى المواده والرحمة  
والبر والتعاون للوصول الى الخير وحقه فى حرمة بيته وحرمة عرضه وحرمة ماله . فهى  
دعوة الى كل ما يحقق لأبناء الإنسانية جمعاء سعادة شاملة .

ولما كانت حقوق الأفراد والجماعات وواجباتهم بعضهم ازاء بعضى هى من الكثرة  
والتنوع بحيث لا يتيسر الكلام عليها كلها فى هذا المقام لذا نؤثر أن ننبه على أهمها  
وأجدرها بلاعتناء . فمن أهم هذه الحقوق :

#### ١ - حق الحياة :

وهو " ان يتمتع كل فرد بالاطمئنان على حياته واحترامها رجلا كان أو امرأة  
صغيرا كان أم كبيرا غنيا كان أم فقيرا .

فقد أعد القصاص لمهدرى هذا الحق . قال تعالى : " ولكم فى القصاص حياة  
يا أولى الألباب لعلكم تتقون " ( ١ )

( ١ ) سورة البقرة ، آية ١٧٩ .

ولعل الطبع الانساني السليم لا يستبشع قط جريمة بمثل ما يستبشع جريمة  
العدوان على النفس .

ولعل قصة قابيل وهابيل كانت من الدآسى الأولى للبشرية والتي كانت بشاعتها  
سببا فى أن يكتب على بنى اسرائيل أن من قتل النفس الانسانية بغير حق يـكـوـن  
كأنما قتل الناس جميعا ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعا فليس هناك ما هو أدل  
على الرقى والسمو من العناية بهذا الحق المبين . (١)

## ٢ - حق الحرية :

واللحرية معان كثيرة منها الحرية المطلقة وهى أن يريد ويعمل ما يريد من غير أن  
يكون لأى شىء آخر سلطان على ارادته أو عمله وهذه لا تكون الا لله سبحانه وتعالى .

فهو تعالى الذى يريد ويعمل ما يريد دون قيود أو عوائق تقف أمام ارادته أمما  
الحرية بالنسبة للانسان فتكون القدرة على عمل كل شىء لا يضر بالغير ويقول عنها  
هروبرت سبنسر : " كل انسان حر أن يفعل ما يريد بشرط ألا يتعدى على ما لغيره  
من مثل حريته " .

وان سلب حرية الفرد خروج به عن حدود انسانيته كما أن سلب حرية الجماعات  
عامل بليغ الأثر فى تأخرها وانحطاطها .

فمن الحقوق التى كفلها الاسلام للانسان حرية التفكير والتدين ويشمل ذلك حرية  
التعبير عن المعتقد بالممارسة وأداء الشعائر . قال تعالى : " ولو شاء ربك لآمن من  
فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " . (٢)

---

(١) بتصريف من " تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية " د . أبو بكر

زكى ، ص ١٢٧ .

(٢) يونس ، آية ٩٩ .



وقال تعالى : " لكم دينكم ولي دين " . (١)

### ٣ - حق التملك :

فشريعة الاسلام تقرر حقوق الانسان وحرية في الكسب والتملك من الطيبات  
قال تعالى: " يا أيها الذين آمنوا خففوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم ممن  
الأرض " (٢) .

والاسلام يدعو المسلم الى السعى وطلب الرزق الحلال حتى لا يكون غالة على  
الناس وجعل العمل عبادة وجهاز في سبيل الله كما اعتبر شهيدا من مات دفنا عن ماله  
ففي الحديث : " من قاتل دون دمه فهو شهيد ومن قاتل دون عرضه فهو شهيد ومن قاتل  
دون ماله فهو شهيد " ويوضح الأستاذ أبو بكر ذكرى أن هذا الحق مكفول لكل انسان  
ولكن بشروط وهي أن يجتاز العراء ثمرة مجهوده وما يصل الى يده بطريق مشروع دون  
مخالفة للقانون والشرع القائم ودون اضرار بالجماعة التي هو فيها " (٣)

### ٤ - حق التربية والتعليم :

وأما حق التربية والتعليم فهو أحد فروع الحرية وقد نرى عليه الأخلاقيون على  
الخصوص لنا له من أهمية بارزة فالعلم باب للأخلاق القويمة وسبيل للدين السليم  
وهو حق العراء في أن يتعلم كل ما يهصره بسبيله في هذه الحياة من العلوم والفنون  
والمعارف والفلسفات فيدرك الحياة وترقى شخصيته . والتسلق بهذا الحق واستعماله  
المشروع من أعظم الأئمة على كمال العقل والتدبير واستقامة الطبع وسلامته . والسعى  
لنشر التعليم من أهم واجبات الجماعة نحو الأفراد . فواجب على الحكومات ائناد الوسائل  
ووضع الأساليب الصحيحة التي تكفل التعليم لكل فرد وتجعله اجباريا لكل طفل .  
فما حرصت أمة على هذا الواجب الا تم لها النجاح والفلاح والتقدم . وما قصرت فيه أمة  
الا بقيت في اسر الجهل والتأخر وبدون العلم والتربية لا يمكن قط أن يقال أن الفرد أو  
للأمة حياة حقيقية .

(١) سورة الكافرون ، آية ٦ (٢) سورة البقرة ، آية ٢٦٧

(٣) تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية ، ص ١٢٩

من أجل ذلك حرص الاسلام على الدعوة الى العلم وكانت أولى آيات القرآن الكريم دعوة للقراءة والمعرفة ، قال تعالى : " اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلقت الانسان من علق • اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم " (١) فهي أول مادة دستورية الهية نزلت تحارب الأمية والجهل وترفع من شأن العلم وقد أقسم الله تعالى بالقلم تشريفا له وتعظيما لقدره وأثره ، قال تعالى : " ن والقلم وما يسطرون " (٢) ورفع من شأن العلماء فقال تعالى : " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " (٣)

كما جعل القرآن العلماء أهل خشية الله تعالى ، قال تعالى : " انما يخشى الله من عباده العلماء " (٤) ، كما وضع مكانه العلم والعلماء بقوله تعالى : " قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون " (٥)

كما قررت السنة الشريفة أن " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " فالعلم حق لكل انسان • لذلك يجب على الدولة جعله إلزامي وتوفير سبله لكل انسان • أما الواجبات فهي :

#### ( ١ ) الواجب للعلم :

في العالم قوة خفية تحركه وتدير شؤونه وهي علة وجوده وبقائه وهي سر ما نشاهد من نظام دقيق وقوانين لا تتخلف وظواهر تتابع بانتظام • نجوم قد دق نظام سيرها " ولا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون " (٦)

( ١ ) العلق ، آية ١ : ٥ ( ٢ ) القلم ، آية ١

( ٣ ) المجادلة ، آية ١١ ( ٤ ) فاطر ، آية ٢٨

( ٥ ) الزمر ، آية ٩ ( ٦ )

لهذه القوة نحن مهينون بكل شيء لنا : بحياتنا وبصحتنا وبجوانسنا وبكل ملاذ الحياة وصفوف النعيم . هذه القوة هي الله رب العالمين . فواجب علينا حبه واجلاله وشكره . نحيه لأنه الموجود الكامل الذي لا حد لكماله ونحيه لأن فسي طبيعتنا أن نحيه فكل انسان على الفطرة يشعر بحنين الى اله يفزع اليه عند الشدائد ويتضرع اليه في كشف السوء عنه ويجد في الالتجاء اليه سلوة وأسى عند المصائب ومشجعا على العمل وباعثا على التضحية اذا دعت الخال . ونحيه لأنه مصدر كل خير لنا وهو الذي يمدنا من قدرته بكل مالنا من وجود وقدره .

ومن مظاهر هذا الحب لله التعبد بأشكال العبادات المختلفة فانها خير ما تكون تعبير عن الحب والاخلاص والطاعة لله .

كما أن أحسن أنواع الشكر لله الخضوع لقوانين الأخلاق والعمل بما تقتضيه ، ذلك لأن الله خلق هذا العالم وجعل سعادته مرتبطة بأشياء من صدق وعدل وأمانة وما الى ذلك وشقاءه وفناءه في أضدادها ثم أمر بما يوصل الى السعادة وسماه خيرا ونهى عما يجلب الشقاء وسماه شرا وتلك الأمور التي توصل الى السعادة هي بعينها قوانين الأخلاق فمخالفتها على أمر الله جاحد لنعمه ومطيعها مطيع لأمره مؤد لواجبه .

اذا امتلأت النفس تقيدة بما قد دنا من قوانين الأخلاق هي أوامر الله صدرت الأعمال عنها ممزوجة بقوة تجعلها أقوى أثرا وأكثر نفعا ولذا ترى أن أكثر من اندفعوا لنصرة الحق وتشددوا في التمسك به أو قدموا أنفسهم فداء الفضيلة كانوا متلئين تقيدة بالله ووجوب طاعته ألهمتهم حماسه رغبة في رضاه وشوق الى لقاءه . (١)

---

(١) الأخلاق ، أحمد أمين ، ط ١٠ ، ص ١٧١ .

ويذكر الدكتور / عبد الله دراز<sup>(١)</sup> ما على الانسان من واجبات نحو الله تعالى مدعما ذلك بالآيات القرآنية الكريمة ومفصلا تفصيلا جيدا بقوله : الايمان بالله وبما أنزل من حقائق :

" ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وآتى المال ٠٠٠ الآية " (٢)

وقوله تعالى : " آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا " (٣)

#### الطاعة المطلقة :

قال تعالى :

" ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا " . (٤)

#### تدبر آياته :

قال تعالى : " واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون " (٥)  
وقال تعالى : " أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟ " (٦) ، وقال : " أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " . (٧)

#### تدبر صنعه :

قال تعالى : " وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون " . (٨)

- |  |                         |
|--|-------------------------|
| (١) دستور الأخلاق فى القرآن . د. محمد عبد الله دراز ، ط أولى ، ص ٧٦٣ وما بعدها | (٢) البقرة ، آية ١٧٧ .  |
| (٣) النساء ، آية ٦٦ .  | (٤) الأعراف ، آية ٢٠٤ . |
| (٥) محمد ، آية ٢٤ .  | (٦) النساء ، آية ٨٢ .   |
| (٧) الذاريات ، الآيات ٢٠ ، ٢١ .  |                         |

وقال تعالى : " أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء " . ( ١ )

شكره على نعمائه :

قال تعالى : " وما بكم من نعمة فمن الله " . ( ٢ )

وقال تعالى : " قل أرأيتم أن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من اله غير الله يأتاكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم أن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من اله غير الله يأتكم بالليل تسكون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ " . ( ٣ )

عدم رد سباب المشركين :

قال تعالى : " ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم " . ( ٤ )

تجنب مجالسة الخائضين في آيات الله :

قال تعالى : " وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأمرهم حتى يخوضوا في حديث غيره وأما بنسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذي مع القوم الظالمين " . ( ٥ )

عدم الاكثار من الحلف بالله :

قال تعالى : " ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم " . ( ٦ )

( ١ ) الأعراف ، آية ١٨٥ . ( ٢ ) النحل ، آية ٥٣ .

( ٣ ) القصص ، الآيات ٧١ ، ٧٢ . ( ٤ ) الأنعام ، آية ١٠٨ .

( ٥ ) الأنعام ، آية ٦٨ . ( ٦ ) البقرة ، آية ٢٤٤ .

احترام اليمين متى حُلف :

قال تعالى " وأحفظوا أيمانكم " . (١)

دوام ذكر الله :

قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا " . (٢)

وقال تعالى : " ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون " . (٣)

تسبيحه وتكبيره :

قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا " . (٤)

آداء الصلاة المفروضة :

قال تعالى : " ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا " . (٥)

وقال تعالى : " أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا " . (٦)

وقال تعالى : " حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين " . (٧)

- |                        |                              |
|------------------------|------------------------------|
| (١) المائدة ، آية ٨٩ . | (٢) الأحزاب ، آية ٤١ .       |
| (٣) الحشر ، آية ١٩ .   | (٤) الأحزاب ، الآيات ٤١-٤٢ . |
| (٥) النساء ، آية ١٠٣ . | (٦) الاسراء ، آية ٧٨ .       |
| (٧) البقرة ، آية ٢٣٨ . |                              |

حج البيت لمن استطاع اليه سبيلا :

قال تعالى:

" الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى " . ( ١ )

دعاء الله بين الخوف والأمل :

قال تعالى :

" ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا في الأرض بفساد اصلاحها وادعوه خوفا وطمعا ان رحمة الله قريب من المحسنين " . ( ٢ )

وقال تعالى : " وقال ربكم : ادعوني استجب لكم " . ( ٣ )

التوبة الى الله والتماس مغفرته :

قال تعالى : " وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون " . ( ٤ )

وقال تعالى : " ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيفا " . ( ٥ )

حب الله :

قال تعالى : " فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم " . ( ٦ )

- |                          |                                |
|--------------------------|--------------------------------|
| ( ١ ) البقرة ، آية ٢٣٨ . | ( ٢ ) الأعراف ، الآيات ٥٥-٥٦ . |
| ( ٣ ) غافر ، آية ٦٠ .    | ( ٤ ) النور ، آية ١٣ .         |
| ( ٥ ) النساء ، آية ١١٠ . | ( ٦ ) المائدة ، آية ٥٤ .       |

وقال تعالى : " ومن الناس من يتخذ من دونه الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله " (١)

#### الرضا بقضائه :

قال تعالى : " ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون " (٢)

#### التوكل عليه :

قال تعالى : " أن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ؟ وظى الله فليبتوكل المؤمنون " (٣)

#### عدم اليأس من رحمته :

قال تعالى : " ولا تيأسوا من روح الله انه لا يبأس من روح الله الا الفاسقون الكافرون " (٤)

#### أو الأمن من بأسه :

قال تعالى : " أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ؟ أو من أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يالعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون " (٥)

- |                            |                             |
|----------------------------|-----------------------------|
| (١) البقرة ، آية ١٦٥       | (٢) البقرة ، الآيات ١٥٥-١٥٧ |
| (٣) آل عمران ، آية ١٦٠     | (٤) يوسف ، آية ٨٧           |
| (٥) الأعراف ، الآيات ٩٧-٩٩ |                             |



تعليق كل فعل مستعمل بمشيئته :

قال تعالى : " ولا تقولن لشيء : انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله " . ( ١ )

الوفاء بعهد الله :

" ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقىونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون " . ( ٢ )

الواجب للنفس :

ليس بعد واجب العرف نحو ربه ونحو دينه ما هو أهم من واجبه نحو نفسه . هي قوام حياته وسر وجوده فاذا قصر فى واجبه نحوها أهلك نفسه وأول مظاهر القيام بهذا الواجب أن يحافظ العرف على حياته ما لم يدع داع عن دينه وواجبه الأخلاقى الذى المخاطرة بها .

( ١ ) الكهف ، آية ٢٣ .

( ٢ ) التوبة ، الآيات ٢٥-٢٧ .

ومن مظاهر تلك المحافظة أن يسير على أدق نظام صحي يكفل له سلامة البدن فلا يسرف في مأكّل أو مشرب أو عمل أو غير ذلك من كل ما يضر بكيانه وأن يعنى فوق ذلك بنظافة بدنه وثوبه ومكانه .

لكن لما كان المرء لم يخلق لكي يعيش في الدنيا بجسمه فقط بل أيضا بعقله الذي يعطيه السيادة والسمو على جميع الكائنات الأرضية كان من الواجب عليه أن يحافظ على ذلك العقل وأن يعمل على انماء قواه وملكانه ولن يتيسر له ذلك الا بممارسة العلوم والمعارف ودوام التأمل في هذا الكون .

وليس مطالب الصحة البدنية والعقلية هي كل ما يراد بل هناك أيضا مايجب للنفس من تقدير واحترام الى حد المشروع اللائق بالعقلاء الذين يعرفون قســدر أنفسهم بلا غلو أو غرور ودين تفريط يهدر كرامته وحرمة . ومتى تم للمرء صون حياته وحفظ صحته الجسدية والعقلية وصون كرامته فانه يكون بلا شك قد قام بما يجب عليه (١) نحو نفسه خير قيام .

### (٣) الواجب للأسرة :

لقد أوصى الدين الاسلامي عن طريق القرآن الكريم والسنة الشريفة بهذا الواجب فواجب الأسرة يأتي بعد واجب النفس مباشرة لما للروابط الأسرية من مكانة في النفس الانسانية فهي صلة رجم وعلاقة دم .

رقد نص القرآن الكريم بالآيات الكريم على الواجب نحو الوالدين . فهناك الآية الكريمة التي قرنت بين عبادة الله وعدم الشر لبيه وبين الاحسان .

---

(١) تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية ، ص ١٣٢ .

الى الوالدين ، قال تعالى : " واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى " (١) ، والآيات والأحاديث فى ذلك ليست بحاجة الى البيان .

وان التعاون فى هذا الواجب المقدس لهو دليل فساد الطبع وعمى البصيرة

كذلك نرى القرآن الكريم على الواجب نحو الآباء من حيث احترام حياتهم فقال تعالى : " ولا تقتلوا أولادكم من أملأى نحن نرزقكم وإياهم " . (٢)

أيضا من حيث التربية والتوجيه فقال تعالى : " يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن " (٣) ، وقال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة " . (٤)

كذلك أكد القرآن الكريم على الواجب المفروض على الانسان نحو الزواج سواء كان رجلا أو امرأة فجعل الزواج رابطة مقدسة ومحترمة ، فقال تعالى :

" يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا " . (٥)

كذلك جعل الزواج هو السكن والمودة والرحمة فقال تعالى : " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا بها وجعل بينكم مودة ورحمة " . (٦)

كما وجه الى أسلوب المعاملة فجعله معاملة انسانية كريمة فقال تعالى :  
" وتأشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا " . (٧)

- |                        |                        |
|------------------------|------------------------|
| (١) النساء ، آية ٣٦ .  | (٢) النساء ، آية ١٥١ . |
| (٣) الأحزاب ، آية ٥٩ . | (٤) التحريم ، آية ٦ .  |
| (٥) النساء ، آية ١ .   | (٦) الروم ، آية ٢١ .   |
| (٧) النساء ، آية ١٩ .  |                        |

(٤) الواجب للأمة :

ان أبناء الوطن الواحد هم أيضا أخوة متساندون أمام الشدائد والكوارث وممن  
خوفاً الوطن أن يتأثر في كيانه العام بكل ما يصيب أفراده من ضرر أو نفع فالحرب التي  
تعرك أمة من الأمم فتودى بخيرة شبابها لابد أن تؤثر في إنتاجها وفي تقدمها . كذلك  
فإن كل تهاون من الفرد في حق أمته لابد مصيبها ومصيبه وإن ادرك الروابط الوطنية  
في أدق نواحيها وأبعد مراميها لا يتم إلا لمن اتسع أفقهم بالتربية والتثذيب . لذلك فقد  
وضع الدين الاسلامي العديد من الوصايا في هذا المقام .

ولذلك يرى أحمد أمين أن الأمة كالساعة . فكل آلة لها عمل ولابد من أداء كل  
آلة عملها لينتظم سيرها . (٢)

تلك هي الحقوق والواجبات التي تتألفها الاسلام وأكد عليها وأوصى بالتمسك بها  
حتى يصلح المجتمع المسلم حيث أنها مصدر صلاح الدنيا والآخرة فكل ما هو حق للفرد  
هو واجب على غيره فلا بد أن يواعى المسلم أخيه . قال تعالى : " واعتصموا بحبل  
الله جميعاً ولا تفرقوا " . (٣)

---

(١) بتصرف من تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية ، ص ١٢٣ ، ط ٢ .

(٢) الأخلاق ، أحمد أمين ، ص ١٧٥ ، ط ١٠ .

(٣) آل عمران ، آية ١٠٣ .

( ٢ ) التحلية بالأخلاق الفاضلة والقيم الحميدة •

(١) سورة النور ، آية ٣١ .  
(٢) مدارج السالكين لابن القيم، ص ٣٣٢، ٣٣٣ .  
(٣) سورة الحجرات، آية ١١ .

وكان أصحابه يعدون له من المجلس الواحد قبل أن يقوم "رب اغفر لي وتب على انك أنت التواب الغفور" مائة مرة . وواصل صلاة قط بعد اذ نزلت عليه " اذا جاء نصر الله والفتح " - الى آخرها - الا قال فيها " سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي " . وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال " لن ينجى أحدا منكم عمله قالا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا الا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل " . ( ١ )

وحقيقة التوبة : هي الندم على ماسلف منه في الماضي والاقلاع عنه في الحال والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل . ( ٢ )

وللتوبة أحكام تشدد الحاجة اليها ونذكر بعضها منها :

( ١ ) أن المبادرة الى التوبة من الذنب فرض على الفور حتى لا يتعلق به ذنب جديد . ولا يجوز تأخيرها فمتى أخرها . فمتى أخرها عصى بالتأخر . فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى . وهي توبته من تأخير التوبة وقل أن تخطر هذه بهال التائب . بل عنده : انه اذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر . وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة . ولا ينجى من هذا الا توبة عامة ما يعلم من ذنوبه وما لا يعلم . فان ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه . ولا ينفعه في عدم المؤاخذه بها جهله اذا كان متمكنا من العلم . فانه عاصى بترك العلم والعمل . فالمعصية في حقه أشد .

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم حين ندعو الأولياء والصالحين : " الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل فقال أبو بكر : " فكيف الخلاص منه يا رسول الله ؟ قال : أن تقول : اللهم انى أعوذ بك من أشرك بك وأنا أعلم . واستغفرك لما لا أعلم .

فهذا طلب الاستغفار ما يعلمه الله أنه ذنب ولا يعلمه العبد .

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم " أنه كان يدعو في صلاته : اللهم اغفر لى خطيئتي وجهلى واسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى " . فهذا التعميم وهذا الشمول

( ١ ) مدارج السالكين ، ابن قيم الجوزية ، ج الأول ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، دار الكتب العلمية

بيروت ، لبنان .  
( ٢ ) المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

لتأتى التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه ما لم يعلمه .

( ٢ ) ومن أحكام التوبة أنه هل يشترط فى صحتها أن لا يعود الى الذنب أبدا

أم ليس ذلك بشرط ؟

فشرط بعض الناس عدم معاودة الذنب وقال : متى عاد اليه تبينا أن التوبة

كانت باطلة غير صحيحة .

والأكثر على أن ذلك ليس بشرط وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن

الذنوب والندم عليه والعزم الجازم على ترك معاودته .

والمسألة مبنية على أصل . وهو : أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده فهل

يعود اليه اثم للذنوب الذى قد تاب منه ثم عاوده بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر

ان مات مصرا ؟ أو ان ذلك قد بطل بالكيفية . فلا يعود اليه اثم وإنما يعاقب على هذا

الأخير ؟

وفى هذا قولان :

القول الأول يقول : يعود اليه اثم الذنب الأول لفساد التوبة وبطلانها بالمعاودة .

لأن التوبة من الذنب بحضرة الاسلام من الكفر . والكافر اذا أسلم هدم اسلامه ما قبله

من اثم الكفر وتوابعه . فاذا ارتد عاد اليه الاثم الأول مع اثم الردة . كفاى الصحيح

عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال " من أحسن فى الاسلام لم يؤخذ بما عمل فى

الجاهلية ومن أساء فى الاسلام أخذ بالأول والآخر " فهذا حال من أسلم وأساء فى

اسلامه ومعلوم أن الردة من أعظم الاساءة فى الاسلام . فاذا أخذ بعدها بما كان منه

فى حال كفره . ولم يسقطه الاسلام المتخلل بينهما . فهكذا التوبة المتخللة بين

الذنبين لا تسقط الاثم السابق كما لا تمنع الاثم اللاحق .

ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها والموافاة عليها والمعلق على الشرط بعدم  
عند عدم الشرط • كما أن صحة الاسلام مشروطة باستمراره والموافاة عليه •

لذلك قالوا : ويدل على هذا : الحديث الصحيح • وهو قوله صلى الله عليه  
وسلم " ان العبد ليعمل فاذا كان عند الموت جار في وصيته فدخل النار " • فالخاتمة  
السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية والأعمال بالخواتيم •

أما أصحاب الرأي الآخر فقد قالوا بأنه لا يعود اليه اثم الذنب الذي تاب منه  
بنقى التوبة • ويحتجوا على رأيهم هذا بأن ذلك الاثم قد ارتفع بالتوبة وصار بمنزلة  
ما لم يعمل • وكأنه لم يكن • لأن التوبة ليست كالكفر الذي يحبط الأعمال • فإن  
الكفر له شأن آخر ولهذا يحبط جميع الحسنات • أما الذنب العائد مرة أخرى فلا يحبط  
التوبة السابقة عليه • (١)

(٣) ومن أحكام التوبة أيضا : أن العبد اذا تاب من الذنب قبل يرجع السى  
ماكان عليه قبل الذنب من الدرجة التى حطه عنها الذنب أو لا يرجع إليها ؟

اختلف فى ذلك

قالت طائفة : يرجع الى درجته لأن التوبة تجب بالكلية وتصيره كأن لم  
يكن وذلك لأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح فاذا كان ذنبه قد حطه عن درجته  
فحسنته بالتوبة جعلته يرتقى الى ماكان عليه قبل الذنب من الدرجة •

وهذا كمن سقط فى بئر وله صاحب أدلى اليه حبلا تمسك به حتى رقى الى موضعه  
فهكذا التوبة والعمل الصالح مثل هذا القرين الصالح •

وقالت طائفة : لا يعود الى درجته وحاله لأنه لم يكن فى وقوف وانما كان فى  
صعود فبالذنب صار فى نزول وهبوط فاذا تاب نقى عليه ذلك القدر الذى كان مستعدا به  
للتبقى • (٢)

(١) المرجع السابق • (٢) المرجع السابق ، ص ٣١٨٣١٧ •



(٤) أيضا من أحكامه وهي أنه : هل المطيع الذي لم يعصى خير من العاصي الذي تاب الى الله توبة نصوحا أو هذا التائب أفضل منه ؟

اختلف في ذلك ..

فطائفة رجحت من لم يعصى على من عصى وتاب توبة نصوحا • واحتجوا بوجوه منها :

أحدها : أن أكمل الخلق وأفضلهم : أطوعهم لله وهذا الذي لم يعصى أطوع فيكون أفضل •

الثاني : أن في زمن اشتغال العاصي بمنهنيته يسبقه المطيع عدة مراحل الى فوق فتكون درجته أعلى من درجته • فاذا تاب استقبل سيره ليلحقه وذلك في سير آخر فاني له بلحاظه ؟

فهنا بمنزلة رجلين مشتركين في الكسب كلما كسب أحدهما شيئا كسب الآخر مثله فبعد أحدهما الى كسبه فأضاعه وأسلك عن الكسب المستأنف والآخر جد في الكسب فأنى له بمساواته ؟

الثالث : أن الذنب بمنزلة شرب السم والتوبة ترياقه ودوائه والطاعة هي الصحة والحافية وصحة وعافية مستمرة خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه وربما أديا به الى التلف أو العرض •

أما الطائفة الأخرى : فرجحت التائب وان لم تتكرر كون الأول أكثر حسنات منه • واحتجت بوجوه :

أحدها : أن عبودية التوبة من أحب العبوديات الى الله وأكرمها عليه فانه سبحانه يحب التوابين ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء اليه لما ابتلى بالذنوب أكرم الخلق عليه

فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذى يوجب وقوع محبوبه فى التوبة •

الثانى : أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات ولهذا يفرح سبحانه وتعالى بتوبة عبده حين يتوب اليه أعظم فرح كما مثله النبى صلى الله عليه وسلم بفرح الواجد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدوية المهلكة بعدما فقدتها وأيى من أسباب الحياة ولم يجيىء هذا الفرغ فى شىء من الطاعات سوى التوبة اذن فالعبد ينال بالتوبة درجة المحبوبة فيصير حبيباً لله فان الله يحب التوابين •

الثالث : أن الذنب قد يكون انفع للعبد اذا اقترنت به التوبة من كثير من الطاعات وهذا معنى قول بعض السلف قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة ويعمل الطاعة فيدخل بها النار قالوا وكيف ذلك ؟ قال : يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه ان قام وان قعد وان مشى : ذكر ذنبه • فيحدث له انكسار وتوبة واستغفاراً وندماً فيكون ذلك سبب نجاته ويعمل الحسنة • فلا تزال نصب عينيه • ان قام وان قعد وان مشى كلما ذكرها أورثته عجا وكبرا ومنه • فتكون سبب هلاكه • فيكون الذنب موجبا لترتب طاعات وحسنات ومعاملات قلبية من خوف الله والحياء منه والاطراق بين يديه منكسا رأسه خجلا باكيا نادما مستقبلا ربه • وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صوله وكبرا واحتقار للناس فاذا أراد الله بهذا العبد خيرا أبقاه فى ذنب يكسره به وينكس به رأسه ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنه عليه وعلى عباده فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء •

كما قال المولى عز وجل فى قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه :  
" يا آدم اذا عصمتك وعصمت بنيك من الذنوب فعلى من أجود بحلمى ؟ وعلى من أجود بمغفرى ومغفرى وتوبتى وأنا التواب الرحيم " • " يا آدم ما أهبطتك من الجنة الا لتتوسل الى فى الصعود اليها وما أخرجتك منها نفيا لك عنها ما أخرجتك منها الا لتعود •

يا آدم لا تجزع من قولى لك " اخرج منها " فلك خلقتها ولكن أهبط البهيمى  
دار المجاهدة وأبخر بذراته قوى •

يا عبدى لا تجزع فمك البلاء وعلى الاجابة ومنك الاستغفار وعلى المغفرة ومنك  
التوبة وعلى تبديل سيئاتك حسنات •

وقد قال تعالى " الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم  
حسنات وكان الله غفورا رحيما • ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا " (١)  
وهذا من أعظم البشارة للتائبين اذا اقترن بتوبتهم ايمان وعمل صالح • وهو  
حقيقة التوبة •

وقال تعالى : " قل يا عبدى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة  
الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم " (٢) (٣)

(٥) ومن أحكام التوبة أن تكون توبة نصوحا ، قال تعالى : يا أيها الذين  
امنوا توبوا الى الله توبة نصوحا • على ربكم أن يكثر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات  
تجرى من تحتها الأنهار " (٤)

ومعنى النصح فى التوبة والعبادة أى تخليصها من كل غش ونقض وإيقاعها على أكمل  
الوجوه •

وقد اختلفت عبارات السلف عنها ومرجعها الى شيء واحد • فقال عمر بن الخطاب :  
" التوبة النصوح : ان يتوب من الذنب ثم لا يعود اليه كالا يعود اللبن الى الضرع " •

---

(٣) مدارج السالكين ، ص ٣٢٠ : ٣٢٨

(١) الفرقان ، آية ٧٠ ، ٧١

(٤) سورة التحريم ، آية ٨ •

(٢) الزمر ، آية ٥٣

وقال الحسن البصري " هي أن يكون العبد نادما على ما مضى مجمعا على أن لا يعود فيه . (١)

هذه معنى أحكام التوبة وهي اسم جامع لشرائع الاسلام وحقائق الايمان فهي الرجوع عما يكرهه الله ظاهرا وباطنا الى ما يحبه ظاهرا وباطنا ولذلك يدخل في مسماها الاسلام والايمان والاحسان وتتناول جميع المقامات ولهذا كانت غاية كل مؤمن وبداية الامر وخاتمته ، قال تعالى : " ربكم أعلم بما في نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفورا " . (٢) وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها فضلا عن القيام بها علما وعملا .

فالتوبة هي حقيقة دين الاسلام والدين كله داخل في معنى التوبة وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله . فان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وانما يجب من فعل ما أمره وترك ما نهى عنه . (٣)

ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الاسلام وحقائق الايمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم . وباب التوبة مفتوح للعبد الى آخر يوم من عمره فعن النبي صلى الله عليه وسلم : " ان الله عز وجل ليقبل توبة العبد يالم يفور " هذا كما علمنا ما يتعلق بالشق الأول في جوانب الأخلاق الاسلامية أما الشق الثاني فهو التحلية بالفضائل والقيم الأخلاقية .

فالفضيلة هي الخلق الطيب وقد قدمنا أن الخلق هو عادة الارادة فإذا اعتادت الارادة شيئا طيبا سميت هذه الصفة فضيلة وهناك فرق بين الفضيلة والواجب فالفضيلة صفة نفسية أما الواجب فهو عمل خارجي وعلى هذا يقال فلان أدى الواجب ولا يقال

(١) مدارج السالكين ، ص ٣٣٦ .

(٢) الاسراء ، آية ٢٥ .

(٣) مدارج السالكين ، ص ٣٣٣ .

أدى الفضيلة بل جاز الفضيلة والفضائل والقيم التي في الاسلام كثيرة وسنتناول بعض منها .

#### أولا : العدل

فالعدل هو اعطاء كل ذي حق حقه وهو فضيلة عظيمة أقرها الاسلام قسنا  
تعالى : " لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط  
وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس " . ( ١ )

فكل انسان مطالب أن يعمل لتحقيق العدل في مجتمعه على قدر استطاعته . كما  
أنه يجب عليه اليقظة في حكمه واجتهاده وألا يتغلب عليه هوى أو ميل عن العدل .

فالعادل ينبغي عليه أن يعمى عن الاعتبارات التي تجعله يتحيز من غير  
حق .

قال تعالى : " وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى " ( ٢ ) ، وقال تعالى :  
" اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله " ( ٣ )

كما أنه من الواجب أن يطبق الانسان العدل على نفسه أولا ثم على غيره ثانيا .  
كما أمر الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى : " ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء  
ذي القربى " ( ٤ ) ، وقال تعالى : " وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " ( ٥ )

---

( ١ ) الحديد ، آية ٢٥ ( ٢ ) الأنعام ، آية ١٥٢ .

( ٣ ) المائدة ، آية ٨ ( ٤ ) النحل ، آية ٩٠

( ٥ ) النساء ، آية ٥٨ .

فالعدل فضيلة دعا اليها الاسلام ولا نجد ديناً خي العدل بعناية كذلك التمسى  
خصه بها دين الاسلام وحسبنا القرآن الكريم شاهداً بذلك فقد دعى صراحة الى مراعاة  
العدل فى كل موضوع تدعو الحاجة فيه الى العدل . بل لقد نبه الى وجوب مراعاته  
حتى فى معاملة الأعداء والمخالفين فى الدين ، قال تعالى : " ولا يجرمنكم شنآن  
على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى " . ( ١ )

والسنة المحمدية مليحة بالحث على العدل . ومن ذلك الحكمة الشريفة  
" الظلم ظلمات يوم القيامة " ، " من ملك على عشر رقاب جى به يوم القيامة ويده  
مفلولتان الى عنقه حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور " . وفى بيان منزلة العدل والعادلين  
روى عن عبد الله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم : " ان المقسطين عند الله على منابر من نور الذين يعدلون فى حكمهم فى  
أهلهم وماولوا " . ( ٢ )

أما مآثر رجال الاسلام فى مراعاة العدل فقد بان لنا فى تاريخهم الشئ الكثير  
منها . وعلى الأخص فى تاريخ الخلفاء الراشدين الذى تلقوا أسمى قدوة فى ذلك من رسول  
الله صلى الله عليه وسلم فكانوا ينصفون الناس من أنفسهم ومن أبنائهم وان كانوا على غير  
دينهم . ويرعون حق الضعيف فيؤدونه اليه كاملاً غير منقوص .

ويختص بالذكر فى هذا المقام الخليفة العادل عمر بن الخطاب الذى أقام دولة  
الاسلام على العدل وكان خير قدوة للمسلمين فى تطبيق هذه القيمة على نفسه وبسته .

ويقول الدكتور / بيمار فى كتابه " ان عمر بن الخطاب صاحب الدولة العصرية  
يقول فى وصيته للخليفة من بعده : " اجعل الناس عندك سواء . لا تبال على من  
وجب الحق ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم وإياك والمحاباء فيما ولاك الله " .

وعمر هذا هو الذي أقام على ابنه الحد . وهو الذي استنمى ابن عمرو بن العاص  
من مصر حين رفع مصرى أمره اليه وقال : " استعبدتم الناس وقد ولتهم أمهاتهم أحرارا اضرب  
ابن الأكرمين " (١) وهذا كله انما يرجع الى ذكاء عمر الشديد وحكمته البالغة .

#### ثانيا : الاقتصاد

لقد طلب الاسلام من المؤمن التوسط والاعتدال في كل أمور حياته ومن أهمها  
المال فالمال ليس حسنا في ذاته انما هو حسن أو قبيح حسب استعماله . فهو حسن  
في يد من يحسن استعماله وقبيح في يد من يسيئه فيجب أن نتعلم من استعمال  
المال وطرق كسبه وتوفيره . وهناك علاقة وثيقة بين حسن استعمال المال وبين  
الأخلاق فكثير من الفضائل والبرائات عمادها المال . فكثيرا ما يكون الفقر سببا للجرام  
وادخار شيء من المال يبعث في النفس قوة وطمأنينة يجعلها أبعد عن المذلة والهوان  
وأكثر مطالبة بالحقوق وأصلب أخلاقا .

---

(١) المختصر في العقيدة والأخلاق ، د. بيمار ، ص ١١٦ ، ط الأولى .

أيضا كل انسان عرضة لأخطار ومتاعب تصادفه في الحياة من مرض أو غيره فلا بد من توفير جزء من المال ندخره لوقت الحاجة ونحفظ به أنفسنا من الدين ومن المذلة فتدبير العال وحسن التصرف فيه أساسا من أسس الأخلاق الفاضلة .

لذلك قال تعالى : " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المرففين " (١) ، وقال تعالى أيضا : " ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا " . (٢)

فيجب أن نتعود ألا نسرف في وقت الرخاء ادخارا لأوقات الشدة والأزمات وكما قال الشاعر :

والنفس راعية اذا رغبته . . . واذا ترد الى قليل تقنع

### ثالث : العفة

#### " ضبط النفس "

ضبط النفس فضيلة من الفضائل التي تجعل الانسان سيد نفسه لا عبدا لشيوات تسير كما تشاء .

ويقول أحمد أمين :

وضبط النفس هو اعتدال الميل الى اللذائذ وخضوعه لحكم العقل وليس ذلك مقصورا على اللذائذ الجسمية بل يشمل أيضا اللذات النفسية كالانفعالات والعواطف فلا يسمى الشخص " ضابطا لنفسه " الا اذا اعتدل في لذاته الجسمية من مأكّل ونحوه واعتدل أيضا في انفعالاته فلم يغضب لأيّ داع . (٣) وكثير من الرذائل يرجع سببه الى عدم القدرة على ضبط النفس كالطمع والغضب والادمان .

(١) الاعراف ، آية ٣١ .

(٢) الاسراء ، آية ٢٩ .

(٣) الأخلاق ، أحمد أمين ، ص ١٩٩ ، ط العاشرة .



فالعفة فضيلة تتطلب من الانسان القصد في اللذائذ فان هو فرط فانهك في شهواته أو فرط فأماتها وبالع في الزهد فقد حاد عن سواء السبيل فخير طريق في الحياة أن ينيل الانسان نفسه ملذاتها الطبية ويعطيها مشتهياتها مالم عن حدود الأخلاق .

فذلك أدى الى نشاطها وأقرب الى طبيعتها ويجب ألا يتجاوز حدودها المشروعة . (١)

قال تعالى : " وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا واحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين " . (٢)

فليس يقتضي ضبط النفس التمسك على الرغبات والشهوات وانما يقضى تهذيبها واعتدالها وجعلها خاضعة لحكم العقل ففي القماء على الشهوات قضاء على الشحى وعلى النوع وفي اعتدالها سعادتهما جميعا .

قاله تعالى دعانا الى عدم تحريم الطبييات . فقال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طبييات ما أحل الله لكم ولا تمتدوا ان الله لا يحب الممتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون " . (٣)

وقد روى البخارى (٤) من طريق محمد بن جعفر عن حميد بن أبى حميد الطويل أنه سمع أنس بن مالك رضى الله عنه يقول : " جاء ثلاثة رهط (٥) الى بيوت أزواج النبی صلی الله علیه وسلم يسألون عن عبادة النبی صلی الله علیه وسلم فلما أخبروا بما كانوا يقالوها فقالوا : وأین نحن من النبی صلی الله علیه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم : أما أنا فأنا أصلى الليل أبدا وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا فجاء البيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله انى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب من سنتى فليس منى " . (٦)

(١) الأخلاق ، أحمد أمين ، ص ٢٠٢ ، ط العاشرة . (٢) سورة القصص ، آية ٧٧ .

(٣) سورة المائدة ، آية ٨٧ .

(٤) فى كتاب النكاح : باب الترهيب فى النكاح لقوله تعالى : ( فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، ٨٥/٩-٨٦ ) .

(٥) هم على بن أبى طالب وعبد الله بن عمرو وعثمان بن مظعون .

(٦)

وقد روى الدرهمي من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال :  
لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء بعث اليه رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فقال : يا عثمان اني لم أؤمر بالرهبانة أرغبت عن سنتي ١٩ قال :  
لا يا رسول الله قال : ان من سنتي أن أصلي وأنام وأصوم وأطعم وأنكح وأطلق فمن رغب عن  
سنتي فليس مني يا عثمان ان لأهلك عليك حقا ولنفسك عليك حقا .

قال سعد : فوالله لقد كان أجمع رجال من المسلمين على أن رسول الله صلى  
الله عليه وسلم ان هو أقر عثمان على ما هو عليه أن نخصى فنتبتل " . (١)

والعفة شأنها شأن كثير من الفضائل السامية لا تحصل ملكتها بالتعليم النظري  
ولا تتم فضيلتها بالأمر والنهي المجريين . وانما هي قبل كل شيء قدوة ورياسة عليية  
منذ الصغر . فلا بد لكي يلقي النشء فضيلة العفة ويألفها أن يكون مربية عفيفا قبل  
كل شيء فان عفة رب الأسرة عن المحارم لتكون أبلغ درس في العفة يلقيه لزوجته  
وأبنائه . وتهاونه في ذلك يجبر الى فساد بيته وضياع شرفه ولذلك كانت الحكمة الشريفة :  
عفوا تعف نساؤكم .

وأولى الناس بالعفة والحرص على التحلي بفضيلتها انما هم العلماء لأنهم قدوة  
الدنيا وأئمة الهدى . أقوالهم مأثورة وأفعالهم منظورة وهفواتهم عظام وزلتهم من أكبر  
الجرائم .

---

(١) سنن الدرهمي ، كتاب النكاح : باب النهي عن التبتل ١٣٣/٢ .

وهناك فرق بين العفة والقناعة في علم الأخلاق • إذ العفة تقتضى ضبط النفس  
عن جميع الشهوات وعن كل ما لا يليق بانسان فاضل فالعفيف تنهاه عفته عن التعرض  
للمحارم مادي منها وماجل وعن الخوض في الأغراض •

أما القناعة التي هي الاكتفاء باليسير من مطالب البدن فقد توجد حيث لا توجد  
العفة • قد يقال على رجل أنه قانع لأنه يكفى بالقليل ولا يقال عليه عفيف  
لأنه لا يعف عن الكذب والغيبة والنميمة وأمثالها مما يعف عنها الكرام •

#### رابعاً : المصدق

والمصدق من أهم الفضائل في الاسلام لأنه من أهم الآس التي نبني عليها  
المجتمعات ولولاه ما بقى مجتمع ذلك لأنه لا بد للمجتمع من أن يتفاهم أفرادهم بعضهم  
مع بعض لكي يتعاونوا •

"والمصدق هو أن يخبر الانسان بما يعتقد أنه الحق وليس الاخبار مقصوراً على  
القول بل يكون بالفعل كالإشارة باليد وهز الرأس ونحوهما وقد يكون بالسكوت من غير  
قول ولا فعل فمن ارتكب جريمة ورأى غيره يذنب على ارتكابها ثم سكت فقد كذب •

ولا يحق لانسان بحال من الأحوال أن يفتح على نفسه باب الكذب بل ينبغي أن  
يلتزم لاصدق في جميع أقواله وأعماله" (١)

قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " (١)

---

(١) الأخلاق ، أحمد أمين ، ص ١٨٦ ، ط العاشرة •

(٢) الشريعة ، آية ١١٩ •

ولقد كانت فضيلة الصدق منذ القدم خلق الأنبياء والعلماء الأفاضل • وكان أول  
جبر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة معتمدا على الصدق الذي عرف به بين قومه •  
اذ قال لهم أرايتم أن أخبرتكم أن خلف هذا الوادي خيلا تريد أن تغير عليكم أكتسم  
مصدقى ؟ قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا • قال : انى نذير لكم بين يدي عذاب شديد •  
وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يؤثرون الصدق مهما كان وراءه من الألم •  
وقد قال صلى الله عليه وسلم " ان الصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة  
وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا • وان الكذب يهدي الى الفجور والفجور  
يهدى الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا " (١)

ويكفى فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به فى  
معرض المدح والثناء فقال تعالى : " واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا " (٢)  
وقال ابن عباس رضى الله عنه " اربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحياة وحسن  
الخلق والشكر " •

والصدق فضيلة أساسية ضرورية للاجتماع الانسانى ولولاها لما قامت شريعة  
ولا استنارت سبيل الهداية ولا دون علم ولا ارتقى فنن •

---

(١)

(٢) مريم ، آية ٤١ •

### خامساً : العلم

فالعلم من أولى الفضائل التي دعا إليها الإسلام وكانت الآيات الأولى التي نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : " اقرأ باسم ربك الذي خلق خلقت الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم " . ( ١ )

فكان ذلك دعوة النبي العلم وكانت تلك الآية الكريمة هي أول مادة دستورية نزلت تحارب الأمية الجاهلية وترفع من شأن العلم .

وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم على طلب العلم فقال عليه الصلاة والسلام " اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد " . ( ٢ )

وقال عليه الصلاة والسلام " من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله له طريقاً إلى الجنة " ولقيمة العلم العظيمة أن فرض عليه الصلاة والسلام على أسرى بدر لكى يفتدوا أنفسهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين .

وقد عظم الله تعالى الأدوات الرئيسية للعلم ورفع من شأنها بأن أقسم بأداة الكتابة وهي القلم ، قال تعالى : " ن والقلم وما يسطرون " ( ٤ ) فهذا تشريف وتعظيم لقد ر القلم وأثره في العلم .

كذلك رفع من شأن العلم والعلماء فقال تعالى : " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " . ( ٥ )

---

( ٤ ) سورة العلم ، آية ١ .

( ١ ) سورة العلق ، آية ١ : ٥ .

( ٥ ) سورة المجادلة ، آية ١١ .

( ٢ )

( ٣ )

أيضا الله المولى عز وجل على أن أهل الحقيقة له تعالى هم العلماء فقال تعالى:  
" انما يخشى الله من عباده العلماء" . (١)

هذا هو موقف الاسلام من العلم كقيمة لها شأن عظيم في ازدهار الحضارة  
الاسلامية .

وقد قال الله تعالى : " فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من  
فضل الله " . (٢)

فقد ربط الله تعالى بين العبادة والعمل واعتبر أن العمل عبادة وتقرب إلى  
الله . وكما أمر آدم العمل والكسب كذلك أمر أبناءه بمواصلة السعي وعامرة الكون حتى  
يكونوا جديرين باستخلاف الله تعالى لهم في الأرض .

#### سادس : اتقان العمل

فالعمل من القيم الأساسية في الاسلام حيث أنه هو السبيل لتحرير النفوس من  
الذلة والمساءلة وقد أمر المولى عز وجل آدم عليه السلام حين أنزله إلى الأرض بالعمل  
والمجاهدة لتعمير الكون والسعي والكسب للانتفاع بخيراتها .

وقد قال تعالى : " من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة  
طيبة" . (٣)

وقال تعالى : " ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية" . (٤)

وقال تعالى : " وقل اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون" . (٥)

- 
- |                               |                              |
|-------------------------------|------------------------------|
| ( ١ ) سورة فاطر ، آية ٢٨ .    | ( ٢ ) سورة الجمعة ، آية ١٠ . |
| ( ٣ ) سورة النحل ، آية ٩٧ .   | ( ٤ ) سورة البينة ، آية ٧ .  |
| ( ٥ ) سورة التوبة ، آية ١٠٥ . |                              |

وقد حدث الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين على العمل فعن أبي عبد الله الزبير بن العوام رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحِبَّهُ (١) ثُمَّ يَأْتِيَ الْجِبَلَ فَيَأْتِيَ بِحِزْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعُهَا فَيَكْفِ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَنْ يُعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ " . (٢)

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
" لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حِزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعُوهُ " متفق عليه .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعمل بنفسه فعن عائشة رضى الله عنها أنه كان يخفف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته .

وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه " لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة " . فيجب على الإنسان المسلم أن يقبل على العمل الشريف حتى يتجنب ذل الحاجة والسؤال وحتى يزدهر المجتمع المسلم ويقوى ويتقدم .

هذا وقد طلب الاسلام من المسلم اتقان عمله فعن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ان الله يحب انا عمل أحدكم عملا أن يتقنه " .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كان داود عليه السلام لا يأكل الا من عمل يده " . (٣)

---

(١) أحبله بفتح الهمزة وسكون المهمله وضم الموحدة : جمع حبل .

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه البخارى .

وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " كان زكريا عليه السلام  
نجارا " . (١)

وعن المقداد بن معد يكرب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :  
" ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده " . (٢)

فيجب على المسلم أن يتقن عمله حتى يرضى عنه الله ورسوله مع وجوب مراعاته  
لتقوى الله في عمله وذلك بأن يتحرى الصدق والأمانة ومراقبة النفس في عمل الحلال  
والبعد عن الحرام والاخلاص في ذلك العمل .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخاري .



### المبحث الثالث

### القرآن والالزام الخلقي

إذا حاولنا أن نتحدث عن فكرة الالزام من واقع القرآن الكريم لوجدنا أن القرآن

الكريم قد بحث هذه المشكلة من كل جوانبها .

فالاسلام يرفض أن يتحدث عن أخلاق يلزمها المجتمع للفرد دون أن يكون لهذا

الفرد دور فيها حيث ينبغى للفرد أن يعرضها على عقله وأن يسلك بناء على اقتناع عقلي

بها .

كذلك فإن الدين الاسلامي يرفض أن يكون الدين من حيث هو مصدرا للشعور

الخلقي . بمعنى أن القرآن الكريم يرى أن الفرد دوره سواء فيما يتعلق بالمجتمع

وفيما يتعلق بالدين وهما قطبان رئيسيان يقتسمان الفرد : فلا ينبغى للفرد أن يطيع

هذا أو ذاك طاعة عمياء .

صحيح أن للمجتمع سلطته على الفرد وكذلك الدين لكن هذه السلطة أو تلك اذا

سلبت الفرد قدرته ومن ثم حريته على الفعل فلن يكون سلوكه بناء على ذلك سلوكا

أخلاقيا .

ان الاسلام يرفض أن يكون الفرد بمثابة شيء في يد السلطة الاجتماعية أو السلطة

الدينية ذلك الفرد الذي خلقه الله في أحسن تقويم حيث خلقه على صورته . ان المثل

الأعلى المتمثل في سلطة الدين أو المتمثل في سلطة المجتمع ينبغى أن ينال رضا

الفرد وأن يكون موضع ثقته واحترامه وينبغى أن يعمل تأثيره على الفرد بحيث يسلك

الفرد سلوكه طبقا لحريته واختياره . فبدون هذا الاحترام أو التقدير المتبادل بين

الفرد وبين السلطة المحيطة به فلن يكون ثمة اختيار وبالتالي فلن تكون هناك

حريّة .

وعلى هذا فإن القرآن الكريم - واحتراما منه للفرد - طلب منه أن تكون احكامه واعتقاداته قائمة على العقل وبعبارة عن " الهوى " فلقد أكد في غير موضع أن يسلك الانسان سلوكه بعيدا عن هواه وغرائزه من جهة وأن لا يؤمن بالدين ايانا تقليديا بحيث يتابع في ذلك آباءه وأجداده والقرآن في هذا الصدد ينص في كثير من آياته على محاربة الهوى أو ان شئت النفس الأمارة بالسوء ، فالقرآن الكريم يشير في كثير من آياته الى أن ثمة أكثر من باعث على السلوك الانساني .

فهناك أولا الرغبات والأهواء والميول الشخصية ، وهناك ثانيا تقليد الآباء أو ما يمكن أن نسميه السلطة الاجتماعية حيث يكون المرء حينئذ في سلوكه مقلدا أو مرددا أفعال وأقوال الآخرين .

وهناك محرك آخر لسلوك الانسان وهو العقل البشري وهو السلطة الوحيدة المعتبرة في الانسان والتي جادلها القرآن وناقشها ووجه حديثه اليها والتي طالب من الانسان أن تكون الفيصل بينه وبين غيره من كائنات .

ومن الآيات الكثيرة التي تحارب الهوى قوله تعالى : " ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله " (١)

وقوله تعالى : " فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا " (٢) ، وقوله تعالى : " ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله " (٣)

وقوله تعالى : " وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى " (٤) ، وقوله تعالى : " وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى " (٥)

(٢) سورة النساء ، الآية ١٣٥

(١) سورة م : الآية ٢٦ .

(٤) سورة النجم ، الآية ٣ .

(٣) سورة القصص ، الآية ٥٠ .

(٥) سورة النازعات ، الآية ٤٠ .

كذلك من الآيات التي تحارب التقليد واتباع معتقدات الآخرين واتباع سلوكهم دون تفكير أو أعمال للفهم من جهة الفرد قوله تعالى : " انا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثرهم مقتدون " (١) . وقوله تعالى : " واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا " (٢)

وقوله تعالى : " أتتينا أن نعبد ما يعبد آباؤنا " (٣) ، وقوله تعالى : " تريسون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا " (٤) .

وهكذا نجد آيات كثيرة تدم اتباع الهوى وتدم التقليد الأعمى .

وبهذا نعلم أن القرآن الكريم قد حث الانسان على أن يسير بناء على العقل هو ميزة الانسان الوحيدة التي امتاز بها عن غيره من الكائنات .

اذن وضع القرآن الكريم أن الأخلاق لا يمكن أن تتم الا في حضور العقل فاذا كان العقل حاضرا فان العزم حينئذ يكون حرا في سلوكه .

ومن المعروف أنه حيثما توجد الحرية نستطيع أن نتحدث عن سلوك أخلاقي أو غير أخلاقي أما اذا لم يكن الانسان حرا في سلوكه فانه من ثم يكون بعيدا عن دائرة الأخلاق والقرآن الكريم بهذا انما يسبق أعظم الفلاسفة الأخلاقيين .

ولقد أخطأ الذين ذهبوا الى أن القرآن قد عطل البحث الأخلاقي وأنه وضع قيسونا صارمة على العقل البشري وأنه زهد الناس في الدنيا بحديثه عن هول النار ونعيم الجنة بحيث دأب المسلمون على طاعة الله طاعة عمياء خوفا من النار وطمعا في الجنة .

أقول أن مثل هذه الآراء لا نصيب لها من الصحة . ذلك أن العدل الالهي مشتمل من أهم الصفات التي يتصف بها الاله عند المسلمين . والعدل الالهي يقتضي كما هو متعارف أن يعطي الله كل ذي حق حقه . ولم يكن من العدل الالهي أن ينقض هذا القانون لو أنه سبحانه أجبر الناس على أفعالهم فان قضية التكليف الحقيقي الالهي يكمن جوهرها في الحرية

(١) سورة الزخرف ، الآية ٢٣ . (٢) سورة الاعراف ، الآية ٢٨  
(٣) سورة هود ، الآية ٦٢ . (٤) سورة ابراهيم ، الآية ١٠

الانسانية وساكان يمكن لهذه القضية ان يكون لها معنى ومغزى دون حرية الانسان فكيف يخاطب الله الانسان بقوله : " افعل " و " ولا تفعل " دون أن يملك ويشعر بالقدرة على الفعل .

صحيح أن الله خالف كل شيء لكنه سبحانه خلق الانسان وتركه في العالم يفعل مايشاء لأنه بعد هذا سوف يحاسبه على ما فعل فالانسان يشارك الحيسوانات في كل شيء عدا العقل الذي هو مناط التكليف الالهي فالله تعالى خلق الانسان باعتباره كائنا ناميا حساسا عاقلا . وهذه الصفة الأخيرة خاصة بالانسان وحده .

ولعل هذه الميزة هي التي فضل الله الانسان بناء عليها عن ما عداه فجعل الملائكة تسجد له حيث قال تعالى : " وفضلناهم " بنى آدم " على كثير ممن خلقنا تفضيلا " (١)

ويطالعنا القرآن الكريم بالقول أن الله قد خلق الانسان ووهبه الاستعداد لعمل الخير والاستعداد لعمل الشر .

يستطيع أن يسير بناء على العقل ويستطيع أن يسير بناء على الرغبة والميل والهوى ولقد وهب الله الانسان القدرة على ذلك وتركه وشأنه قال تعالى : " ونفس وما سواها فآلهمها فجورها وتقواها " . (٢)

وقال تعالى : " ألمنجعل له عينين ولسانا وشفقتين وهديناه النجدين " (٣)

وقال تعالى : " وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى " . (٤)

(٢) الشمس ، الآية ٧

(١) الاسراء ، الآية ٧٠

(٤) النازعات ، الآية ٤٠

(٣) البلد ، الآية ١٠

وعلى ضوء ذلك فإن القرآن الكريم بين أن الانسان يستطيع أن يدرك من تلقاء نفسه  
الخير والشر وأن يميز بينهما وهذا هو دور العقل البشرى •

أما المصدر الرئيسى للالزام الخلقى الذى يوضحه القرآن الكريم فهو النص الدينى أى أن  
السلطة الفعلية للالزام الخلقى هو الله • تلك السلطة التى ينبغى أن نعتد عليها فى كل  
احكامنا وواجباتنا الخلقية •

هذه السلطة الرئيسية للالزام الخلقى لا تسلب الفرد حريته واستقلاله بل تدعمهما  
وهى لا تفرض عليه احكاما لا يعقلها أو يحيط بها علما بل تجعله مشرعا فى مملكة الأخلاق  
ومنفذا للمبادئ التى شرعها لنفسه حيث أن الالزام الخلقى الصادر عن الله تعالى اللزما  
يتفق وطبيعة العقل البشرى يتفق مع النظرة الموضوعية للأمور فكلنا نعرف ونؤكد على أن  
السرقه شر والزنا شر والقتل شر وكلنا يرى أن الأمانة أفضل من الخش والخيانة وأن الصدق  
خير من الكذب • هذه أمور نسلم بها جميعا فإذا جاء الأمر الإلهى وكان أكثر تشددا من  
الانسان فى الحى عليها متبعا أحيانا فكرة الترغيب والترهيب لكان معنى هذا أنه يقربنا من  
فطرتنا ومن طبيعتنا الأصلية • ان القرآن بذلك يحيلنا الى فكرة الواجب بذاته مبينا أن له  
قيمه الذاتية بغنى النظر عن اتيانه أو عدم اتيانه • فالخير خير والشر شر •

فالخير والشر من الصفات الذاتية للأشياء ولقد أكد القرآن الكريم ذلك وحى عليه  
فاللزام الذى يلزنا به القرآن الكريم هو الالزام المتعلق بالخير فحسب وقد ورد ذلك  
فى قوله تعالى : " ان الله لا يأمر بالفحشاء " •

هذا الالزام الذى يدعونا القرآن الكريم الى الأخذ به ليس أمرا عسيرا أو صعب المنال  
أو يستحيل تحقيقه بل انه فى متناول الكل • والله أعلم •  
" تم بحمد الله "

فهرس الكتاب

رقم الصفحة

مقدمة

الفصل الأول : مدخل لعلم الأخلاق ..

١١	المبحث الأول : التعريف بعلم الأخلاق .....
١٧	المبحث الثاني : موضوع علم الأخلاق .....
٢١	المبحث الثالث : الغاية من علم الأخلاق .....
٣١	المبحث الرابع : تقسيم علم الأخلاق .....
٣٣	المبحث الخامس : الأخلاق ومكانتها فى الاسلام .....
٣٧	المبحث السادس : مكانة علم الأخلاق من الفلسفة .....
	المبحث السابع : العلاقة بين علم الأخلاق وغيره من العلوم
٤٢	الفلسفة الانسانية .....

الفصل الثانى : الخلق والسلوك وأهمية التربية الخلقية للفرد والجماعة ..

٤٩	المبحث الأول : الخلق .....
٦٠	المبحث الثانى : السلوك .....
٦٢	المبحث الثالث : التربية الخلقية .....

الفصل الثالث : الظاهرة الخلقية والحكم الخلقى ..

٧١	المبحث الأول : الظاهرة الخلقية .....
٧٦	المبحث الثانى : الحكم الخلقى .....

رقم الصفحة

	الفصل الرابع : المسئولية والجزاء ....
٨١	المبحث الأول : المسئولية .....
٩٤	المبحث الثاني : الجزاء .....
	الفصل الخامس : الأخلاق الفلسفية ..
١٠٦	المبحث الأول : الأخلاق اليونانية .....
١٠٦	أولا : سقراط .....
١١٣	ثانيا : أفلاطون .....
١١٥	ثالثا : أرسطو .....
١٢٤	المبحث الثاني : الأخلاق الإسلامية .....
١٢٧	أولا : ابن مسكويه .....
١٧٢	ثانيا : الامام الغزالي .....
	الفصل السادس : الأخلاق الدينية الإسلامية ..
٢٠٩	المبحث الأول : الجوانب الأساسية في الشريعة الإسلامية .....
٢١٤	المبحث الثاني : القواعد الأساسية في الأخلاق الإسلامية .....
٢٥٣	المبحث الثالث : القرآن والالتزام الخلقى .....

رقم الايداع بدار الكتـب

٩٣/٢١٢٣